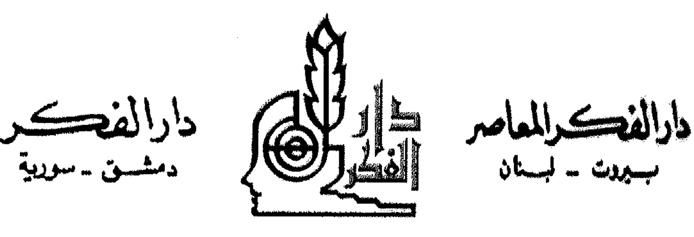
عبد الرحمن النحلاوي

من أساليب التربية الإسلامية







عبد الرحمن النحلاوي

- مواليد دمشق ١٩٢٧

- متخصص في الفلسفة والتربية.

- عمل بالتدريس في عدد من المؤسسات العلمية التربوية بالوطن العربي كجامعة دمشق وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ومكتب التربية العربي لدول الخليج وغيرها.

- **من مؤلفاته العديدة:**

* التربية الخاصة وطرق التدريس.

* التربية الإسلامية والمشكلات المعاصرة.

* أصول التربية الإسلامية وأساليبها.

* سلسلة أعلام التربية في تاريخ الإسلام (ابن تيمية، يوسف بن عبد البر، الإمام الذهبي).

* سلسلة من أساليب التربية الإسلامية (التربية بالآيات، التربية بالعبرة، التربية بضرب الأمثال، التربية بالحوار).

بسم الله الرحمن الرحيم

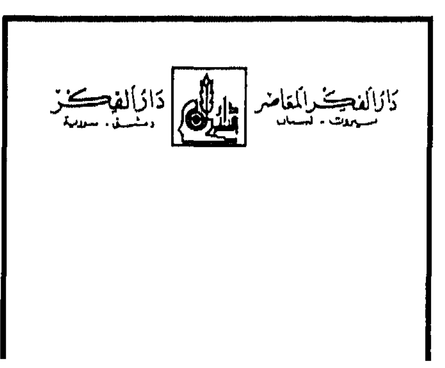
من أساليب التربية الإسلامية

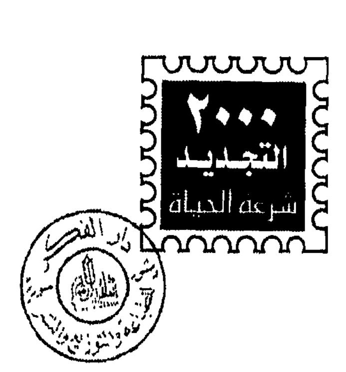
التربية بالحوار

التـربيـة بالحـوار : من أسـاليب التـربيـة الإسـلامـيـة /
عـبد الرحـمن النحـلاوي . - دمـشق : دار الفكـر، ٢٠٠٠ . -
٢٢٤ص؛ ٢٥سم.
١-٧,٢١٠ ن ح ل ت ٢-٩٤٣٧,٢١١ ن ح ل ت
٣- العنوان ٤ - النحلاوي مكتبة الأسد
ع- ٣٨٠/ ٣/ ٢٠٠٠

عبد الرحمن النحلاوي

التربية بالحوار





الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤٢١ هـ

آب (اغسطس) ٢٠٠٠م

الرقم الاصطلاحي: ١٣٦٩,٠١١

الرقم الدولي: ISBN: 1-57547-293-7

الرقم الموضوعي: ٣٧٠

الموضوع: التربية والتعليم

العنوان: التربية بالحوار

(من أساليب التربية الإسلامية)

التأليف: عبد الرحمن النحلاوي

الصف التصويري: دار الفكر - دمشق

التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق

عدد الصفحات: ٢٢٤ ص

قياس الصفحة: ١٧ × ٢٥ سم

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد

ص.ب: (٩٦٢) دمشق - سورية

برقياً: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦

هاتف ٢٢٣٩٧١٧، ٢٢١١١٦٦

http://www.fikr.com/

E-mail: info @fikr.com

المحتوى

مقدمة

يعدُّ الحوار في هذا العصر وسيلة للتفاهم بين الدول أو بين الشعوب عن طريق من يمثلهم، من أجل تضييق شقة الخلاف، وتقريب وجهات النظر المتضاربة أو المتباينة.

ولكن هذا الحوار الذي يجري بين الدول والشعوب، لايستهدف إحقاق حق، ولادفع مكروه عن صاحب حق، لوجه الحق، بل يستهدف تحقيق المصالح وإرضاء النّزوات وتقاسم المنافع المتبادلة، ولو أدّى ذلك إلى طمس الحق أو ظلم الـمُحِقّ، أو هضم الحقوق، وبهذا يختلف مفهوم الحوار السياسي عن مفهوم الحوار القرآني اختلافاً عميقاً كلّياً.

فالحوار القرآني موجّه من ا لله إلى عباده، ليتجاوبوا مع نداء ربهم، وا لله منزّه غني عن أي مصلحة أو منفعة...

إنه الحوار الرباني، به يخاطب ا لله عباده، يأمرهم وينهاهم ويهديهم ويرشدهم، وقد أراد ا لله لهم أسلوب الحوار ليشعرهم بمكانتهم عند ربهم، وليستخدموا نعمة العقل والتمييز بين الخير والشر، بين الحق والباطل، إذ يدعوهم إلى اعتناق الحق بعد أن يبيّنه لهم، ويحذّرهم من الشر والباطل، وقد أوضح لهم مغبّتهما ونتائجهما، كما يدعوهم إلى تصحيح مسارهم وسلوكهم في الحياة على ضوء ذلك، كل ذلك بأسلوب (حواري خطابيّ) رصين.

والحوار القرآني صادق حتميّ النتائج، فا لله لايضيع أجر من أحسن عملاً، ولايُخلف ا لله وعده ﴿إلاّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إذْ أَخْرَجَهُ الّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إذْ هُما فِي الْغارِ إذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إنَّ اللّهَ مَعَنا﴾ [التوبة: ٩/٤٠].

وقد نصر عباده المؤمنين بعد أن وَفّوا بشرطه الذي اشترطه عليهم بهذا الأسلوب الحواري الخطابي العَطوف المتّزن: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧].

ثم خاطبهم ا لله مبيناً لهم صدق وعده بحوار تذكيريّ رؤوف: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ا للهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا ا للهَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُون* إذْ تَقُولُ لِلمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاثَةِ آلافٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِين؟﴾ [آل عمران: ٣/١٢٣-١٢٤].

وهكذا تنوّعت أشكال الحوار القرآني وأصنافه بتنوُّع مقاصده.. ليواكب الحاجات الفطرية الإنسانية، فكان منه الحوار الخطابي بأشكاله التسعة: من تذكيريّ وتعبُّديّ، وإيمانيّ (موجه إلى الذين آمنوا) وإنسانيّ، ونبويّ (موجه إلى النبي ﷺ) و...ومنه الحوار البرهانيّ: يبرهن بالحجة والمنطق على المعطيات والأهداف الاعتقادية التي جاءت في القرآن لتحقيق سعادة الإنسان وإصلاح حياته ومجتمعه، ولإقامة علاقاته على أساس صحيح سليم متين.

ومنه الحوار التعليمي الموافق لفطرة المتعلم، المشبع لرغبته في حب الاستطلاع بصيغه الثلاث، ومنه الحوار القصصي المشوّق الممتع المؤثر...

والحوار القرآني، بجميع أصنافه وصيغه وأشكاله: يهذّب المشاعر، ويوقظ الوجدان، ويربي العواطف الربانية ويجيب عن أسئلة السائلين... ولايمكن حصر أهدافه في هذه المقدمة.

أما آثاره التربوية فهي أكثر من أن تستوعبها هذه السطور، ذلك أنّ كل هدف من أهدافه -التي تربو على العشرين- يربّي جانباً أو أكثر من جوانب النفس، وينشيء

وينمّي عاطفة أو أكثر من العواطف الربانية، ويلبي حاجة أو أكثر من الحاجات الإنسانية أو الاجتماعية أو التشريعية أو النفسية عند الفرد أو المجتمع أو الدولة...

وحسبنا في هذه المقدمة أن نسترعي الانتباه إلى أهمية الحوار القرآني والنبوي؛ ونترك لفصول الكتاب وأبوابه، وأمثلته وتحليله، مهمة البيان والبرهان العلمي على مانشير إليه هنا. ومن ثَمَّ يستطيع كل مؤمن، وكل عاقل، وكل منصف، أن يتابع الحوار القرآني، من خلال آيات القرآن وتوجيهاته وأساليبه ليعيش في إشراقة الأمل والحق والنور...

والحوار القرآني -بعد ذلك كله- أسلوب تربوي فريد في قوة تأثيره وعمق آثاره التربوية والنفسيّة، وحسبه أنه مظهر من مظاهر تجلّي العناية الإلهية بالإنسان؛ ليعتز بإنسانيته ويستمر في مناجاة ربه وتفهّم آياته وتشريعه، ويستلهم الثقة بربه، ثم بنفسه وبالمستقبل، ويحيي في نفسه الأمل المشرق، والحب المزدهر والإيمان والصبر على جميع مشقات الحياة وظروفها...



Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الأول

المعنى اللغوي والتربوي للحوار
وتعريف الحوار القرآني والنبوي

المعنى اللغوي والتربوي للحوار

جاء في مختار الصحاح[1]: ((والمحاورة: المجاوبة، والحِوارُ التّجاوُبُ)).

وفي القاموس المحيط[2]: ((..واستحاره: استنطقه.. وما أحار جواباً: ماردّ جواباً وحوّره تحويراً: رَجَعَه. التحاوُر: التجاوب.. وتَحَيَّرَ الماء: دار واجتمع)).

وانطلاقاً من هذا المعنى اللغوي، ومّما جاء في تاريخ التربية؛ من أخبار عن الحوار السقراطي وغيره، أصبح التعليم عن طريق الحوار أسلوباً تربوياً معتمداً، ومعناه تعليم الناشئ عن طريق (التحاوب) معه، بعد تحضير الأسئلة تحضيراً يجعل كلّ سؤال يُبْنَى على الجواب المأخوذ من المتعلّم، على نحو يجعل المتعلم يشعر في نفسه بأن النتائج التي توصّل إليها ليست جديدة عليه...

فيصل المتعلم إلى المعلومات التي يُراد إقناعه بها دون كبير عناء، ودون أن يشعر أنها مفروضة عليه، ودون أن يجد غرابة أو صعوبة في تلقي هذه المعلومات والاقتناع بها وتَبنّيها؛ فالمربّي يُرجع إلى المتعلم ما أخَذه منه بالاستجواب، بعد أن يبني عليه

---

(١) مختار الصحاح للرازي أبي بكر (حور)، منشورات دار الحكمة دمشق طبعة ١٩٨٣م.

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادي (حَوَرَ)، الناشر مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

المعلومات الجديدة التي تَلزَمُ عنه لزوماً منطقياً فطريّاً، بَدَهياً، وقد سبق القرآن والسنّة إلى أسلوب الحوار بشتّى أشكاله وصيغه، فكان أسلوباً ناجحاً مبسّطاً، ميسّراً، تُمارَسُ من خلاله الدعوة إلى الله.

وقد اتخذه رسل الله وأنبياؤه وسيلةً لهداية الشعوب التي أُرسِلوا إليها.. ولكن هذه الصورة التي شرحناها هنا، قلّما نجدها في القرآن بهذا الوضوح، لذلك لابد لنا من تتبُّع مواطن الحوار القرآني والنبوي لنصل إلى التعريف اللائق بهما.

تعريف الحوار القرآني والنبوي

إذا استقرأنا آيات الخطاب أو النداء الربّاني وماحكاه القرآن من صُوَرٍ للحِوَار: بين الأنبياء وأممهم، أو بين أهل الجنّة وأهل النار، بعضهم مع بعض، أو بين أهل الجنة والنار وبين أصحاب الأعراف، وماقام به الرسول ﷺ وماأجراه من حوار وماحكاه لنا من صور المناجاة بين العبد وربه عند قراءة القرآن، لخرجنا بمعان متعددة مختلفة للحوار القرآني والنبوي، يصعب احتواؤها بتعريف يجمع كل معانيها، وأشكالها؛ لأنها ليست على نمط واحد، ولكنها من حيث المغزى والمرمى تؤدي أهدافاً مشتركة، لذلك عددناها أسلوباً تربويّاً موحّداً.

وهذا الأسلوب يمكننا، مبدئياً، أن نعرّفه بأنه: كل نداء، أو خطاب، أو سؤال يُوَجِّهُه القرآن، أو يحكيه مُوجَّهاً إلى منادًى أو مخاطَبٍ أو مخاطبين، حول أمر هام، أو يوجّهه النبي ﷺ إلى أصحابه أو إلى المسلمين، بقصد توجيههم، أو توجيه اهتمامهم إلى هذا الأمر أو إلى تحقيق هدف معين أو القيام بسلوك فكريّ أو اعتقاديّ أو اجتماعيّ أو أخلاقيّ أو تعبّدي، وعددناه حواراً مع تقديرنا لاستجابة المخاطب أو تجاوبه النفسي، أو مع ملاحظة جواب القرآن على السؤال أو النداء المطروح.

وللحوار القرآني صور عديدة، سنعرضها متدرجين بها من شكلها الأغنى بالمضمون والمبنيّ على التركيب في المعنى التربوي، وتعدّد العناصر التي يتألف منها الحوار إلى أبسط معاني الحوار القرآني وأشكاله، وهو أكثرها وروداً في القرآن.

واستكمالاً لإيضاح معنى الحوار القرآنيّ والنبوي سنعرض مثالاً نبسط فيه عناصره التي يتركب منها حين يكون في صورته الأكمل، والأغنى بالدلالة التربوية.

العناصر التربوية التي يتكوّن منها الحوار القرآني والنبوي

من المعلوم في منهج الاستنباط من القرآن والسنة (ويسميه فقهاؤنا علم الأصول) أنّ السُّنّة جاءت مفصِّلة لمجمل القرآن مُبَيِّنة له، تحقيقاً للحكمة الإلهية من إنزال القرآن على نبيّه، وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٦/٤٤].

لذلك آثرنا أن نستنبط العناصر التي يتكون منها هذا الحوار، من الحوار النبوي، حيث جاءت مفصّلة بعض التفصيل، وذلك في الحديث الذي رواه عدي بن حاتم يحكي كيف جرى (حوارٌ) بينه وبين النبي ﷺ كما نقله السيد رشيد رضا في (تفسير المنار)[1]، قال: قال الإمام الرازي: ((نُقل أن عَدِيّ بن حاتم الطائي كان نصرانياً فانتهى إلى رسول الله ﷺ وهو يقرأ سورة (براءة) فوصل إلى قوله تعالى:

- ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٩/٣١].

قال عديّ بن حاتم فقلت:

- ((لَسنا نعبُدهم))

فقال له النبي ﷺ:

- ((أليسَ يُحرِّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه؟ ويحلّون ماحرّم الله فتستحلونه؟)).

- عديّ بن حاتم: قلت: ((بلى)).

- فقال النبي ﷺ: ((فتلك عبادتهم)).

وبهذا الحوار علّم النبي ﷺ عَدِيّ بن حاتم والحاضرين المستمعين هذه القاعدة في أمر العقيدة: أن الطاعة في التحريم والتحليل والتشريع بغير ماأنزل الله هي من العبادة لغير الله.

---

(١) تفسير المنار ١٠/٣٦٦-٣٦٧ نقلاً عن تفسير الرازي، ط. مطبعة المنار بمصر، الطبعة الأولى ١٣٤٩هـ-١٩٣١م. وأورده ابن كثير ٢/٣٦٢ عن أحمد والترمذي وابن جرير.. وآثرنا هذه الرواية لوضوح الحوار فيها..

تحليل هذا الحوار النبوي إلى عناصره أو مراحله التربوية:

يمكننا أن نحلل هذا المثال إلى مراحل الحوار أو عناصره وهي:

١ـ أسئلة أو تقرير معلومات تثير عند المتعلم التساؤل ليعطي رأيه حول الموضوع الذي يراد مناقشته، وتتم هذه المرحلة بأسئلة تمهيديّة تصاغ لهذا الغرض. أما في هذا المثال فقد جاءت الآية التي تتحدث عن النصارى واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً، جاءت وافية بهذا الغرض، فقد استمع إليها عديّ ووعاها، فدفعه ذلك إلى أن يقول رأيه: ((لسنا نعْبُدهم)) فهو لم يكن يعرف أن الطاعة في التشريع بغير ماأنزل ا لله نوع من العبادة واتخاذ الأرباب، لذلك أنكر أن يكونوا قد عبدوهم.

٢ـ أسئلة أو تقرير معلومات تُبَيّن للمتعلم أن ماأدْلَى به في جوابه يؤدّي إلى أفكار خاطئة أو ناقصة، أو تشعره بالخطأ ونقص المعلومات ليصبح مستعداً لتلَقّي المعلومات الصحيحة التي يُراد إلقاؤها إليه مشتاقاً إليها، وتتجلّى في هذا المثال بسؤال النبي ﷺ:

((أليسَ يحرّمون ماأحلَّ ا لله فتحرّمونه؟ ويحلّون ماحرّم ا لله فتستحلّونه؟)).

وفي جواب عدي بن حاتم الذي حكاه لنا بقوله: ((قلت: بَلَى)).

٣ـ تقرير المعلومات التي يراد هداية المخاطب إليها والعمل بها، وتتجلى هنا في تعليق النبي ﷺ على جواب حاتم وهو قوله ﷺ: ((فَتِلْك عبادتُهم)). ومعلوم بالبداهة عند عَديّ بن حاتم أنه لا أحد يستحق العبادة إلا ا لله. ولكن النبي ﷺ تابع محاورته ليوصله بالحوار إلى هذه الحقيقة وليبلغ معه بالمناقشة والقناعة إلى الإقرار بعقيدة التوحيد، وهي ماأراد هدايته إليه.

وقد جاء هذا الحوار في رواية للحديث نقلها ابن كثير في (تفسير القرآن العظيم)[(١)]، عن الإمام أحمد والترمذي وابن جرير مِن طرق، عن عَدي بن حاتم، رضي ا لله عنه، أنه لما بلغته دعوة الرسول ﷺ، فرّ إلى الشام، وكان قد تنصّر في الجاهلية، (وذكر

(١) ابن كثير تفسير القرآن العظيم ٣٦٢/٢، الناشر دار المعرفة بيروت.

الراوي خبر إسلام أخته وإكرام الرسول ﷺ لها، ورحيلها إلى أخيها، وترغيبه في الإسلام.. ثم ذكر عن عدي خلاصة الحوار الذي بسطناه في الصفحة الماضية وحلّلناه إلى عناصره التربوية) ثم قال:

- وقال رسول الله ﷺ: ((ياعَديُّ ماتقول؟ أيضرك أن تقول: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟)) ((أيضرك أن يقال: لاإله إلا الله؟)) ((فهل تعلم إلهاً غير الله؟)).

و لم يذكر الرواة جواباً عن كل سؤال من هذا الحوار على حدة ولكن ذكروا خبر إسلامه، فكان هذا جوابه عن جميع هذه الأسئلة.

قال الراوي: ثمّ دعاه إلى الإسلام فأسلم، وشهد شهادة الحق. أي قال: ((أشهد ألاّ إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)) فهذه الشهادة اعتراف منه بأنّ الله أكبر من كل شيء، وبأنّه لا إله إلا هو، وبهذا أوصله المعلم المربي لهذه الأمة نبيُّنا محمد ﷺ إلى الإقرار عن قناعة وبرهان بالهدف الذي بدأ معه الحوار من أجله، فأدّى هذا الحوار مهمته التربوية والتعليمية، وحقق هدفه في هداية عديّ بن حاتم إلى الإسلام والإقرار بشهادة الحق، وبهذا التحليل يتم العنصر الثالث من عناصر الحوار التربوية.

مثال من الحوار القرآني على مراحل الحوار

لما كان الحوار القرآني البرهاني[1] الذي يثبت بطلان عبادة غير الله، ويدعو إلى توحيد الله بالعبادة، موجّهاً أوّلاً إلى المشركين، وهو الذي يمكن تحليله إلى هذه العناصر أو المراحل التربوية، ولما كان المشركون قد لجّوا في عنادهم وطغيانهم فلا يُتَوقع منهم أن يتجاوبوا مع هذا الحوار القرآنيّ؛ لذلك سنرى أن القرآن يتولى صياغة أسئلة وأجوبة تغْني عن جواب المشركين، ليقيم عليهم الحجة بها، وليتم تقرير مايُراد تقريره، مما يَلزَمُهُم الإقرار به، بالبرهان والحجة، لزوماً منطقياً ناشئاً عن بداهة المقدمات التي صيغت في أسئلة المرحلة الأولى التي تحكي واقعهم أو تعبر عما هو مشاهد بالحسّ والواقع، فلايمكن إنكاره.

(١) سيأتي تعريف الحوار البرهاني قريباً في الفصل الثاني: تصنيف الحوار القرآني.

والمثال التالي خير دليل على ذلك، وهو الحوار القرآني مع المشركين الوارد في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ، فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاّ الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ١٠/٣١-٣٢]. فهذا حوار يقوم على سؤالهم عما يعترفون به من فضل ا لله ورزقه.. ذلك أن مشركي العرب لم يكونوا ينكرون وجود ا لله، ولا أنه الخالق والرازق والمدبّر. إنما كانوا يتخذون الشركاء للزُّلفى(١) ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة ا لله، فهو يأخذهم بما يعتقدونه، ليصحح لهم عن طريق هذا الحوار الذي يوقظ وعيهم الفطري، ذلك الخلط والضلال الذي كانوا واقعين فيه؛ لذلك أمر نبيه أن يحاورهم ويسألهم:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ؟﴾ من المطر الذي يحيي الأرض، ومن طعام الأرض: نباتِها وطيرها وأسماكها وحيوانها.

وذلك هو ماكانوا يدركونه ويحسّونه حينذاك من رزق السماء والأرض، ثم سألهم ا لله تعالى: ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ﴾ يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها، ويصحّحها أو يُمرضها؟

ثم سألهم جلّ جلاله: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟﴾ فالساكن في نظرهم وعُرْفهم هو الميّت، والنامي المتحرك هو الحي، وهذا هو المشهود عندهم في خروج النبتة من الحبّة والحبّة من النّبتة. وإنّ وقفة تأمُّلٍ أمام الحبة والنّواة تخرج منهما النبتة والنخلة، أو أمام البيضة والبويضة يخرج منهما الفرخ والإنسان، لكافية للدلالة على عظمة الخالق ودقة صنعه وإبداعه. وإلاّ فأين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟ وأين كان يكمن العود؟ وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق؟.. وأين

(١) أي للتقرب إلى ا لله وليكونوا شفعاءهم عند ا لله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلاّ ليقربونا إلى ا لله زُلفى﴾ [الزمر: ٣٩/٣].

في البيضة كان الفرخ؟ وأين كان يكمن العظم واللحم، والزَّغَب والريش، والزقزقة والصوت؟.. وقل مثل ذلك في الإنسان وملامحه وسماته ونبرات الصوت ونظرات العين؟

ـ ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ في ذلك كلّه وفي سواه من شؤون الكون وشؤون المجتمع والحياة والبشر؟ من يدبر النظام الذي يحكم حركة الأفلاك على هذا النحو الدقيق؟ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللّـهُ﴾ إنهم لاينكرون وجود الله، ولاينكرون قدرته وتدبيره في هذه الشؤون، بل يعترفون بذلك ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله. فيتوجّهون بالخشوع والشعائر إلى سواه. كما يتّبعون شرائع لم يأذن بها الله، لذلك وجّه الله إليهم سؤالاً ينكر هذا الانحراف، ويبعث فيهم خشية الله: ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ؟﴾ أفلا تخشون الله الذي يرزقكم من السماء والأرض، والذي يملك سمعكم وأبصاركم، والذي يدبر الأمر كلّه؟ وهكذا يدعوهم إلى خشية الله الذي ينتقم من كل من يشرك به.

وبهذا يدعوهم إلى توحيد الله. فالذي يملك هذا كله هو الله، وهو الربّ الحقّ. فمن تجاوزه إلى عبادة غيره فقد ضل وزاغ عن الحق إلى الضلال والضياع. لذلك قرر لهم هذه الحقيقة وبنى عليها سؤالاً ينكر انحرافهم ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾. ﴿فَمَاذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاّ الضَّلالُ؟﴾.

ـ ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟﴾ كيف تبعدون عن الحق إلى الضلال، والحق واضح بَيّنٌ تراه العيون؟ وفي هذا دعوة لهم وتوجيه إلى العودة إلى الحق والصحوة من هذا الضلال والضياع، والحذر ممن يصرفهم عن الحق ويُوَسوس لهم ليزيّن لهم الباطل...

التحليل التربوي لهذا المثال: يمكننا أن نشير إلى العناصر التربوية في هذا المثال فنذكر الدلالة التربوية لكل قسم من هذا النص القرآني، وقد عرضناه مع تفسيره بما فيه من أسئلة حوارية أو تقرير لأجوبة المشركين..

١ـ **فالعنصر الأول أو المرحلة الأولى** تتجلّى في أسئلة تكشف ماعند المخاطب من معلومات حول الموضوع الذي يراد مناقشته وتقريره. وقد جاءت في هذا المثال، في قوله تعالى يسأل المشركين:

س١: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ؟﴾.

س٢: ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ ؟﴾.

س٣: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟﴾.

س٤: ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ؟﴾ ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ وهكذا توصّل هذا الحوار القرآني إلى أن يحكي لنا إقرار المشركين بصفات ا لله الرازق المحيي المميت المدبر للكون، ونحوها مما لايمكن أن يتصف بها الشركاء الذين يعبدونهم مع ا لله، ليبني على هذا الإقرار تتمة الحوار:

٢ـ **المرحلة الثانية أو العنصر الثاني:** أسئلة تكشف عن خطأ المشركين وضلالهم وبُعدهم عن الصواب، وقد جاءت في سؤال واحد وهو قوله تعالى:

س٥: ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ؟﴾ أفلا تخشون ا لله؟ كيف تكفرون به، وتجعلون له أنداداً وشركاء تعبدونهم من دونه؟

٣ـ **المرحلة الثالثة:** وفيها يقرر القرآن الحقيقة التي تلزمهم ولايعترفون بها ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ ثم يسألهم مستنكراً.

س٦: ﴿فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاّ الضَّلالُ؟﴾.

س٧: ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟﴾ كيف تصرفون عن الحق وهو عبادة ا لله وحده والدينونة له، وترك عبادة الأصنام، والاعتقاد بأنه هو المشرّع والمستحق للعبادة؟.

فهذا السؤال الإنكاري حل محل جوابهم الأخير، الذي أجاب به من آمن منهم فشهد شهادة الحق بعد سماع القرآن وتدبُّره، كما رأينا في المثال السابق: كيف شهد بها عدي بن حاتم، وكما في قصة إسلام عدد من الصحابة...

الفصل الثاني

تصنيف الحوار القرآني والنبوي وبعض أنواعه

تصنيف الحوار القرآني والنبوي

بعد أن عرفنا مراحل الحوار القرآني والنبوي وعناصره التربوية، يمكننا أن نذكر أشكال هذا الحوار مبيّنين في كل صنف مدى احتوائه على هذه المراحل أو العناصر التربوية، وكون بعضها مضمراً يمكن تقديره لاستكمال معنى الحوار وبيان هدفه الذي يظهر غالباً في عنصره الثالث أو الأخير، كما رأينا في المثالين اللّذينِ حلّلناهما آنفاً.

النوع الأول: الحوار البرهاني:

معناه وعناصره: سُمّي هذا الحوار برهانياً؛ لأنه بمجموع أسئلته وأجوبتها يؤلف برهاناً منطقياً يُلزم المخاطب (أو المخاطبين) الإقرار بالأمر الذي صيغَ الحوار من أجل إقناعهم به وهدايتهم إليه.

ومنه المثالان اللّذان حلّلناهما آنفاً لبيان المراحل أو العناصر التربوية للحوار القرآني والنبوي: ويمكن صياغة البرهان الذي أسفر عنه الحوار القرآني الذي رأينا في المثال الأخير (من سورة يونس)، حيث يلخّص معنى الأسئلة القرآنية وأجوبتها التي تَلزَم المشركين، ولامحيد لهم عنها كما يلي على صورة مقدمات برهانية تلزَم عنها النتيجة لزوماً بدهياً فطرياً منطقياً يُقِرّ به كل ذي عقل صحيح وفطرة سليمة (راجع التحليل التربوي للمثال في الصفحات الماضية).

المقدمات:

١ـ الله هو الذي يرزقكم من السماء والأرض، وهو الذي يملك السمع والأبصار، ويخرج الحيّ من الميّت ويخرج الميت من الحي، ويدبر أمر الكون والليل والنهار وجميع الكواكب والأفلاك.

٢ـ لايستحق العبادة والألوهية من لايرزق ولايخلق ولايدبر أمور الكون، ولأحد غير الله يستطيع ذلك.

النتيجة:

إذن، لا إله إلا الله الرازق الخالق المحيي المميت المدبّر لشؤون الكون.

مثال وتحليل:

وهذا مثال آخر على الحوار **البرهاني: للبرهان على وجود الخالق وتفرُّدِهِ بالألوهية:** فالإنسان مخلوق حادث، ولاحادث بلا محدث؛ لذلك سأل الله نبيّه عن المشركين، ليبرهن أن الله خلقهم، ولكن السؤال جاء بصيغة الحصر في ثلاثة احتمالات؛ فإما أن يوجَدوا من غير خالق، وهذا مستحيل عقلاً، فالعقل لايجيز أن يحدث حادث من غير محدث، وقد جاء تقرير هذه المقدمة على شكل سؤال في الحوار القرآني في قوله تعالى:

س١ـ ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟﴾ وإما أن يدَّعوا أنهم خلقوا أنفسهم.

س٢ـ ﴿ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ؟﴾ [الطور: ٣٥/٥٢] وهذا مستحيل؛ لأنهم لم يكونوا موجودين قبل أن يُخلَقوا، والمعدوم لايَخْلُق.

وهكذا اشتمل هذا الحوار القرآني الاستفهام عن حقيقة وجودهم، هم أنفسهم، وهي حقيقة قائمة لامفر لهم من مواجهتها، ولاسبيل لهم إلى تفسيرها بغير مايرى القرآن فيها: أنّ لهم خالقاً أوجدهم هو الله سبحانه، وهو موجود بذاته، وهم

مخلوقون، والمخلوق لايكون خالقاً لنفسه؛ لأنه بحاجة دائمة إلى خالقه، ليُمده بالقوة والحياة؛ فحياته المستمرة المتجددة لاتقوم من دون مَدَد وتجديد.

ثم ينتقل القرآن إلى سؤالهم عن السماوات والأرض وهي موجودة حِيالهم يعيشون في كنفها، ويستمتعون بخيراتها. فهل هم خلقوها؟ كلاّ.

س٣ ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦/٥٢] فهم ليس عندهم يقين أو اعتقاد صادق يدفعهم إلى فعل مايلزم عن إقرارهم بالخالق من توحيد الله بالعبادة، وعدم الخضوع والتعظيم والطاعة في التشريع لغيره من الشركاء الذين اتخذوهم آلهة مع الله.

ثم يسأل الله تعالى عما يتمتعون به من رزق الله من نبات الأرض وثمارها الناتجة عن تصريف الرياح، وإنزال الأمطار، وخلق الحب والثمار، وكل هذا من خزائن الله، وهو الذي يبسطها أينما شاء، ويقبضها عمن يشاء، فهل هم المسيطرون على ذلك كله؟ هل يملكون خزائن الله أو يسيطرون على القبض والبسط؟

س٤، س٥ـ ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ؟ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧/٥٢] ثم يسأل الله عن تكذيبهم لرسوله ﷺ وماحجتهم؟ هل لهم سلّم يستمعون به إلى الملأ الأعلى، فيعلموا أن محمداً لايوحى إليه أو أن الحق غير مايقول؟.

س٦ـ ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨/٥٢] أي ببرهان قويّ له سلطان على النفوس يُلجئها إلى التّصديق.

ثم يسأل الله في هذا الحوار عن زعمهم بأن الملائكة بنات الله، وهم يتَصَوَّرُونَ الملائكة إناثاً؟ وكيف ينسبون بُنُوَّتَها إلى الله؟، وهم الذين تسودُّ وجوههم من الكَمَد والكظْمِ حين يُبشَّرون بالأنثى تولَدُ لَهُمْ؟:

س٧ـ ﴿أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونُ﴾ [الطور: ٣٩/٥٢] ثم يسأل الله نبيه مُعَرِّضاً[1] بهم، مُبَيِّناً براءة نبيه من المقاصد الدنيوية الدنيئة من طلب المال، أو الرئاسة، أو

(١) سيأتي تعريف الحوار التعريضي في الفصل الرابع.

القصور والعظمة المادّيّة، كما يفعل الرؤساء وأكثر رجال الدين، الذين كانوا يبيعون ضمائرهم ويكذبون على الله وآياته، ويأخذون بها ثمناً قليلاً وعَرَضاً من الدنيا قريباً.

يسأل الله نبيّهُ قائلاً: س٨ـ ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ؟﴾ [الطور: ٥٢/٤٠] أي مثقلون من الغُرم والمال الذي تأخذه منهم أجراً على ماتقول؟! ولمّا كان الواقع أنْ لاأجر ولاغرامة، فكم يكون ردُّهم لدعوتك مسترذلاً قبيحاً، وعليهم أن يخجلوا منه ومن أنفسهم؟ كيف يردّون إنساناً نزيهاً، بريئاً من أي غرض إلاّ إحقاق الحق وإرادة الخير وبيانه لهم، والأخذ بأيديهم إليه؟!

ثم يسأل الله نبيه عن هؤلاء المشركين:

س٩ـ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟﴾ [الطور: ٥٢/٤١] ويدّعون كذب النبي ﷺ ولابرهان لهم من الغيب ولادليل لهم من الواقع.

س١٠ـ ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً؟﴾ بك وبدعوتك ليثبتوك أو يقتلوك، ويحسبون أنهم قادرون على شيء من المستقبل، فيقولون شاعر نتربص به ريب المنون؟ ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٥٢/٤٢] هؤلاء المشركون هم الذين يحيق بهم المكر والكيد، والله خير الماكرين وهو الذي عنده علم الغيب، ويُنْزِل بهم من المكر الذي يقدّره مايستحقّون...

ثم يسأل الله، عز وجل، السؤال الأخير في هذا الحوار القرآني:

س١١ـ ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ؟﴾ ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٥٢/٤٣] أم لهم معبود يعبدونه ويلجؤون إليه، فيتولاهم غير الله الذي يلجؤون إليه وحده في جميع الشدائد؟ تنزَّهَ الله عن تصوّرهم الباطل بأنّ له شريكاً، أو شركاء..! وتعالى الله عن ذلك كله علوّاً كبيراً.

وهذا النوع من الحوار البرهاني يقوم على إسقاط حجج الخصم عن طريق السؤال حُجّة بعد حجة حتى لايبقى له إلا التسليم بالحق الذي يراد هدايته إليه. وكل حُجّة

يوضح القرآن بطلانها ويبرهن عليه، ينتهي بذلك إلى إثبات الحق في مقابلها، فيتكوّن من مجموعة الحقائق التي يثبتها مقدمات ونتيجة منطقية تلزم عنها يمكن تلخيصها على النحو التالي:

المقدمات:

١ـ الله هو الذي خلق البشر والسماوات والأرض، والمشركون هم وشركاؤهم ليسوا قادرين على شيء من ذلك (الأسئلة: ١، ٢، ٣) [الآيات: ٣٥، ٣٦].

٢ـ الله هو الذي يرزق البشر من خزائنه وهو المسيطر على توزيع الرزق يبسطه حيث يشاء، ويمسكه عمن يشاء (السؤالان ٤، ٥) [الآية: ٣٧].

٣ـ الله هو الذي ينزل القرآن على نبيه، وليس للمشركين ولالشركائهم أيّ صلة بالملأ الأعلى، وليس عندهم وسيلة يستمعون بها إلى الملأ الأعلى حتى يجعلوا لله شركاء يعبدونهم مع الله (س٦) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ؟ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [الآية: ٣٨] أي بحجة صحيحة واضحة.

٤ـ هذا النبي الذي يدعوهم إلى الإسلام لايطلب منهم مالاً ولاجاهاً: فليس له غرض إلا دعوتهم إلى الحق والخير، والأخذ بأيديهم إليه ليحقّق لهم السعادة في الدنيا والنجاة من غضب الله الناجم عن شركهم (س٨).

٥ـ المشركون ليس لهم أيّ اطلاع على الغيب حتى يدّعوا كذب النبي ﷺ أو يدعوا أن لله شركاء: (س٩): ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟﴾ [الطور: ٥٢/٤١]

النتيجة:

وبعد هذه الحقائق والمقدمات التي أثبتت عجز المشركين وشركائهم الذين يعبدونهم عن كل صفات الألوهية والربوبية، وأثبتت نزاهة هذا النبي الذي يدعوهم إلى توحيد الله؛ يسأل الله تعالى نبيه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ؟﴾ (س١١) ولما كانوا غارقين في عنادهم وكفرهم أجاب الله بتنزيه نفسه عما يزعمون له من شركاء ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ

عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الطور: ٥٢/٤٣]، تعالى ا لله وتنزه عن أن يكون له شريك أو ندّ يستحق العبادة معه أو مِن دونِهِ، وهذه هي النتيجة اللازمة عن هذه المقدمات الخمس في هذا الحوار القرآنيّ ختم ا لله بها الحوار، وأجاب بها جواباً عاماً شاملاً، عن كل هذه الأسئلة التي طرحها؛ ليبين ضعف المنطق المتهافت الذي تقوم عليه عقيدةُ المشركين وشركُهم وعبادتُهم غيرَ ا لله؛ والمراحل التربوية في هذا المثال يمكن تحليلها كما يلي:

١ـ المرحلة الأولى: تتجلّى في الأسئلة الموجهة إلى المشركين وهي التي تنْبئ عما يقرّون ويعترفون به من أن ا لله هو خالقهم ورازقهم، لذلك أغْنت عن أجوبتهم.

٢ـ المرحلة الثانية: يُمثّلها السؤال (١١) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ؟﴾ ومفاده أنه لاإله غير ا لله يقدر على شيءٍ مما سُئلوا عنه وهذا بإقرارهم.

٣ـ المرحلة الثالثة: تقرير المعلومات التي تلزم عن المرحلتين السابقتين وتأتي في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تَنَزّهَ ا لله عن أن يكون له أي شريك يستحق أن يُعْبَدَ معه...

النوع الثاني: الحوار الوصفي:

تعريفه:

هو حوار بين طرفين أو أكثر، يصف الحالة النفسية لبعض المتحاورين، أو يُشعِر السامع والقارئ بها؛ بقصد هدايته إلى الاقتداء بالصالحين، والابتعاد عن سلوك الشريرين الذي أودى بهم وأوصلهم إلى هذا الندم والعذاب النفسي والجسدي. وهو على ثلاثة أشكال:

١ـ حوار بين أهل النار بعضهم مع بعض، وقد يتخلّله عنصر ثالث يصدر الأوامر أو يعلق على الحوار أو يسأل بعض المتحاورين عن سبب مصيرهم.

٢ـ حوار بين أهل الجنة بعضهم مع بعض.

٣ً- حوار بين أهل الجنة والنار وأصحاب الأعراف، وهم طرف ثالث محايد، يعلّق على كلام أحد الطرفين المتحاورين ليزيد الموقف وضوحاً.

١ً- الشكل الأول: حوار بين أهل النار (مثال وتحليل)

المشهد الأول: مقدمة الحوار: يبدأ القرآن، لكي يعرفنا على أبطال هذا الحوار، بوصفهم وذكر رأيهم في البعث، فيعرض لنا كلامهم، وحوارهم مع النبي ﷺ، حول البعث:

- ﴿وَقالُوا إنْ هَذا إلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ ، أَإذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً وَعِظاماً أَإنّا لَمَبْعُوثُونَ ، أَوَ آباؤُنا الأَوَّلُونَ؟﴾ [الصافات: ٣٧/١٥-١٧] إنهم يسألون عن البعث بعد الموت، ويصفون وَعْد الله إيّاهم بالبعث بأنّه سحر واضح أراد به أن يأخذ بألبابهم ليصرفهم عن عبادة أوثانهم..! ويأمر الله نبيه بأن يجيبهم من مصدر القوة والثقة بأنهم سيبعثون ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/١٨] نعم ستبعثون أنتم وآباؤكم الأولون، ستبعثون وأنتم صاغرون ذليلون مستسلمون.

المشهد الثاني: ثم ينتقل النسق القرآني إلى عالم آخر ليصف لنا حوارهم في مشهد آخر، وقد بعثوا، يصفهم في مشهد مزدحم، وهم بالحركة المتتابعة، حيث يلتقي الوصف بالحوار، ويبدأ بوصف المفاجأة التي دهشوا لها... حين قاموا من قبورهم مبهوتين على (زجرة) ربانية تصخّ آذانهم؛ ينظرون في كل الاتجاهات ليعرفوا مصدر هذه (الصيحة) ﴿فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ ، وَقالُوا يا وَيْلَنا هَذا يَوْمُ الدِّينِ﴾ [الصافات: ٣٧/١٩-٢٠]

المشهد الثالث: ثم يصف لنا الحق، جل جلاله، حكمه العادل فيهم إذا ألقى بهم في العذاب جميعاً، ولم يغن عن الأتْباع منهم اتّباعهم للزعماء المتسلطين الذين اعترفوا بإغواء المستضعفين وإضلالهم، فاشتركوا معهم في العذاب:

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ ، إِنّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/٣٣-٣٤] ثم يعود بنا السياق القرآني بعد هذا الحوار إلى حياتهم الدنيا، كما بدأ بها

قبل أن يعرض حالهم في العذاب؛ يعود ليذكر لنا سبب ضلالهم وعذابهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يترفعون عن عبادة ا لله وتوحيده انتصاراً لأصنامهم وشركائهم الذين يعبدونهم مع ا لله؛ أو من دونه... ﴿وَيَقُولُونَ أَإِنّا لَتارِكُو آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونَ﴾ [الصافات: ٣٦/٣٧] ويردّ ا لله هذه الفرية التي كانوا يفترونها على نبيه، يرد عليهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/٣٧] الذين سبقوه بالدعوة إلى توحيد ا لله وقصّ ا لله علينا بعض مواقفهم مع المشركين من أقوامهم.

ثم يبيّن ا لله لهم حكمه العادل إذ يعذبهم بسبب أعمالهم، وبذلك يختم هذا الحوار.

إنّه يخاطبهم تنكيلاً بهم وزيادة في عذابهم وآلامهم النفسية وحسراتهم وندمهم: ﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُو الْعَذابِ الأَلِيمِ ، وَما تُجْزَوْنَ إِلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/٣٨-٣٩].

وهكذا يصف القرآن بهذا الحوار الوصفي بعض أحوال أهل النار، وبعض مايجري بينهم من خصومات، بلغة الماضي، تحقيقاً لوقوعها، وتأكيداً لها؛ لنتابعها كما لو كانت تجري أمامنا. وهي محاورات حقيقية ستجري فيما بينهم وقد أكدها ا لله بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النّارِ﴾ [ص: ٣٨/٦٤].

أما المراحل التربوية، فلاتنطبق على هذا الصنف من الحوار، لأنه حوار وصفي يصف لنا واقعاً... وليس حواراً تعليميّاً أو توجيهياً يراد به إيصال معلومات إلى الآخرين بأسلوب مقنع، وكأنهم هم الذين يدلون بها، وإنما يصف لنا هذا الحوار مايصِفُ لنعتبر بأحوال أهل الجنة والنار، فنطمع في جنة ا لله، ونخشى عذابه، ولنتبع رسله على الحق الذي جاؤوا به من عنده جل جلاله...

٢ـ الشكل الثاني من أشكال الحوار الوصفيّ: الحوار بين أهل الجنة:

سنحلل مثالاً على هذا الحوار، من سورة الصافات أيضاً، حيث وصف ا لله لنا نعيم أهل الجنة ومايستمتعون به من ألوان السرور والحبور ومن ألوان (السمر) الذي يتبادلونه فيما بينهم يتذكّرون أيام الحياة الدنيا، وسبب ماصاروا إليه من لذة المتاع، ويطلعهم ا لله على ماصار إليه قرناؤهم الذين كانوا في الدنيا يحاولون صرفهم عن الإيمان با لله واليوم الآخر، وكيف أنّ مصيرهم إلى الجحيم!...

ويبدأ هذا الحوار من حيث انتهى الحوار السابق حين وُجِّهَ النداء الرباني إلى المجرمين الظالمين ﴿إِنَّكُمْ لَذائِقُو الْعَذابِ الأَلِيمِ ، وَما تُجْزَوْنَ إِلاّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/٣٨-٣٩] فمن هنا يبدأ السياق القرآني يعرّفنا بأبطال حوار جديد، إذ يستثنيهم من ذلك العذاب الأليم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِلاّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/٤٠] فهم يتصفون بصفتين استحقوا بهما النجاة، والاستثناء من العذاب الأليم، والفوز بالنعيم المقيم: العبودية لله ومعناها: الانقياد لجميع أوامره ونواهيه وإلى تشريعه، والطاعة له في كل أمورهم. والصفة الثانية: أنهم أخلصوا أنفسهم لله وحده، دون أن يشركوا، أو يراؤوا أحداً في العبادة أو الطاعة في التشريع، أو طلب الرزق والخلاص من الشدائد، أو نحو ذلك مما لايقدر عليه إلاّ ا لله.

ويصف ا لله النعيم الذي يرفلون فيه والرزق الذي يتمتعون بخيراته قبل أن ينقل إلينا حوارهم: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ، فِي جَنّاتِ النَّعِيمِ ، عَلَى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ ، يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشّارِبِينَ ، لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ ، وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ ، كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾[الصافات: ٣٧/٤١-٤٩].

وبينما هم في هذا النعيم الحسيّ من التلذّذ بالفواكه والشراب والنساء، والنعيم المعنوي من الإكرام، والخدمُ يسقونهم، والسُّرُر المتقابلة يتسامرون عليها يتذاكرون الماضي والحاضر، إذا أحدهم يستعيد طَرَفاً من ماضيه، ويقصّ على إخوانه في الجنة بعض ماوقع له في الدنيا:

- ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ ، يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ، أَإِذا مِتْنا وَكُنّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنّا لَمَدِينُونَ؟﴾ [الصافات: ٣٧/٥١-٥٣].

لقد كان صاحبه وقرينه في الدنيا يُكَذّب باليوم الآخر، ويسأله كيف يصدّق بأنهم يُبعَثون ويحاسبون بعد أن يكونوا تراباً وعظاماً؟

وبينما هو ماض في قصته مع ذلك القرين يعرضها، في سَمَرِه، على إخوانه في الجنة، يخطر له أن يتفقّده؛ ليرى مصيره، وهو يتوقّع أنه قد صار إلى الجحيم، فيتطلع ويدعوهم

إلى التَّطَلُّع معه ليطلوا على أهل الجحيم: ﴿قالَ هَلْ أَنتُمْ مُطَّلِعُونَ ، فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٣٧/٥٤-٥٥] عندئذ يتوجه بالحوار إلى ذلك القرين؛ ليقول له: لقد كدت توقعني في الرَّدى والجحيم والعذاب، بوَسْوَستك، لولا أنّ الله أنعم علي فعصمني من الانصياع إليك: ﴿قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٣٧/٥٦-٥٧] لولا أن أنعم الله علي لكنت من الذين يساقون مثلك إلى سواء الجحيم!...

ثم يتحاور مع زملائه في الجنة يتلذذون بما أنعم الله عليهم من الخلود في الجنة لايذوقون فيها الموت غير الموتة الأولى في مقابل خلود المكذّبين المستكبرين في النار ﴿أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ، إِلاّ مَوْتَتَنا الأُولَى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ؟﴾ [الصافات: ٣٧/٥٨-٥٩].

أحقاً أننا مخلّدون في الجنّة ولاموت غير موتتنا الأولى التي بُعِثنا من بعدها؟ وأننا نجونا من العذاب الذي يتلظّى فيه هؤلاء المكذبون؟

﴿إِنَّ هَذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الصافات: ٣٧/٦٠].

وهكذا يصف القرآن، بهذا الحوار:

١ً- حال المؤمنين في الدنيا من العبودية والإخلاص اللّذين استحقوا بهما الجنة.

٢ً- شعور أهل الجنة بنعيم الخلود في الجنة والخلاص من العذاب والفوز العظيم.

٣ً- ثم جاءت العبرة من هذا الحوار كله: ﴿لِمِثْلِ هَذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/٦١].

٣ً- الشكل الثالث من أشكال الحوار الوصفي: الحوار بين أهل الجنة وأهل النار وأصحاب الأعراف

مثال وتحليل: سنعرض فيما يلي مثالاً على هذا الشكل نحلل فيه مايصفه لنا...

مقدمة هذا الحوار

اخترنا هذا المثال من سورة الأعراف. وقد قدّم لنا السياق القرآني مقدمة بين يدي الحوار: يعرفنا فيها بأحوال أهل الجنة ومايرفلون فيه من نعيم نفسيّ، وأحوال أهل النار وماهم فيه من تعاسة وعذاب، وقد بدأ القرآن بهم في هذا النص الكريم بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوابُ السَّماءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِياطِ﴾ [الأعراف: ٤٠/٧] ولك يا أخي القارئ أو المستمع لهذا النص القرآني أن تتصور مايوحيه هذا المشهد العجيب مشهد الجمل[1] تجاه ثقب الإبرة؛ فحين يتّسع ذلك الثقب الصغير لمرور الجمل الكبير، فانتظر حينئذ – وحينئذ فقط– أن تفتّح أبواب السماء لهؤلاء المكذبين، وأن يدخلوا الجنة ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠/٧] بالحرمان من دخول الجنة. ثم وصف الله حالهم في النار وفي العذاب: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَواشٍ﴾ لهم فرش من النار ينامون عليها، ولهم من النار أغطية تغشاهم من فوقهم ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١/٧]. والظالمون هم المجرمون المكذبون المستكبرون..

ثم وصف الله لنا في المشهد المقابل أهل الجنة وفرحتهم بما هداهم الله إليه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَها أُولَئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢/٧].

وقد خصّ الله هذا النص بوصف ماتميّز به أهل الجنة من السعادة النفسية، والخلاص من الضغائن والأحقاد، والفرح بهداية الله، التي كانت سبباً لدخولهم الجنة؛ وبتصديقهم رُسُلَ الله: ﴿وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهارُ وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهَذا وَما كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانا اللَّهُ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُ رَبِّنا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣/٧].

ثم يبدأ الحوار بهذا النداء الرباني يبشرهم بالنعيم المقيم ويهنئهم بالعمل الصالح الذي هُدوا إليه، فَهُدُوا إلى الجنة برحمة الله...

﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣/٧] ويستمرّ الحوار بعد أن اطمأن أصحاب الجنة في دارهم واستيقن أصحاب النار من مصيرهم، فيسألهم أهل الجنة:

---

(١) الجمل: الكبير من الإبل، والحَبْل الغليظ، وفي المعنيين كليهما التحدّي قائم. انظر اللسان (جمل).

﴿وَنَادَى أَصْحابُ الْجَنَّةِ أَصْحابَ النّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنا ما وَعَدَنا رَبُّنا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُمْ ما وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً؟﴾ [الأعراف: ٧/٤٤]، والمؤمنون أصحاب الجنة واثقوا تَحقُّق وعيد الله لأصحاب النار كثقتهم من تحقيق وعده لهم، ولكن الله ألهمَ يسألوا ليكون سؤالهم تمهيداً لنداء رباني يوجَّه إلى أهل النار، في مقابل النداء ال الذي وُجّه إلى أهل الجنة، وقد جاء هذا النداء المخصوص بأهل النار على لسان نادى بين الجنة والنار:

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظّالِمِينَ ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِي وَيَبْغُونَها عِوَجاً وَهُمْ بِالآخِرَةِ كافِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٤٤-٤٥].

فأخبر هذا المؤذن بأنّ لعنة الله وعذابه قد نزل، وينزل دائماً، بهؤلاء الظ الذين يحيدون ويبعدون الناس، ويصدونهم بشتى الأساليب، عن السبيل المؤدّ مرضاة الله، واتباع نهجه وشرعه، ويريدون في الحياة طريقةً معوَجّة لاتوص مرضاة الله، يريدونها لأنفسهم ولغيرهم.. أما الصفة الثانية لهم فهي كفرهم بال وهي ملازمة للأولى ناتجة عنها، فما يؤمن بالآخرة أحد ويستيقن أنه راجع إلى وهو يصد عن سبيل الله ويحيد عن شرعه ونهجه الذي شرعه لتستقيم به حياة ومجتمعاتهم وعلاقاتهم يحققون به سعادتهم في حياتهم الدنيا وينالون مرضاة وجنته في الدار الآخرة، ولو آمن بالآخرة لخاف مقام ربه ولما سلك هذا المسلك.

ولإتمام الحوار وتحقيق هدفه يرينا الله مشهد أصحاب الأعراف وذلك عندما مشهدُ الجنّة والنار جميعاً وبينهما سور حاجز يفصل بين الجنة والنار، يمنع وصول النار إلى الجنة يسمى (الأعراف) عليه رجال يعرفون أهل الجنة بعلامتهم: ‍ الوجه والنور الذي يسعى بين أيديهم وبأيمانهم. ويعرفون أهل النار بسيماهم: وجوههم كما وصفهم الله بقوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ [طه: ٢٠/ بالقترة والغَبَرة التي ترهَقُها: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْها غَبَرَةٌ ، تَرْهَقُها قَتَرَةٌ﴾ [عبس: ٨٠/ وقد روي في أصحاب الأعراف عن حذيفة أنهم: ((قومٌ تجاوزت بهم حسناتُهم

وقعدَت بهم سيّئاتهم عن الجنّة))[١]. فبقوا على الأعراف بين الجنة والنار حتى يقضي الله فيهم فأدخلهم الجنة برحمته، فهؤلاء أصحاب الأعراف، وهم طرف ثالث في هذا الحوار. كما قال تعالى عن أصحاب الجنّة والنّار: ﴿وَبَيْنَهُما حِجابٌ وَعَلَى الأَعْرافِ رِجالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيماهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦/٧] ثم قال يصف دخول أصحاب الأعراف في الحوار: ﴿وَنادَوْا أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ يُسَلّمون عليهم وقد أُذِنَ لهم بدخول الجنة، وكانوا إلى الآن ﴿لَمْ يَدْخُلُوها وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ٤٦/٧] أي مع أنهم يطمعون[٢] في رحمة الله، فدخلوها وهم يسلّمون على أهلها، والنداء الرباني يقول لهم: ((إنّ حسناتكم تجاوزت بكم النّار أن تدخلوها. وحالت بينكم وبين الجنة خطاياكم فادخلوا الجنة بمغفرتي ورحمتي))[٣].

ثم يصف النص القرآني خوفهم من النار وأملهم في رحمة الله أن ينجّيهم: ﴿وَإِذا صُرِفَتْ أَبْصارُهُمْ تِلْقاءَ أَصْحابِ النّارِ قالُوا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا مَعَ الْقَوْمِ الظّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٧/٧].

ثم يكمل النص القرآني وصفَ حوارهم قبل أن يدخلوا الجنة؛ وقد بَصُروا برجال من كبار المجرمين في جهنّم فعرفوهم، فاتجهوا إليهم بالتأنيب ﴿وَنادَى أَصْحابُ الأَعْرافِ رِجالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيماهُمْ قالُوا ما أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأعراف: ٤٨/٧] فهاأنتم هؤلاء في النار، لاجَمْعُكم نفعَكم ولااستكبارُكم أغنى عنكم.

ثم يذكّرونهم بما كانوا يقولونه عن المؤمنين في الدنيا، وبخَيْبة ظنّهم السَّيِّئ ﴿أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لا يَنالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ؟﴾ [الأعراف: ٤٩/٧] انظروا أين هم الآن؟ وماذا يقال لهم؟.. فيستمعون وينصتون: فإذا بهاتف يقول للمؤمنين: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩/٧] ثم يحكي لنا السياق القرآني الشوط الأخير

---

(١) تفسير ابن كثير ٢٢٦/٢، ط دار المعرفة - بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

(٢) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٢٠٩/٢، مكتبة المعارف بالرياض.

(٣) المرجع السابق أخرج البيهقي في البعث عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: ((يجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنة... ثم يقال لأصحاب الأعراف إن حسناتكم...

من هذا الحوار: إنه نداء آت من جهة أهل النار، مِلْؤُهُ الرجاء والاستعطاف والاستجداء: ﴿وَنادَى أَصْحابُ النّارِ أَصْحابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الْماءِ أَوْ مِمّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ!﴾ [الأعراف: ٧/٥٠]. ولكن الرد الحازم الحاسم يأتي من جهة المؤمنين وهم يرفلون في نعيم الجنة، مُبَيِّناً حكم الله العادل في حق أهل النار وهو يحمل في طياته التذكير الأليم المرير: ﴿قالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُما عَلَى الْكافِرِينَ ، الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا﴾ [الأعراف. ٧/٥٠-٥١].

الفصل الثالث

الحوار القرآني القصصي

الحوار القرآني القصصي

أولاً- تعريفه:

هو حديث يجري على شكل سؤال وجواب بين شخصيات القصة الذين يقومون بأهم أحداثها، أو تتمثل فيهم تلك الأحداث والمفاجآت، أو تجري عليهم المآسي والآلام التي تتميز بها القصة.

وهو الحديث الذي يَدل على مايُتوقع من أحداث القصة قبل وقوعه، أو يحكي بعض ماجرى من تلك الأحداث بعد وقوعه، أو يصف بعض النوازع والرغائب والدوافع والنوايا التي تدور في نفوس أشخاص القصة، وتحرك سلوكهم في القصة، سواء تحققت أم لم تتحقق، فأحدثت منعطفات ومفاجآت جديدة في مجريات القصة.

والحوار القصصي يزيد في جمال القصة، وإقبال القارئ عليها وتأثره بأبطالها، خصوصاً إذا كانوا صادقين في وصف مشاعرهم، وكانت تلك المشاعر متضاربة، كما سنرى في قصة يوسف، مما يزيد في رغبة القارئ في تَتَبُّع القصة ليتابع المعارك التي تدور في جو القصة ليرى أي الطرفين سينتصر وتكون له الغلبة والعاقبة في نهاية الأمر.

وسنقتصر على شكلين من أشكال الحوار القصصي: الحوار في القصة الطويلة، والحوار في القصة القصيرة.

ولما كنا ندرس الحوار على أنه أسلوب تربوي، فمن واجبنا أن نبرز – من خلال الحوار ـ الآثار التربوية والأهداف التربوية لكل من شكلَيْ الحوار، سواء كان ذلك في أثناء عرض الأمثلة وتحليلها على كل من هذين الشكلين، أم في نهاية الكتاب عندما سنعرض هذه الآثار والأهداف مجتمعة، وقد نلجأ حينذاك إلى تحليل أمثلة جديدة... لإبراز تلك الآثار والأهداف، خشية التكرار والملل الناجمين عن إعادة القصص نفسها.

ثانياً– أشكاله:

١ـ الشكل الأول من أشكال الحوار القصصي القرآني:

الحوار في القصة الطويلة: بدأنا بهذا الشكل لأنه الأغنى بالتفاصيل، والأهداف، وبتنوّع شخصيات الحوار حتى تشمل نماذج إنسانية مختلفة، تُعرَض من خلالها مختلفُ المشاعر والعواطف والعلاقات الإنسانية من أَبَوِيّةٍ وأَخَوِيّة وبَنَويّة واقتصادية وخَدَمية وربّانية.. لتصحيح المسارات الخاطئة، وقد اخترنا له مثالاً: قصة يوسف التي تجمع ذلك كله إلى جانب الهدف الأسمى المشترك في جميع القَصَصِ القرآني، وهو الدعوة إلى توحيد الله، واتّباع نهجه. مع استكمال عناصر القصة وإحكام عقدتها وتحقيقها للأهداف الأخلاقية والاعتقادية التي اختارها لها القرآن الكريم؛ لذلك اخترناها مثالاً للحوار في القصة القرآنية الطويلة ويبدأ الحوار في هذه القصة منذ بدئها؛ في مشهدها الأول حيث يقص يوسف على أبيه حلماً رآه..، وهاك مشاهد القصة معروضةً عرضاً حوارياً قرآنياً:

أ– المشهد الأول:

يَعْرضه لنا القرآن مع مقدمة قصيرة، تبيّن أهمية القصة، ومكانتها في القصص القُرآنيّ، ثم يشير المشهدُ إلى عقدتها ولمحةٍ عن بطلها: أما المقدمة فهي قوله تعالى مخاطباً رسوله ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هَذا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣/١٢] وفي هذا إشارة إلى أن هذه القصة هي من أحسن القصص الذي أورده الله في كتابه ليكون عبرة لنا، وآية تدل على أن هذا القرآن وَحْي

من عند ا لله، بما حوى من أخبار بعض الأمم والممالك وأسرارها منذ فجر التاريخ، ومما عفا عليه الزمن وغيّبته الأحقابُ التاريخية، مما لايكشفه إلا الوحي والعلم الإلهي، ثم تأتي الفقرة الثانية من هذا الحوار لإحكام عقدة القصة من خلال رؤيا يوسف يحكيها لأبيه:

﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤/١٢] ويأتي في الفقرة الثالثة جواب أبيه يعقوب يحذّره من إفشاء سر هذا الحلم، ويحكي له تفسيره وماسيؤول إليه مستقبله.

الأب: ﴿قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/٥-٦] وتنطوي هذه الفقرة من الحوار على أمرين هامّين تعتمد عليهما القصة:

الأمر الأول: التعريف ببطل القصة (يوسف) فهذا الفتى الذي يقصّ رؤياه على أبيه، سيتم ا لله نعمته عليه بالنبوة، كما أتمها على جده وجد أبيه. وسيكون له شأن بسبب ماسيعلّمه ا لله من تفسير الأحلام.... إلخ.

الأمر الثاني: عقدة القصة، كما يسمونها، وهي ماتبعثه القصة من رغبة مُلِحَّة في النفس لمتابعة أحداثها ومعرفة نتائجها التي توحي بها مقدماتها.

فالقارئ ومستمع القرآن يتساءل بعد هذه الفقرات من الحوار: تُرى ماذا سيفعل إخوة يوسف الكبار بأخيهم الصغير من كيد وبلاء؟! وكيف يتفق هذا مع ماتنبّأ له أبوه من مستقبل باهرعظيم؟ ومتى سَيُتِمّ ا لله نعمته عليه بالنبوة؟ ويدفعه انتظار أجوبة عن هذه الأسئلة إلى متابعة القصة بشوق ولهفة حتى تتفكك العقد أولاً فأولاً، ولاتتفكك كلها إلا عندما يصل إلى آخر القصة، وتتكشف نتائجها..

ب- حوار المشهد الثاني المؤامرة والمحنة الأولى:

يقدم لنا السياق القرآني مقدمة بين يدي هذا المشهد تهيئ النفس إلى متابعته وربطه بالعناية الإلهية، وبدلائل قدرته وعنايته، ليتوقعها القارئ وهو يتابع: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آياتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ فهذه التركيبة من الإخوة، وماسيجري بينهم من أحداث عجيبة، فيها دلائل على قدرة الله وحكمته وعنايته تتكشّف لكل من يسأل عنها، ويتابع تطورها. ثم يَعْرِض السياق القرآني في الحوار الآتي بعض هذه التطورات والأحداث العجيبة، ويدور الحوار فيما بين الإخوة وهم يتآمرون في مَعزِل عن أبيهم وأخَوَيهم الصغيرين، وجميع أهليهم.

﴿إِذْ قالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينا مِنّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبانا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨/١٢] كيف يؤثر وَالدنا غلاماً وصبياً صغيرين علينا، ونحن مجموعة من الشباب ندفع عنه كل أذًى وننفع أهلنا بكل مايحتاجون؟

ثم يغلي الحقد[١] في نفوسهم حتى يحملهم على التفكير في قتل أخيهم فيقول أحدهم: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩/١٢].

إنهم يريدون أن يخلو لهم قلب أبيهم[٢] بالحب والإيثار، إذا تخلّصوا من يوسف، ويُمَنُّون أنفسهم بالتوبة بعد ذلك..! ثم يقترح أحدهم حلاً يريحهم من يوسف ويُخْلي لَهُم قلب أبيهم من غير أن يقتلوه[٣]، فيقول لهم وهم يتآمرون ويتحاورون: ﴿قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ لا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠/١٢].

ثم يعرض علينا السياق القرآني مشهداً آخر في هذه الحلقة من الحوار، إنه مشهد إخوة يوسف يَحْتالون على أبيهم، ليخرجوا بيوسف إلى رحلة صيد في الصحراء، ليلقوه في الـجُبّ. ودار بينهم وبين أبيهم الحوار التالي:

---

(١) الظلال ١٩٧٣/٤.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

- إخوة يوسف: ﴿قالُوا يا أَبانا ما لَكَ لا تَأْمَنّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنّا لَهُ لَناصِحُونَ ، أَرْسِلْهُ مَعَنا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١١-١٢].

وهكذا حاولوا أن يُظهروا لأبيهم بسؤالهم هذا أنهم حزينون على أخيهم المحجوز عن الخروج والانطلاق واللعب والمرح، وأنهم ناصحون وحافظون لأخيهم من كل أذى.. ويجيبهم أبوهم على السؤال الذي وجهوه إليه:

- يعقوب ﴿قالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٣].

فالأب الكبير مولع بفتاه الصغير، وهو يرى عليه ملامح الذكاء والنجابة، حتى إنه ليحزن إذا فارقه، وهو سميره، ويخشى عليه من هذه الصحراء، ومافيها من ذئاب، ولكن أولاده يستعرضون عضلاتهم ليزيدوا في طمأنينة أبيهم على ابنه إذا خرج معهم، فيجيبونه:

- الإخوة: ﴿قالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنّا إِذاً لَخاسِرُونَ[1]﴾ [يوسف: ١٢/١٤].

وهكذا استسلم الوالد الحريص، وأرسل ابنه معهم ليتحقق قدرُ ا لله.

ثم يصف لنا الوحي الإلهي إجماعهم -وقد دهبوا بأخيهم الصغير- على إلقائه في الجُبّ، ويحكي لنا ماأوحى ا لله إليه ليشدَّ عضده في هذه الساعة العصيبة: ﴿فَلَمّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٥].

وعاد الإخوة ليواجهوا الوالد المخدوع بكذبة ظنوا أنها تخفي جريمتهم فيرضى عنهم أبوهم، ويخلو لهم قلبه، ويعرض القرآن مشهدهم يبكون، لمواجهة أبيهم بهذه الكذبة ﴿وَجاؤُوا أَباهُمْ عِشاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٦]. ثم يعرض حوارهم مع أبيهم ليكتمل المشهد.

---

(١) الظلال ٤/١٩٧٥

- الإخوة ﴿قالُوا يا أَبانا إِنّا ذَهَبْنا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنا يُوسُفَ عِنْدَ مَتاعِنا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنّا صادِقِينَ﴾ [يوسف:١٢/١٧].

ثم أخبر الله عمّا فعلوه من التمويه، وإخفاء فعلتهم النكراء ﴿وَجاؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ لطّخوه به، ولكنه لايوجد فيه أثر لمخالب الذئب، فقد ذهلوا عن تمزيق القميص[١]، ((فأدرك أبوهم يعقوب أن يوسف لم يأكله الذئب، وأنهم دبّروا له مكيدةً ما، وأنهم يلفّقون له قصة لم تقع، فواجههم بذلك))[٢]:

- يعقوب ﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعانُ عَلَى ما تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٨] وهكذا خاطبهم صابراً محتسباً، مستعيناً بالله، شأن الأنبياء في مثل هذا الموقف.

ولكي نتابع ماحدث ليوسف في الجبّ يجب أن نعلم ((أنّ الجبَّ الذي أُلْقِي فيه كان على طريق القوافل التي تبحث عن الماء في مظانّهِ في الآبار))[٣]. وكان الجب وَعِراً عميقاً لايستطيع يوسف أن يتسلّقه أو يجد لنفسه منه مخرجاً... ولكن الله أراد له النجاة... فجاءت قافلة تطلب الماء من هذا البئر، كما قال تعالى: ﴿وَجاءَتْ سَيّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ [يوسف: ١٢/١٩]. أرسلوا الرائد الخبير الذي يرتاد الماء ويعرف مواطنه، ولما أخرج دَلْوه من البئر دهش مما رأى في الدلو، ولم يتمالك أن صاح بأعلى صوته: ﴿ قالَ يا بُشْرَى هَذا غُلامٌ﴾ [يوسف: ١٢/١٩] وذهب به إلى قافلته، وهم قوم من التجّار،.. فلم يفكروا في الغلام وأهله وأصله، وكل ماعناهم من أمره أن يبيعوه ويأخذوا ثمنه. فوصلوا به إلى مصر حيث يقصدون بتجارتهم وأخفوه مع بضاعتهم كما قال تعالى: ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِما يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٢/١٩] ولم يظهروه حتى وجدوا له راغباً تلوح عليه سيما الشراء فعرضوه عليه وباعوه له بثمن بخس: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكانُوا فِيهِ مِنَ الزّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٢٠]

(١) تفسير الجلالين بهامش المصحف ٣١١

(٢) الظلال ٤/١٩٧٦.

(٣) المرجع السابق.

وإنما زهدوا فيه وسارعوا إلى بيعه بالثمن البخس لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه لبيعه، -وهي كما يبدو- تهمة يعاقب عليها قانون مصر في ذلك الوقت.

ولكنّ الذي اشتراه كان محروماً من الأولاد فوجد في وسامته وذكائه وجماله ماجعله يتخذه كالولد، وكان يمثل ثاني أكبر سلطة في مصر، بعد الملك، فأوصى زوجته به كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ وهكذا نجا يوسف من الهلاك في بئر مهجورة في قلب الصحراء إلى منزل عزيز مصر، حيث الجو المترف والمكانة والجاه، كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١/١٢]. وإنما شبّ يوسف واشتدّ عوده في هذه الدار، كما قدّر الله له، ليتمرّس في لغة القوم الذين سيُبعَث فيهم رسولاً من عند الله، وليعرف واقعهم عن كثب وليعيش هذا الواقع وليتعامل معهم، وهو معتصم بما آتاه الله من العلم الإلهي والحكمة كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف:٢٢/١٢].

وهكذا تعرفنا في المشهد الثاني من هذا الحوار القصصي على محنة يوسف مع إخوته الذين ألقوه في الجُبّ. وكيف نجّاه الله منها. ولكنه مالبث أن نزلت به محنة أخرى في منزل العزيز.

جـ- حوار المشهد الثالث

المحنة الثانية: في منزل عزيز مصر:

رأينا في المشهد الثاني من هذا الحوار القصصي عدة محاورات، لم يكن بطل القصة طرفاً فيها، ولكنه كان يَتلقى المحن التي دبّرها له المتحاورون في حوارهم بعضهم مع بعض، ثم في حوارهم مع أبيهم. وفي هذا المشهد يتعرض بطل القصة لمحن هو بطلها والطرف المقصود فيها، لذلك يحلو الحوار ويزداد أهميةً ومكانةً في مسيرة القصة وتكوينها؛ لأن هذه المحن تكوّن مرحلة في حل عقدة القصّة أو سبباً لتأخير حلّها

ولظهور نتائجها، وفي التشويق إلى معرفة مصير بطل القصة، أو في إحكام العقدة، وفي الاعتبار والتأسّي بصموده وصبره، وهذا من الأهداف الأخلاقية لإيراد القصة كما أوردها القرآن، وإنما قدّر الله عليه هذه المحن تَتْرى، وتأتي الواحدة تِلْو الأخرى، في هذا الجو الاجتماعي الْمُهَلْهَلِ الذي انهارت فيه القيم والأخلاق، حتى يصْلُبَ عودُه، ويستعدَّ لتحمّل أعباء الرسالة والدعوة إلى الله طاهراً نظيفاً قويّاً.

وأوّل هذه المحن: أن تراوده امرأة عزيز مصر عن نفسه، وهي سيدة المنزل الذي آواه، وزوجة الإنسان الذي اشتراه، وجعله بمنزلة ابنه ورعاه. راودته عن نفسه وأخذت تتعرض له بكل مايثير الغرائز والشهوات كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَراوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِها عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوابَ وَقالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ١٢/٢٣] أي هلُمَّ إليَّ فقد تَهيَّأتُ لك... وإنها لمحنة صعبة يمر بها شابٌّ في ريعان الشباب، تحاصره امرأة تملك كل المغريات، فإما أن يلبّي داعي الغريزة والشهوة الجارفة، وإما أن يلبي نداء الضمير الذي يحذره من السقوط، ويذكّره بغضب الله إن هو اختار معصيته وارتكاب الفاحشة، وخان سيده الذي أحسن إليه، ولكنه حزم أمره مستعيناً بالله:

﴿ قالَ مَعاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٢٣] معاذ الله أن أخون سيّدي الذي أحسن مثواي فهذا ظلم. والظلم مرتَعُه وخيم. وفي هذا الجو المحموم، المشحون بالعلاقات الشيطانية الزائفة، لم يجد يوسف بُدّاً من الهرب والنجاة بنفسه طاهرةً نقيَّةً من حمأة الرذيلة والعار والصَّغار ومن وخز الضمير الذي سيلازمه طوال حياته لو أطاع شهوته، ولبى رغبة سيدته. فاستقبل باب الدار، وهمّ بالفرار، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِها لَوْلا أَنْ رَأَى بُرْهانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٢٤].

وهكذا أسعفته العناية الإلهية في هذا الموقف، فرأى برهان ربه: وأنه هو الذي نجّاه من الجُبّ، ومكّنَ له في الأرض، وعلّمه من تأويل الأحاديث، وأعدّه للنبوة التي بشّره بها أبوه، وتذكّر فضل الله عليه، وأدرك مايجب أن يقابله به من اجتناب معاصيه، ومايجب أن يقابل به سيده من الوفاء وحفظ العرض فأزمع الفرار..، فصرف الله عنه

بذلك السوء والفحشاء؛ لأنه لم يغفل عن عبادة الله ومراقبته طَوال هذه المدة التي قضاها في هذا الجو الموبوء بالاستهتار والترف واستباحة المعاصي. وهذا ماوصفه الله به في قوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا الْمُخْلَصِينَ﴾، فمن عرف الله في الرخاء، وأخلص له العبوديَّة والولاء، لم يتخلَّ الله عنه في مواقف الشدة والبلاء.

وحصلت مفاجأة مذهلة، زادت في بلاء يوسف ومحنته. فبينما كان يسعى هارباً متجهاً نحو باب الدار، لحقت به سيدته، وتشبثت بثيابه فشقت قميصه من الخلف، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَبَقا الْبابَ﴾ تسابقاً يقصدانه: وهو يريد أن يفر طاهراً عفيفاً، وهي تريد أن تمنعه وتوقفه ليعود إليها ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ﴾ وَجَداه يدخل داره، فأسرعت إلى إلصاق التهمة بيوسف:

ـ امرأة العزيز: ﴿ قالَتْ ما جَزاءُ مَنْ أَرادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/ ٢٥] وأجاب يوسف ليدفع عن نفسه التهمة الباطلة:

ـ يوسف ﴿قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ١٢/٢٦].

وحضر عدد من أقرباء الزوجين، ورأوا قميصه ممزّقاً، وهو الدليل الذي أرادت أن تتذرَّع به فزعمت أنها مزقته دفاعاً عن نفسها، وكان بين أقربائها رجل شهم عاقل شهد شهادةَ حقّ وإنصاف؛ كما قال تعالى:

ـ الشاهد ﴿ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكاذِبِينَ وَإِنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصّادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٢٦ـ٢٧] وأقبل العزيز يتفحّص قميص يوسف ﴿فَلَمّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ التفت إلى زوجته:

ـ العزيز يخاطب زوجته ﴿ قالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[يوسف: ١٢/٢٨]، جدير بأن يجعل الحق باطلاً، والبريء مجرماً.

وهكذا قيَّض الله ليوسف، من أهل المرأة التي اتّهمته، بعد أن حاولت إغراءه، مَن يدافع عنه بالحق ليظهر براءته.

وأراد العزيز أن يُعَتّم على الموضوع، تجنّباً للفضيحة، وحسماً للأقاويل فقال العزيز: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩/١٢].

د- حوار المشهد الرابع:

لم تنته المحنة ولم تقف عند هذا الحدّ، فقد انتشرت القصة، وشاعت بين نساء وزراء الملك وحاشيته كما أشار القرآن إلى ذلك:

﴿وَقالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُراوِدُ فَتاها عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَها حُبّاً إِنّا لَنَراها فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠/١٢].

ولكنّ امرأة العزيز أرادت أن تقابل ذلك بالمكر والخديعة وأن تَنْصِبَ فَخّاً لأولئك النِّسوة، فدعتهن إلى طعام عندها، كما قال تعالى:

﴿فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾ أعدّت لهن مجلساً، وقدمت لهن طعاماً، ﴿وَآتَتْ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً﴾ لتقطيع اللحم، وبينما هن منهمكات في تناول الطعام وتقطيعه أوعزت إليه بالخروج إلى مَجْلِسِهِنَّ.

ـ امرأة العزيز ليوسف ﴿وَقالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ رأين وأحسَسْنَ أنه أكبر من أن يكون إنساناً عادياً لِمَا رَأَيْنَ من عِفّتِهِ، وغَضِّ بصره، ورجولته، وبهائه، وجماله، وحيائه، وأذهَلَهُنَّ ذلك حتى لايُفَرِّقْنَ بين أيديهن وبين قطع اللحم التي أردن تقطيعها وأكْلَها ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ﴾:

ـ النسوة الضيوف ﴿حاشَ لِلَّهِ ما هَذا بَشَراً إِنْ هَذا إِلاّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١/١٢] حاش لله أن يميل مثل هذا إلى النساء والشّهوات، فملامح السموّ والطهارة ظاهرة في مُحَيّاه، تدلّ على أنه فوق مستوى البشر.

وفرحت امرأة العزيز، ورأت في جوابهن مُوافَقَةً لها على رأيها فيه وإعجابها به، كما أنها أصبحت تملك دليلاً يدينهن ويدين فتاها يوسف، فربما احتفظت بالسكاكين

مُلَطَّخةً بالدماء لتُلفّق لهن تهمة[1] مراودة يوسف عن نفسه، كما اتّهمْنَها، ولكنها أسَرَّت ذلك في نفسها، واكتفت بهذا التعليق:

ـ امرأة العزيز ﴿قالَتْ فَذلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ ما آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ الصّاغِرِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٣٢].

ويبدو من تعليقها هذا على تصرفهنّ وكلامهنّ، إصرارها على مراودة يوسف عن نفسه. حتى بلغت بها الوقاحة والانحطاط الخلقي أن تعلن ذلك أمامهنّ جميعاً: وتعلن تهديدها له بالسجن والتشهير به، والإساءة إلى سمعته حتى يصبح أمام الملأ من الصاغرين، إن لم يوافقها على هواها، ويمارس معها الفحشاء...!

وأمام هذه المحنة أصبح يوسف بين خيارين لاثالث لهما: إما السجن والصّغار، وإما ممارسة السوء والفحشاء، وغضب الله، ووخز الضمير، وخيانة سيّده. فاختار السجن متحدّياً رغبة سيدته، وبهذا اختار البقاء مع الله الذي نجاه من الموت فهو لايُضيّعه ولايخزيه أبداً، وبهذا دعا ربه:

ـ يوسف يناجي ربه: ﴿قالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجاهِلِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٣٣].

وهكذا دعا ربه أن يصرف عنه كيد هؤلاء النسوة الفاجرات، وتضرع إليه ليؤيده ويثبّته حتى لايميل قلبه إليهن وينحدر إلى دَرَكات الجاهلين... ﴿فَاسْتَجابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ١٢/٣٤] ولما يئست منه سيدته أمام إبائه وتمسّكه بطهارته وعفته أرادت أن تنتقم لكبريائها، فحرّضت سيده على سجنه، وأراد عزيز مصر أن يعتّم على ذلك كله، ويُنْسِيَ الناس مادار على الألسنة من الفضائح في حق زوجته وفي حرمة منزله ومكانته وعِرضه، فأمر بسجنه، **على الرغم مما رأى من آيات صدقه** ودلائل براءته وإخلاصه، كما قال تعالى:

(١) يدل على ذلك رفض يوسف التعاون مع الملك، حين طلبه الملك من السجن، إلاّ بعد أن يحقق مع هؤلاء ﴿النِّسْوَةِ اللاّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ وقول الملك لهنّ: ﴿ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ١٢/٥١] وسنفصل ذلك في حينه (إن شاء الله) في حوار المشهد السادس.

﴿ثُمَّ بَدا لَهُمْ مِنْ بَعْدِ ما رَأَوُا الآياتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥/١٢].

وهكذا سجنه ليعتقد الناس أنه عاقبه على تحرُّشه بزوجة العزيز. وصويحباتها، كما يفعل الزعماء المجرمون يسترون جرائمهم أو يلصقونها بضحاياهم..!

وانتهت محنة يوسف الثانية ليستقبل محنة ثالثة لاينجيه منها إلاّ الدعوة إلى ا لله:

هـ- حوار المشهد الخامس بين يوسف والسجناء:

المحنة الثالثة: يوسف في السجن: ويدخل يوسف السجن الذي فضله على معصية ربه، وهنا يدخل في حوار مع بعض السجناء يدعوهم إلى توحيد ا لله، تحقيقاً لرسالة ا لله التي أُرسل بها فكان هذا بداية عهد جديد من حياته...

ويعرّفنا القرآن بأبطال هذا الحوار في هذا المشهد الجديد، قبل بدء الحوار ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ﴾، إنهما فتيان من السجناء، وأيّاً ماكانا فإن من أخلاق النبوّة أن يقدّم لهما يوسف مايستطيع من الخدمات ليستميل قلبهما إليه، علّهما يستجيبان لرسالته ودعوته إلى توحيد ا لله، ويظهر أنهما عرفا من يوسف هذه الإنسانية وتقديم الخدمات مما جرّأهما على طلبها في أول حوار يعرضه القرآن بين يوسف وبعض السجناء في سجنه:

ـ أحد السجناء: ﴿ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً﴾ إني أراني في المنام وأنا أعصر الخمر.

ـ السجين الآخر: ﴿ وَقالَ الآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾.

ـ السجينان معاً: ﴿نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦/١٢].

أخبرنا بتفسيره كما عودتنا على إحسانك.

ـ يوسف: ﴿قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما﴾ [يوسف: ٣٧/١٢] أي لاتريان في منامكما مايدل على رزق سيأتيكما إلا عَرّفتكما بتفسيره وماسيؤول إليه في واقع حياتكما من قبل أن يتحقق.

- يوسف يتم كلامه ﴿ ذَلِكُما مِمّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾، وهكذا عرفهما بفضل ا لله عليه ليدعوهما إلى الإيمان به وتوحيده، وترك ماهما عليه من الوثنيّة والشرك، ثم أردف قائلاً:

- يوسف يعرفهما بنفسه ﴿ذَلِكُما مِمّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنا وَعَلَى النّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٣٧-٣٨].

وهكذا عرفهم بآبائه الأنبياء وبدين التوحيد والإسلام الذي اتّبعهم عليه وبفضل ا لله الذي هداهم إليه، وبأن أكثر الناس لايشكرون نعم ا لله عليهم، بل يكفرون بها، إذ يعبدون مع ا لله آلهة أخرى، فنبههم برفق إلى خطأ الوثنيين المشركين وكفرهم بنعم ا لله، ليدعوهم إلى توحيد ا لله صراحة.

- يوسف يتابع دعوة السجناء إلى التوحيد:

﴿يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾ [يوسف: ١٢/٣٩-٤٠] أي لاحجة عليها ولابرهان[1] ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاّ تَعْبُدُوا إِلاّ إِيّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٤٠].

ثم فسَّر لِكُلٍّ منهما رؤياه، بعد أن بيَّن لهما الدين الحق الصحيح، وها يستمعان إليه بشوق ولهفة:

- يوسف يفسر رؤيا صاحبيه في السجن:

- ﴿يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ ينجو من السجن ليعود ساقياً عند الملك. ﴿ وَأَمّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾: يحكم عليه بالموت صلباً وترمى جثته للجوارح ﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ﴾ [يوسف: ١٢/٤١].

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٤٩٦.

- يوسف يوصي أحد صاحبيه أن يذكره عند الملك:

﴿وَقالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ ناجٍ مِنْهُما اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْساهُ الشَّيْطانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢/١٢] لأن الذي نجا منهما نسي أن يذكّر الملك بيوسف[١]، وربّما نسي يوسف أيضاً أن يُخلِصَ بالتضرّع إلى ا لله لينجيه[٢] من السجن وعقد آماله على الملك، ولكن السجن كان محكاً له، وبوتقة يظهر فيها معدنه في هذا التقشّف والشقاء، بعد أن عاش في النعيم والرخاء، فاختار ا لله له السجن ليجاهد، وليصبر، وليبقى طاهر القلب نقياً من الدنس والأرجاس.. وليعدّه بذلك للدعوة إلى ا لله في بلاط الملك.

و- حوار المشهد السادس

انفراج المحنة حوار في قصر ملك مصر:

وحان موعد تحقّق رؤيا يوسف ليكون له شأن كبير، فرأى ملكُ مصر رؤيا، شعر بأهميتها وغرابتها، فاستحوذت على مشاعره واهتمامه، وسأل عن تأويلها كل من في قصره من العرّافين فلم يعرفوا، وقص علينا القرآن ذلك على لسان الملك:

- ﴿وَقالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ يا أَيُّها الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف: ٤٣/١٢].

- العرّافون ﴿قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ وَما نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلامِ بِعالِمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤/١٢] وتذكّر ساقي الملك الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند مليكه كما قال تعالى:

- ﴿وَقالَ الَّذِي نَجا مِنْهُما وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ تذكّر بعد مدة طويلة، فقال لأعوان الملك:

- الساقي ﴿أَنا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥/١٢] فأرسلوه إلى السجن حيث قال ليوسف:

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق وفي تفسير الآية قولان للمفسرين جمعنا بينهما هنا. انظر تفسير ابن كثير ٤٩٦/٢-٤٩٧.

ـ الساقي ﴿يُوسُفُ أَيُّها الصِّدِّيقُ أَفْتِنا فِي سَبْعِ بَقَراتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يابِساتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦/١٢] نَبِّئْنا بتأويل هذا الحلم الذي رآه سيّدي الملك.

ـ يوسف ﴿قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاّ قَلِيلاً مِمّا تَأْكُلُونَ ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاّ قَلِيلاً مِمّا تُحْصِنُونَ، ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٤٧-٤٩].

وكذلك فسر يوسف الصِّدّيق رؤيا الملك بأنه سيأتي على البلاد سبعُ سنوات حافلة بالأمطار والخيرات حيث يفيض المحصول، وأن عليهم أن يحتفظوا به لسبع سنوات عجافٍ تَلِي السنوات السبع الحافلة بالخيرات، فيأكل الناس مما احتفظوا به، ويحتفظون بقليل منه ليزرعوا في سنة الخير والأمطار، حيث تعود الدورة الاقتصادية إلى عهدها ومسيرتها الأولى...

وأرسل يوسف إلى الملك رسالة شفهية بهذا التفسير مصحوباً بخطته الاقتصادية (الخمس عشريّة) التي يجب تنفيذها بحذافيرها، لتفادي المجاعة واجتياز الأزمة بسلام، وإنقاذ البلاد والعباد من أخطار المجاعة المرتقبة...

وأُعجبَ الملك بحكمة يوسف وخطّته الاقتصادية، وأُعجب ببصره الثاقب وبعد نظره، وأدرك أنه هو القادر على تنفيذ هذه الخطة، فطلبه إلى قصر المُلْكِ:

ـ الملك لحاشيته: ﴿وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ﴾، وظن أنه سجين عادي سيلبي طلب الملك ويسعى إليه مرحّباً بالخلاص من السجن، ولكن هيهات!... فلننظر إلى جواب يوسف الصدّيق.

ـ يوسف ﴿ فَلَمّا جاءَهُ الرَّسُولُ قالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ ما بالُ النِّسْوَةِ اللاّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/٥٠] فأنا لا أريد أن أخرج من السجن، والإشاعات الكاذبةُ والتُّهَمُ الباطلة تطوّق عنقي، وتحطّ من كرامتي وسُمعتي،

بسبب مكرهن وكيدهنّ، حَتى أقْدَمَ عزيز مصر على سَجْني من غير ذنب ولادليل، إذعاناً لهُنّ، اِرْجعْ إلى مليكك فاسأله عن ذلك كله، فإذا أنصفني حضرتُ إليه.

محاكمة امرأة العزيز: اهتم الملك بالأمر، وجمع النسوة وامرأة العزيز ليحاكمهنّ بنفسه، ودار بينَه وبينَهُن الحوار التالي:

- الملك ﴿قالَ ما خَطْبُكُنَّ إِذْ راوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ؟﴾ [يوسف: ٥١/١٢].

- النسوة ﴿ قُلْنَ حاشَ لِلَّهِ ما عَلِمْنا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١/١٢] حاش لله أن يكون قد تحرَّش بنا، أو أراد بنا سوءاً، فما سبق أن عَلِمْنا عليه شيئاً من ذلك.

ولمّا استغرب الملك وظهرت علامات الدهشة والاستنكار في وجهه ونظراته سارعت امرأة العزيز إلى الاعتراف بالحق والتنصّل من الإشاعات الكاذبة التي رَوّجتها في حقّ يوسف وصُوَيْحباتِها، انتقاماً منهنّ وثأراً لكبريائها وحرصاً على سمعتها ﴿قالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنا راوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ وليس هو ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّادِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١/١٢]، حين قال ﴿قالَ هِيَ راوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦/١٢] ثم عَلّلت اعترافها هذا وتغييرها لموقفها بقولها:

- امرأة العزيز ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢/١٢]، ليعلم زوجي أني لم أخنه في غيابه، فلم يقع المحذور الأكبر، و لم يتجاوز الأمر حد المراوده[1]. ثم تابعت اعترافها بقولها:

- امرأة العزيز ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من شيء فعلته ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاّ ما رَحِمَ رَبِّي﴾ وعصمه، كيوسف[2] ﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣/١٢].

يوسف يتقلّد منصب رئاسة الوزراء:

لما ظهرت براءة يوسف، بهذا الاعتراف الذي أدْلَتْ به امرأة العزيز، أرسل الملك إلى السجن من يزفُّ هذه البشرى إليه، ويأتيه به معززاً مكرّماً كما قال تعالى:

---

(١) تفسير ابن كثير ٤٩٩/٢.

(٢) المرجع السابق.

- الملك ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ فجاء يوسف وجرى بينه وبين الملك الحوار التالي كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ﴾:

- الملك ليوسف: ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤/١٢]، لقد أصبحت عندنا ذا مكانة[1] وأمانة.

- يوسف للملك ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥/١٢] اجعلني مؤتمناً على غلاّت الأرض فستجدني حافظاً لها بصيراً بأمورها، وقد طلب ذلك ليُشْرِف على تنفيذ الخطة الاقتصادية التي رسمها لهم حين أرسل إليهم من السجن رسالته الشفهية بتفسير رؤيا الملك، فأجيب إلى طلبه. وهكذا انتهت المحنة، وخرج يوسف من السجن إلى بلاط الملك، ليكون هو عزيز مصر بدلاً من سيده الذي سجنه بضع سنين، وأصبح بمثابة وزير للاقتصاد والزراعة، والتجارة، بما مَكَّن ا لله له كما قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ ليُبَلِّغ رسالة ربه، التي بدأها في السجن صابراً محتسباً ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ١٢/٥٦-٥٧].

ز- المشهد السابع

أ- حوار يوسف عزيز مصر مع إخوته:

بعد انتهاء المحنة بدأ يوسف حياة الرخاء فوجد فيها مجالاً خصباً لنشر الدعوة إلى ا لله...، واستمرت قصة يوسف مع إخوته الذين صاروا يترَدَّدُون على مصر ليشتروا القمح والطعام، في سنوات الخير، ثم في السنوات العجاف التي تلتها. وأخذ حوارهم مع يوسف شكلاً آخر، فهم لايعرفونه إلاّ عزيز مصر، ولم يعرفوا في بادئ الأمر أنّه أخوهم كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ وأراد يوسف أن تبقى صلتهم به فترة من الزمن على هذا، فيتعامل معهم، كما يتعامل

(١) المرجع السابق.

مع الغرباء الآخرين الذين يفدون إلى بَلَدِه مصر، وهو الـذي أصبـح فيهـا يمثـل الحفيـظ على أمنها وخزائنها، كما عاهد الملك أول ماتعرّف عليه حين قال لـه: ﴿قـالَ اجْعَلْنِـي عَلَى خَزائِنِ الأَرْضِ إِنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ١٢/٥٥]. لذلك كان الحوار الذي جـرى بينه وبينهم أول مرة حوار المسؤول الـذي يتعـرّف علـى غربـاء يدخلـون بـلاده للمـرة الأولى، فبدأ الحوار معهم وتابعه على الشكل التالي[1]:

ـ عزيز مصر (ماأقدَمَكُم بلادي؟)

ـ إخوة يوسف (أيها العزيز: إنا قَدِمْنا للميرة) جئنا لنمتار لأهلنا حَبّاً وطعاماً.

ـ عزيز مصر (فلعلكم عيون جئتم تَجَسَّسُون؟).

ـ إخوة يوسف (معاذ الله!).

ـ عزيز مصر: (فَمِن أين أنتم؟).

ـ إخوة يوسف: (من بلاد كنعان، وأبونا يعقوب نبيُّ الله)

ـ العزيز: (وله أولاد غيركم؟)

ـ إخوة يوسف: (نعم كنا اثني عشر، فذهب أصغرنا هلـك في البَرِّيـة وبقـي شـقيقه فاحتبسه أبوه ليتسلّى به).

ثم استدرجهم يوسف ليأتوه بأخيه الأصغر ليتسلى به في غربته، فجرى بينهم وبينـه الحوار التالي: حكاه الله لنا بقوله: ﴿وَلَمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ﴾ بالطعـام والحبـوب الـتي اشتروها، وأمر بإعدادها وتحميلها خاطبهم وهم يخرجون من عنده قائلاً:

ـ العزيز ﴿ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِـنْ أَبِيكُـمْ أَلا تَـرَوْنَ أَنّـي أُوفِـي الْكَيْـلَ وَأَنـا خَـيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ [يوسف: ١٢/٥٩-٦٠].

وكانوا يعلمون أن أباهم مُولعٌ به، ولايفارقه بعد فقده ليوسف. لذلك أجابوه بقولهم:

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/١٠٥، دار المعرفة ـ بيروت

- إخوة يوسف ﴿قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنّا لَفاعِلُونَ﴾ [يوسف: ٦١/١٢].

وأراد يوسف، وقد أرّقه الشوق إلى أخيه وأهله، أن يبذل كل مافي وسعه للعمل على رجوع إخوته إليه ليزداد بهم أُنساً، وليطفئ بعض لهيب شوقه إلى أبيه، وأمّه وأخيه، فقام بالمحاولة التالية قبل رحيل إخوته من عنده:

- العزيز ﴿وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ضعوا بضاعتهم التي جاؤوا بها، ليبيعوها ويمتاروا عوضاً عنها، ضعوها في أمتعتهم من حيث لايشعرون؛ وقد فعل ذلك (إما لأنه خشي ألاّ يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون لمبادلتها بالميرة، وإما لأنه شعر بواجبه في إطعام أهله وإخوته وتموينهم فلايجوز له شرعاً أن يأخذ ثمناً لميرتهم، وإما لأنه توقع منهم أن يتورّعوا عن أخذ هذه البضاعة ولايحق لهم ذلك، وهو يعلم أن هذا هو رأيهم)[1] فأعادها حرصاً على رجوعهم.

ب- حوار إخوة يوسف مع أبيهم:

﴿فَلَمّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ﴾ جرى بينهم وبينه الحوار التالي:

- إخوة يوسف ﴿ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣/١٢]، وتذكّر أبوهم ماجرى ليوسف مع أنهم قالوا، حين ذهبوا به: (وإنا له لحافظون) وعادوا من دونه، لذلك بادرهم بقوله:

- يعقوب لأبنائه ﴿قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤/١٢] أي هَلْ أنتم صانعون به إلاّ كما صنعتم بأخيه من قبل[2]؟ ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤/١٢] ﴿وَلَمّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ بعد أن جعلها لهم يوسف في رحالهم.

- إخوة يوسف لأبيهم ﴿ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هَذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥/١٢].

---

(١) هذه ثلاثة أقوال للمفسرين نقلها ابن كثير ٢/ ٥٠١.

(٢) المرجع السابق.

أي ماذا نريد أكثر من ذلك من اليُسر والسهولة؟ فهذه بضاعتنا، وقد رُدّت إلينا، جاهزة للمبادلة بها. وبإمكاننا أن نمير أهلنا. إذا أرسلْتَ أخانا معنا، ويزيدنا العزيز فوق حقنا حِمْل بعير كما عامَلَنا في المرة السابقة، وهذا يسير (أن ترسل أخانا معنا) إذا قُورِنَ بهذه الفوائد، فلماذا أنت تستصعب الأمر وتستكبره؟

ـ يعقوب لأبنائه ﴿قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦/١٢] وهكذا نجح الإخوة في إقناع أبيهم بإرسال أخيهم معهم بعد أن أعطوه المواثيق التي طلبها كما قال تعالى:

ـ ﴿فَلَمّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللَّهُ عَلَى ما نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦/١٢].

ونظر يعقوب إلى أبنائه وهم أحد عشر: كل واحد منهم كالنخلة، ذوو جمال ومنظر وبهاء فخشي عليهم أن يصابوا بالعين، إذا رآهم الناس مجتمعين فأمرهم بالتفرّق عند الدخول إلى المدينة التي يقصدون:

ـ يعقوب لأبنائه ﴿وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾. ولكن هذا لايمنع قدر الله فله الحكم وعليه التوكّل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧/١٢].

جـ المرحلة الثانية حوار الإخوة مع يوسف:

وتستمر القصة والحوار فيعود الإخوة إلى عزيز مصر كما قال تعالى:

﴿وَلَمّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخاهُ﴾ الشقيق، وهو أخوهم من أبيهم الذي أمرهم بإحضاره معهم منذ السفرة الماضية. فجرى بينه وبينه حوار، وقد اختلى به فعرّفه على نفسه، وأطلعه على ماجرى له، وقال له:

ـ يوسف لأخيه: ﴿ قالَ إِنِّي أَنا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩/١٢] أي لاتأسف على ماصنعوا بي وماسبّبوا لأبيهم من الحزن والأسى، وأوصاه بكتمان ذلك، وتواطأ معه: أنه سيحتال عليهم ليبقيه عنده معزّزاً مكرّماً، وذلك بتنفيذ الخطة التالية، وقد وصفها القرآن الكريم حين وقوعها وتحقّقها. وحكى لنا الحوار الذي

جرى حينئذ: ﴿فَلَمّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ دسّ صاع الملك في متاع أخيه ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مُنادٍ ﴿ أَيَّتُها الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠/١٢].

ـ فأجابه إخوة يوسف: ﴿قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ماذا تَفْقِدُونَ؟﴾ [يوسف: ٧١/١٢] حتى جئتم تتهموننا بالسرقة، وتعلنون ذلك على رؤوس الأشهاد؟!

ـ المنادي ومن معه ﴿قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف: ٧٢/١٢] نفتقد مكيالاً من فضة يكيل به الملك للخاصة. وقد جعل مكافأة من يجدهُ حِملَ بعير من القمح أو البقول ﴿ وَأَنا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢/١٢] أنا الضامن من الكافل لذلك.

ـ إخوة يوسف للمنادي وصحبه: ﴿قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَما كُنّا سارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣/١٢] لقد علمتم منذ عرفتمونا أنّا لسنا سارقين.

ـ المنادي وحُرّاسه: ﴿قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ؟﴾ [يوسف: ٧٤/١٢] إن كذبتم وثبتت جريمة السرقة؟ فما جزاء السارق؟

ـ إخوة يوسف: ﴿قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥/١٢] هذا جزاء السارقين في شريعتنا: أن يغرَّم السارق نفسه. وهذا ماأراد يوسف أن يصل إليه. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦/١٢] فتش أمتعتهم قبل متاع أخيه تورية وإبعاداً للشكوك ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦/١٢] استخرج السقاية من متاع أخيه. فأخذه بموجب اعترافهم والتزامهم بشريعتهم وأحكامها. ثم جاء التعليق مبيناً تدبير أحكم الحاكمين ليوسف ﴿كَذَلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ﴾ أَلْهَمْنَا يُوسف هذه المكيدة ليأخذ أخاه بموجب شريعة الله التي أنزلها على نبيه يعقوب، أو وَرثها يعقوب عن أبويه إبراهيم وإسحاق، وهي مكيدة محمودة تُحقّق المصلحة المطلوبة دون الإضرار بأحد... ﴿ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ لأن شريعة ملك مصر لاتحكم باسترقاق السارق أو سجنه ﴿ إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦/١٢].

- إخوة يوسف ﴿قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وهي تهمة كان قد اتُّهِمَ بها يوسف في صغره[١]. وإنما قالوا ذلك لينزهوا أنفسهم ويلصقوا عار السرقة بأخويهم (يوسف وبنيامين) ﴿فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُم﴾.

- يوسف لإخوته ﴿قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧/١٢] فأسرّ يوسف هذه التهمة التي ألصقوها به، في نفسه، ولم يبدها لهم حتى يحين الوقت المناسب ليكشف عن نفسه، كما سنرى، واكتفى بقوله مُعَرِّضاً بهم: ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ أي ربما كانت مكانتكم عند الله شرّاً مما نسبتموه إلى أخيكم من قبل، ويقصد بذلك مافعلوه من إلقاء يوسف في الجب[٢] والكذب على أبيهم وغير ذلك. وهذا من (الحوار التعريضي) حيث عرّض بهم ولم يُصرّح، وسنشرح هذا اللون من ألوان الحوار إن شاء الله.

ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق سراح أخيهم ليرجعوا به إلى أبيهم وقد أخذ عليهم موثقاً من الله.

- إخوة يوسف ﴿قالُوا يا أَيُّها الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨/١٢].

- العزيز ﴿قالَ مَعاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنّا إِذاً لَظالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٩/١٢]

ولما يئسوا من تخليص أخيهم من هذه الورطة انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم لِيَدَّبَّروا أمرهم: كيف يقابلونَ أباهم، كما قال تعالى:

﴿فَلَمّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيّاً قالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يوسف: ٨٠/١٢].

---

(١) فيها روايتان: إما أنه سرق صنماً لجده والِدِ أمه فكسره، وإما أنّ عمته ألبسته مِنْطقة كانت لأبيها إسحاق واتهمته بسرقتها لتأخذه من أبيه ويبقى عندها انظر تفسير ابن كثير ٥٠٣/٢-٥٠٤.

(٢) فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير للإمام محمد علي الشوكاني ٤٥/٣، ط مكتبة المعارف ـ الرياض.

ـ الأخ الأكبر ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠/١٢] أو لم تعلموا أيضاً تفريطكم من قبل في يوسف؟ فبماذا تواجهون أباكم إذا رجعتم إليه؟ أمّا أنا فلن أرجع معكم ولن أبرح أرض مصر: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠/١٢]، ثم أوصاهم أن يقصّوا الأمر على أبيهم كما جرى وكما شاهدوا. وهكذا تابع كلامه وهو يتحاور مع إخوته:

ـ يتابع الأخ الأكبر قائلاً: ﴿ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاّ بِما عَلِمْنا وَما كُنّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١/١٢] ماكنا حافظين له في غيابنا ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنّا لَصادِقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢/١٢] فخرجوا من مصر ووصلوا إلى أبيهم، وذكروا لأبيهم ماأوصاهم به أخوهم فقال:

ـ الأب يجيب أولاده: ﴿قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣/١٢].

وهكذا اتهمهم أبوهم وظن أنها كفعلتهم بيوسف، فأجابهم كما أجابهم عندما جاؤوه بخبر أكل الذئب ليوسف، لكنه دعا ربَّه في هذه المرة أن يرد إليه أولاده الثلاثة جميعاً: يوسف وأخاه الشقيق وأخاه الأكبر، وساءت حالة أبيهم فاعتزلهم، وهو يبكي حتى عمي بصره، وهو يكظم حُزنه كما وصفه الله بقوله: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤/١٢] ولكن الحقد بلغ بأولاده حداً جعلهم لايرحمون أباهم، فبقي حنينه إلى يوسف يَلْسَعُ قلوبهم فلايُسَرُّون عنه ولايُعَلِّلونه بكلمة رجاء أو عزاء، بل يريدون ليطمسوا في قلبه الشعاع الأخير من الأمل، وقد عبّروا عن ذلك بقولهم له:

ـ الأولاد يعلّقون على حالة أبيهم ﴿قالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥/١٢] ستبقى تَتَحَسَّر على يوسف حتى تصبح ضعيفاً منهاراً أو تهلكَ حزناً عليه، ولكن حقدهم هذا وموقفهم هذا من أبيهم لم يُيْئِسه من

رَوْح الله، ولم يطفئ في قلبه جذوة الأمل في أن يحقق الله وعده ويجمعه بأولاده، فأجابهم على الفور:

الأب يردّ على أولاده ﴿قالَ إِنَّما أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦/١٢]. وراح يوصيهم بالبحث عن يوسف ﴿يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧/١٢] أي لاتقطعوا رجاءكم وأملكم من الله... فذهبوا كما أمرهم أبوهم وجرى بينهم وبين أخيهم الحوار التالي كما حكاه لنا الوحي الإلهي: ﴿فَلَمّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا﴾ وهم يسترحمونه ويستعطفونه:

د- حوار في المرحلة الثالثة: التعارف:

ـ إخوة يوسف لعزيز مصر ﴿يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنا الضُّرُّ﴾ بسبب الجدب والقحط ﴿وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ﴾ رديئة كاسدة ﴿فَأَوْفِ لَنا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: ٨٨/١٢].

فلما شكوا إليه مَامَسَّهُمْ وأهلهم من الضُّر ورجوه بانكسار نفس أن يتصدق عليهم، وتذكر أباه وماهو فيه من الحزن لم يبق في نفس يوسف صبر على الاستمرار في إخفاء حقيقة شخصيّته عليهم. فراح يترفّق في الإفضاء بالحقيقة إليهم ويُسَرِّبُها إلى نفوسهم على شكل سؤال على النحو التالي:

ـ يوسف: ﴿قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩/١٢] ولكنهم فُوجئوا بهذا السؤال ودهشوا، وراحوا يتأملون هذا (العزيز) الماثل أمامهم أيكون هو يوسف؟ وإلا فَمَنْ أعلمه بأسرارهم وماضيهم؟

فأجابوه مستفسرين مدهوشين بسؤال طرحوه عليه:

ـ الإخوة للعزيز ﴿قالُوا أَإِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠/١٢] وعادوا بذاكرتهم إلى الماضي البعيد ليتذكروا مافعلوا بأخيهم الصغير. وليدركوا ملامح يوسف الصغير في

هذا الرجل الكبير الماثل أمامهم في سمت الوزارة وأبّهتها، وحوله الخدم والحراس والحاشية والجند. فأجابهم بلهجة الواثق المتواضع:

- يوسف لإخوته ﴿ قالَ أَنا يُوسُفُ وَهَذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا... إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٩٠].

وهكذا بلغ هذا الحوار القرآني قِمَّةً في الإيجاز والإعجاز: فبسؤاله ﴿هل علمتم مافعلتم...﴾ ذكّرهم يوسف بأحلك ذكرياتهم، وأتعسها حتى تمثلت أمام مخيلتهم آثامهم حين فعلوا مافعلوا بيوسف إذ احتالوا عليه وألقوه في الجُبّ وتركوه ليموت، وهو يتضرع إليهم فلايجيبون؛ وعَرَّفهم بأنه عالمٌ بماضيهم هذا ليتركهم في حيرتهم يتساءلون عن حقيقته وكيف عرف ماضيهم؟..!

ثم حسموا الأمر بسؤال آخر طَرَحُوه لينهوا هذا التردُّد: الإخوة: ﴿أإنك لأنت يوسف؟﴾ فبادر يوسف للتعريف بنفسه وبأخيه بعد تكتم دام زمناً طويلاً، وأضاف إلى ذلك الاعتراف بفضل الله ومَنّه؛ وتوصّل إلى حكمة أسفرت عن بيان أثر التقوى والصبر في وصوله إلى هذا المجد الذي آل إليه. وظهرت بهذا الحوار أخلاقه النبوية، فلم يعنفهم ولم ينتقم لنفسه، فجلّل الخجل والخزي إخوته، وهم يواجهونه محسناً إليهم وقد أساؤوا، حليماً بهم وقد جهلوا، كريماً معهم وقد وقفوا منه موقفاً غير لائق... ثم يأتي تعليقهم عند مفاجأتهم بأنه أخوهم: ﴿قالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنّا لَخاطِئِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٩١] يأتي تعليقهم هذا، ليعبّر عن تأثرهم بهذا الموقف النبيل، وعن ندمهم، وعن اعترافهم بذنبهم وبأخطائهم، وخجلهم مما فعلوا، وليدلّنا على عظم النتائج التربوية لهذا الأسلوب الحواري الذي أوجز لنا اعترافهم بالخطيئة، وإقرارهم بالذنب والندم، وتصوير مشاعرهم أمام مايرون من إيثار الله ليوسف عليهم بالمكانة والحلم والتقوى والإحسان...

ويُنهي القرآن هذا الحوار بجواب يوسف إذ قال: لالوم ولاتوبيخ عليكم اليوم بل أدعو الله لكم بالمغفرة:

- يوسف: ﴿قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢/١٢] قال ذلك ليزرع عندهم الأمل برحمة الله وغفرانه، وليهيئ نفوسهم لبدء مرحلة جديدة إيجابية بنّاءة في حياتهم، وليمحو كل ماعلق بالنفوس من أحقاد الماضي وآلامه...

ولما انتهى يوسف من التعليق على الماضي، ومحو آثامه، اتجه إلى الحاضر والمستقبل وآماله فقال:

- يوسف يتابع: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [يوسف: ٩٣/١٢].

حـ- حوار المشهد الثامن البشارة واجتماع الشمل:

وانطلقوا بقميص أخيهم: ﴿وَلَمّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ عند مفارق الطرق، واتجهوا نحو أرض كنعان حيث يقيم أهلوهم وأبوهم، شعر يعقوب برائحة ابنه، بما أعطاه الله من قدرة على ذلك، فلم يملك نفسه أن صرّح لمن حوله بذلك:

- يعقوب لمن حوله: ﴿قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤/١٢] لولا أن تنسبوني إلى (الفَنَد) أي ذهاب العقل من الهرم وهذا مالقيه منهم إذ راحوا يسفّهونه: ﴿قالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف. ٩٥/١٢] في ضلالك بيوسف وبانتظاره وقد ذهب مذهب الذي لايعود[1]..! ولكن هذا الأمر الذي اتخذوه دليلاً على سفاهة يعقوب أصبح في حكم الواقع عندما جاء البشير بقميص يوسف وبشّرهم بأنه رآه رأي العين: ﴿فَلَمّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ [يوسف· ٩٦/١٢] ثم أردف يعقوب (وقد انتعش برائحة يوسف ورُدَّ إليه بصره) قائلاً:

- يعقوب ﴿ قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف· ٩٦/١٢].

قال كلمته هذه وقد حان الوقت المناسب ليبرهن لهم على صدق صلته با لله وصدْق وعد الله له.

(١) سيد قطب المرجع السابق.

قالها وهو يذكّرهم بما سخروا منه وسفّهوه يوم قالها أول مرة، وبما تَنَبَّؤُوا له من الهلاك إذا هو بقي يحمل همّ يوسف ويَتَضوَّر ألماً على فقده وقد تجرع كأس العمى، واعتزلهم وهو يتجرّع آلامه النفسية، ولكنه لم ينس آنذاك وعد الله له وأمله في رحمة الله وتفريج كربته رغم كل هذه المصائب فأرسلهم يتحسَّسُوا من يوسف، تذكّر، وذكّرهم بذلك كله من خلال الحوار، بهذه العبارة الموجزة البليغة: ﴿قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾؟ العبارة التي قالها وهو يقارن بين حاله المؤلمة الحزينة أوّل ماقالها، وبين حاله المستبشرة الجريئة وهو يقولها الآن، وقد تحقق له مايعلمه مِن الله، ممّا لم يكونوا يعلمون. فأي حوار هذا الذي يجمع بين ماضي القصة وحاضرها، ويُحكم الرابطة بصدق ووضوح بين أولها وآخرها؟!... ربطاً لاتكلّف فيه ولاغموض؟!... ولاعجب فذلك هو الحوار القرآني المعجز المؤيد بالعناية الإلهية، وحُقّ له أن يكون كذلك!

ومن خلال استكمال الحوار، بهذا الربط المحكم، يعرض لنا السياق القرآني لوحةً لِمَشْهَدٍ يكشف فيه عن استسماح إخوة يوسف أباهم عن أخطائهم التي ارتكبوها - أوّل القصة- في حقه، وفي حق أخيهم من كذب، وتدليس، واحتيال وعن ندمهم: إخوة يوسف: ﴿قالُوا يا أَبانا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئِينَ﴾ [يوسف: ١٢/٩٧].

ثم يحكي لنا الحوار القرآني سماحة يعقوب وأخلاقه النبوية التي قابل بها أبناءه إذ قال لهم:

ـ يعقوب لأبنائه ﴿قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ١٢/٩٨] ثم يعرض لنا الحوار القرآني لوحة من مشهد الحنان البَنَوي والأخوي إذ يضم يوسف إليه أبويه وإخوته، وقد رفع أبويه إلى جواره وهو يتربّع على عرش مصر ليذكّرهم بأن هذا المشهد يمثّل تحقيقاً لرؤياه التي رآها وهو غلام، والتي رمزت لأبويه وإخوته بالشمس والقمر والنجوم حين رآها في المنام ساجدة له، وقد وصف الله تعالى اجتماعهم عنده بقوله: ﴿فَلَمّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ، وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ [يوسف: ١٢/٩٩-١٠٠].

فهذا هو الإطار البشري والملوكي للمشهد الذي جرى فيه الحوار، ثم يجيء الحوار يحكي تعليق يوسف على المشهد حين رآهم عنده وقد انْحنوا له بالتحيّة، وأجلس أبويه إلى جانبه:

- يوسف يخاطب أباه: ﴿ وَقالَ يا أَبَتِ هَذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقّاً﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠] وقد كان مشهداً حافلاً بالانفعال والفرح والدموع... بعد انقطاع وبُعد، وصبرٍ استمرَّ على كرّ الأعوام وانقضاء الأيام، وبعد أن كاد اليأس يستحكم... وبعد الألم المرير والضيق، وبعد الشوق المضني، والحزن الكامد..

ولكن يوسف لم يكن ليُبْطِرَهُ النعيم بعد الشقاء، ولالينتقم ممن يظن أنهم ضيَّعوه وسبّبوا له هذا البلاء، بل كان يشكر ربّه، الذي نجاه من الشدة إلى الرخاء ومن الضياع والغربة إلى الألفة واللقاء فقال: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ وكان لاينسى لطف الله في تدبيره، ولاينكر علمه وحكمته وهو الخبير بعباده يقدّر عليهم مايستحقون ويعطي كلاً على قدر مايسعده فيتم تعليقه: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٢/١٠٠] ولاينسى وهو في أوج الفرحة والابتهاج، والجاه والسلطان، والرغد والأمان، لاينسى أن يُخلص لربه الوَلاء، ولاأن يشكر ربه على ماآتاه من الملك وعلّمه من الحكمة وتأويل الأحلام وجعل ذلك سبباً لتولّيه الحكم، ويطلب منه أن يُعْلي شأنه في الآخرة كما أعَزّه في الدنيا، فيتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين:

- يوسف يناجي ربه ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٢/١٠١] وهكذا خُتم هذا الحوار القصصي القرآني بالحل الأخير الواضح لعقدة القصة وبالربط المحكم بين حوادثها وقد استعرَضَتِ الحلقاتُ الأخيرة من الحوار أهم أزمات القصة، وانفراجها، كالسجن، وفراق الأقارب، مع إشارة عابرة إلى كيد الإخوة لأخيهم وقد نسبه إلى الشيطان لئلا يحرجهم فيخرج أضغانهم، وليتيح لهم المجال ليفتحوا في حياتهم صفحة إيجابيَّةً جديدة من المحبة، فاكتفى بقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ

نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فجمع بين هذا الهدف الإصلاحي وبين هدف فنّي قصصيّ هو ربط هذه النهاية بقول الأب في أول القصة في أثناء تفسيره لرؤيا يوسف ﴿قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ١٢/٥].

ثم يتحوّل الحوار إلى مناجاة يوسف لربه، ليشير بذلك إلى فناء الملك والعز والسلطان، ومصير الجميع إلى الخضوع لسلطة العزيز الرحمن، وليشير إلى تحقيق الهدف الأسمى من القصة ومن جميع قصص القرآن: هدف الدعوة إلى تحقيق منهج الله وطاعته في هذه الحياة، والرجوع إليه في كل الأمور، مادام إليه المرجع والمصير مهما طالت الحياة...

٢ـ الشكل الثاني من أشكال الحوار القصصي القرآني: الحوار في القصة القصيرة:

تعريفه: هو حوار مؤلف من مجموعة أسئلة ونصائح متتابعة، يتخللها بعض الأجوبة أو التعليقات، وتنصب جميع هذه الأسئلة والنصائح في مجال العمل على تحقيق الأهداف والقناعات الاعتقادية، والمطلوب تبليغها إلى المخاطبين لحملهم على تحقيق المنهج التشريعي الربانيّ الذي يلزم عن هذه القناعات لينظموا حياتهم وعلاقاتهم وفقاً لهذا المنهج الربّانيّ..، ثم تُختَمُ القصة بالخاتمة المتناسبة مع موقف المخاطبين، وردّهم.

وبالمثال التالي سيتضح لنا، على ضوء تحليله، معنى هذا التعريف:

مثال وتحليل: يبدأ هذا النص القرآني الحوار بين أهل مَدْين ورسولهم شعيب، وتقتصر المقدمة على جملة خبرية تعرّفنا بالنبي الذي يُدير هذا الحوار، وبقومه الذين يحاورهم من أهل مَدْيَنَ: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً﴾ [هود: ١١/٨٤] ويترك التفاصيل معتمداً على معرفة العرب الذين أنزل إليهم هذا القرآن، وعلى بعض الإشارات العابرة التي ستَرِد في طيات هذا الحوار، ولابد لنا أن نشرح ونفصل هذا التعريف الموجز قبل الغوص لاستخراج الأهداف التربوية من هذا الحوار:

يعرّفنا القرآن أن الله أرسل إلى أهل (مدين) أخاً لهم: رسولاً منهم: من قرابتهم وأبناء عمومتهم، يعرفهم ويعرفونه، وتقع بلدتهم (مَدْيَنُ) في الطريق من الحجاز إلى الشام. فكان أول مادعاهم إليه واضحاً في الحلقة الأولى من الحوار الذي أجراه معهم:

ـ شعيب: ﴿ قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤/١١] فدعاهم باسم قرابته وانتمائه إليهم أن يدينوا لله وحده، فيُخْضِعوا لأوامره حياتهم، ويأخذوا بشريعته في تنظيم علاقاتهم ومعاملاتهم، فليس لهم ملاذ ولامرجع غير الله، فهو خالقهم ورازقهم ومدبّر أمورهم، وهو وحده الذي يستحق الألوهية عليهم، ويستحق عبوديتهم وولاءهم.

وهذه الدينونة لله وحده هي القاعدة التي تقوم عليها الحياة السعيدة والعقيدة الصحيحة، إنها العلاقة التي تربطهم بهذا الكون: فكله خاضع في تنظيمه إلى هذه الدينونة، وهم جزء منه، إليها يخضعون خضوعهم لنواميس الكون وقوانينه، ليله ونهاره، رياحه وأمطاره، شمسه وقمره، فعليهم أن يدينوا لله الذي خلقه، وسخر لهم الشمس والقمر والرياح والأمطار، ورزقهم من كل الثمرات، وجعلهم في هذا المركز التجاري الهام؛ لذلك دعاهم إلى حسن التعامل مع روّاد بيت الله الذين يمرون عليهم فقَال متمماً حواره معهم:

ـ شعيب ﴿وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤/١١] فقد رزقكم الله رزقاً حسناً فلَسْتم بحاجة إلى هذه الدناءة... وإنّ هذا الخير الذي أراكم عليه ليُهدده هذا التعامل بالغش. إذْ كانوا يبخسون الناس أشياءهم -أي ينقصون قيمة أشيائهم في المعاملات التي يفرضونها- بحكم تسلطهم على الناس، حيث يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل المتنقّلة بين شمال الجزيرة وجنوبها، لذلك هددهم بعذاب يومٍ يحيط بهم فلايستطيعون الخلاص منه، هو يوم القيامة، فلايغترون بأنهم يحيطون بالقوافل فيفرضون عليها الجور والظلم الذي يريدون، ولايغترون بالنعم والخيرات التي يراهم عليها ﴿ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود: ٨٤/١١] ثم تابع نصحه لهم وحواره معهم وهم قومه وأهله وذووه وهو منهم، لايريد إلاّ مصلحتهم بل يخشى عليهم سوء المصير.

ـ شعيب ﴿وَيا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَالْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ١١/٨٥].

وكذلك كرر شعيب محاولته في إصلاح نفوسهم، فبعد أن حذّرهم من الغش ونقص المكيال والميزان، عاد فنصحهم بوفاء الكيل وحذّرهم من الغش في الأسعار وجميع المعاملات؛ لأن الغش والغصْب والتحايل، ظلم يشيع في النفوس مشاعر الألم والحقد واليأس ونحو ذلك من المشاعر التي تفسد الروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر، وحذّرهم من الإفساد، والعُتُوِّ في الإفساد، أي تعمّده وتصميم العمل على تحقيقه، لتصيُّد أموال الناس بغير حق، وللتحايل عليهم.

ثم يتابع حواره ليوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذي يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم في تقدير ثمنها.

ـ شعيب: ﴿بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود: ١١/٨٦] فما عند الله خير وأبقى وأفضل. ولاأستطيع أن أحفظكم من سوء العاقبة، وهكذا يعطف آخر الحوار على أوله، وكان قد دعاهم إلى الإيمان بالله، والدينونة له، والخوف منه، فجاء بهذه الفقرة يذكّرهم بالخير الباقي لهم عند الله من الجنة والنعيم والثواب إن هم آمنوا، واتبعوا نصحه في التعامل بما أمر الله، وهو فرع عن ذلك الإيمان، وفي الوقت ذاته عاد إلى تذكيرهم بغضب الله وبأنه لايحفظهم من نتائجه إذا وقع بهم وإن كانوا قومه، وكان في أول الحوار قد حذّرهم من عذاب يوم محيط، يوشك أن يحيط بهم، فلايستطيعون النجاة منه، فأيّد التحذير بالتحذير، كما أنه أيّد التذكير بالتذكير لإشعارهم بخطورة الأمر وثقل التَّبِعَةِ، وليَقِفَهُم وَجْهاً لوجه أمام العاقبة... ولكن القوم كانوا قد عَتَوا ومَرَدُوا على الانحراف والفساد وسوء الاستغلال، فردوا عليه بحوار ملؤه التهكّم والسخرية؛ ولكنها سخرية الجاهل المعاند بلامعرفة ولافقه.

ـ أهل مدين ﴿قالُوا يا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ١١/٨٧].

ويدلّ جوابهم هذا على أنهم لايدركون أو لايريدون أن يدركوا أن الصلاة والعقيدة تقومان على توحيد الخضوع لله، وأنهما ملازمتان لتنفيذ شرائع ا لله في التجارة، وفي التعامل وفي كل شأن من شؤون الحياة والتعامل، فكلها لُحْمَةٌ واحدة لايفترق فيها الاعتقاد والصلاة عن شرائع الحياة والمجتمع وتنظيم شؤونهما وفق مشيئة ا لله وأمره وتشريعه، فكل ذلك خضوع لله وتحقيق لمرضاته.

ولكن نبي ا لله شعيباً يتلطف في حواره معهم تَلَطُّفَ الواثق من الحق الذي معه، ويُعْرِض عن سخريتهم، لايباليها، وهو يشعر بقصورهم وجهلهم.

- شعيب ﴿قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً؟﴾ [هود: ١١/٨٨] إنه يتلطّف ليُشعِرهم أنه على بيّنة من ربه، وأنّه على ثقة ممّا يقول لهم، وأنه، إذْ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة، سيتأثر، مثلهم، بنتائجها؛ لأنه مثلهم ذو مال وعلاقات تجارية؛ فهو لايبغي كسباً شخصيّاً من وراء دعوته لهم، فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لينفرد بالكسب وحده! إنما هي دعوة الإصلاح العامّة لهم وله وللناس أجمعين وللحياة وللمجتمع:

- يتابع شعيب حواره ﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلَى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاّ الإِصْلاحَ ما اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ١١/٨٨] الإصلاح الذي يعود بالخير على كل فرد وكل جماعة... ولئن خُيِّل إلى بعضهم أن اتّباع ماتمليه العقيدة الصحيحة يفوِّت بعض الكسب الشخصي، أو يضيع بعض الفرص، فإنما يفوّت بعض الكسب الخبيث، ويضيع الفُرَصَ القذرة، ويعوض الإصلاحُ عنهما كسباً طيّباً ورزقاً حلالاً، ومجتمعاً متضامناً لاحقد فيه ولاغدر ولاخصام، ومالاً مباركاً فيه بدوام الكسب.. فالحلال دائم والغش أبتر...

- شعيب يتابع حواره: ﴿وَما تَوْفِيقِي إِلاّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ١١/٨٨] إليه وحده أرجع، وإليه وحده أتوجّه بنيّتي وعملي ومسعاي، وعليه وحده أعتمد في كل أمري، ثم يأخذ بهم في مجال آخر من النصح والتذكير، فيُطِلّ بهم على

مصارع أقوام قبلهم قاوموا أنبياءهم ورفضوا الإصلاح فأهلكهم ا لله: كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح.

ـ شعيب يتابع حواره: ﴿وَيا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ ما أَصابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صالِحٍ وَما قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩/١١].

لايحملنّكم الخلاف معي والعناد في مواجهتي على أن تَلِجّوا في مخالفة ماجئتكم به من عند ا لله، فيُصيبَكم ماأصاب المكذّبين قبلكم. وأقربهم إليكم قوم لوط: أقربهم في المكان والزمان... وفي مقابلة تذكيرهم بالعذاب والهلاك من عند ا لله، لاينسى أن يفتح لهم باب المغفرة والتوبة، ويُطْمِعَهم في رحمة ا لله ومودّته بأرق الألفاظ:

ـ شعيب يتابع: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠/١١].

وهكذا طاف بهم، بحواره معهم، في مُخْتَلِف مجالات التذكير، وبعث مشاعرهم ووجدانهم بإيقاظ دواعي الخوف والطمع، لعل قلوبهم تَتَفتّح وتخشع وتلين... ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب، وسوء تقدير القيم حَدّاً كشف عنه تبجُّحهم ورفضهم واستهتارهم بنبيّهم:

ـ أهلُ مَدْيَنَ: ﴿قالُوا يا شُعَيْبُ ما نَفْقَهُ كَثِيراً مِمّا تَقُولُ وَإِنّا لَنَراكَ فِينا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْناكَ وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ﴾ [هود: ٩١/١١] إنهم يقيسون القِيَم في الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة، ولاوزن عندهم للحقيقة والحق الذي يواجههم شعيب به، ففي حسابهم: عصبيّة العشيرة -لا الاعتقاد- هي التي تربطهم به: ﴿وَما أَنْتَ عَلَيْنا بِعَزِيزٍ﴾ لاعزة التقدير والكرامة، ولاعزة الغَلَبِ والقهر، ولكنّا نحسب حساب الأهل والعشيرة!

وهذا شأن النفوس الخالية من العقيدة القويمة والقيم الرفيعة: لاترى حرمة لدعوة كريمة، ولاتتحرّج عن البطش بالداعية الذي يدعوهم إلى ا لله إلاّ أن تكون له عصبة تؤويه، أو تكون معه قوة ماديّة تحميه.

وعندما وجدهم شعيب غارقين في ضلالهم متمسكين بقيمهم المادية ليس لله عندهم حرمة، بدأ معهم حواراً جديداً يبيّن لهم سوء أدبهم مع الله، ويقارن بين منطقه الربّاني ومنطقهم المادّي وقد فضّلوا قرابته ورهطه على طاعة الله.

ـ شعيب ﴿قالَ يا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَراءَكُمْ ظِهْرِيّاً؟ إِنَّ رَبِّي بِما تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ١١/٩٢].

ثم ينذرهم العذاب الذي ينتظر أمثالَهم ويُخْلِي بينهم وبين الله:

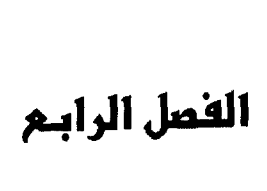
ـ شعيب يتابع ﴿وَيا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكانَتِكُمْ إِنِّي عامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ١١/٩٣].

امضوا في طريقكم وخطتكم فقد نفضت يدي منكم. إني عامل على طريقتي ومنهجي، وارتقبوا العاقبة التي تنتظرني وتنتظركم.. قالها مهدداً إياهم واثقاً بمصيره ومصيرهم مبيّناً انفصال طريقه عن طريقهم.

وهنا يُسْدَل الستار وينتهي الحوار بهذا الافتراق، ليُرفع هناك عن مصرع القوم المكذبين المعاندين، وعن مشهدهم جاثمين في ديارهم، وقد أخذتهم الصاعقة التي أخذت من قبلهم قوم صالح:

ـ ﴿وَلَمّا جاءَ أَمْرُنا نَجَّيْنا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيارِهِمْ جاثِمِينَ ، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيها أَلا بُعْداً لِمَدْيَنَ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ١١/٩٤-٩٥].

وهكذا خلت منهم الدور، كأنهم لم يَعْمُروها حيناً من الدهر، وطُويت صفحتهم في الوجود مشيَّعين باللعنة، والبعد والاشمئزاز منهم ومن عنادهم وكفرهم، كما لُعنت ثمود قوم صالح قبلهم.



الفصل الرابع

الحوار الخطابي

تعريفه: هو كل خطاب، أو نداء، أو سؤال يوجهه القرآن إلى عباد الله أو إلى رسول الله ﷺ، أو غيرهم من الناس، ليحضّهم على تلبيته، أو الإجابة عليه، أو ليلفت أنظارهم، ويوجه عقولهم وأفئدتهم إلى أمر يهمهم، أو لينبههم إلى سلوك شائن يقوم به المنحرفون ليجتنبه المؤمنون، أو ليذكّرهم بفضل الله ونعمه عليهم فيشكروه، أو ليوقظ عواطفهم ووجدانهم، وقد حاولنا أن نستغرق بهذا التعريف كل معاني الحوارالخطابي.

أشكال الحوار الخطابي في القرآن الكريم:

أ- الحوار التعبدي:

تعريفه ومشروعيته: هو الأسئلة والأدعية، أو الأوامر التي وردت في القرآن لنعبد الله بالإجابة عنها، أو ترديدها كما وردت في القرآن، أو الاستجابة لها؛ وعليه أدلة من فعل الرسول ﷺ، وقوله؛ فقد كان ﷺ، قُدْوَتَنا في الاستجابة لأسئلة القرآن وأدعيته: قال حذيفة بن اليمان:

((صليت[1] مع النبي ﷺ، ذات ليلة فافتتح (البقرة)، فقلت: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح (النساء)

---

(١) صفة صلاة النبي ﷺ: محمد ناصر الألباني ١١٧، الطبعة السادسة، ط المكتب الإسلامي بيروت. ورواه مسلم ١٨٦/٢ (باب استحباب تطويل القراءة في الليل) الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج، ط. دار الطباعة العامرة ١٣٣٠هـ.

فقرأها، ثم افتتح (آل عمران) فقرأها، يقرأ مترسّلاً[١]: إذا مَرّ بآية فيها تسبيح سَبَّح، وإذا مرّ بسؤال سأل، وإذا مرّ بتعوذ تعوذ)) فهذا دليل إجمالي تفسّره الأدلة التفصيلية التالية: فأما معنى قوله إذا مر بتسبيح سبح فقد ورد في حديث ابن عباس، أورده السيوطي في الجامع الصغير عن أحمد وأبي داود والحاكم[٢]: قال ابن عباس: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾ [الأعلى: ٨٧/١] قال: ((سبحان ربي الأعلى))، وقوله: ((وإذا مر بسؤال سأل)) أي بدعاء دعا به. وقد يجيب عن سؤال القرآن كما ثبت عنه، ﷺ، عند أبي داود والبيهقي بسند صحيح (أنه كان إذا قرأ: ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ [القيامة: ٧٥/٤٠] قال: ((سبحانك فَبَلَى))[٣]) وهذا معنى الحوار التعبدي، وقد اجتمع في هذا المثال الركنان الأساسيان للحوار: السؤال والجواب، كما اجتمع في المثال السابق (حديث ابن عباس) الأمر والاستجابة، وهما الركنان اللذان يقومان مقام السؤال والجواب، فقد أمره الله بالتسبيح ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فسبّح.

ومن الأدلة على مشروعية الجواب عن أسئلة القرآن مارواه الحاكم عن جابر قال: قرأ علينا رسول الله ﷺ (سورة الرحمن) حتى ختمها ثم قال: ((مالي أراكم سكوتاً؟! لَلْجنُّ كانوا أحسن منكم ردّاً. ماقرأت عليهم هذه الآية من مرة ﴿فبأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن: ٥٥/١٣] إلا قالوا: ولابشيء من نِعَمِكَ ربنا نُكَذِّب فَلَكَ الحمدَ))[٤].

وذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه إلى الترمذي من رواية جابر بلفظ ((لقد قرأتها (يعني سورة الرحمن) على الجن ليلة الجن، فكانوا أَحْسَنَ مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ قالوا: ولابشيء من نعمك ربّنا نكذب، فَلَكَ الحمد))[٥].

---

(١) أي مرتّلا غير عَجِل.

(٢) انظر صحيح الجامع الصغير برقم ٤٦٤٣، ٤/٢٢٨، ط. المكتب الإسلامي بيروت.

(٣) صفة صلاة النبي ﷺ ١٠١ (مرجع سابق) وانظر تفسير ابن كثير ٤/٤٨٢ مرجع سابق.

(٤) أخرجه الترمذي وابن المنذر وأبو الشيخ والحاكم وصححه، كما في فتح القدير للشوكاني ٥/١٣٠ (مرجع سابق).

(٥) انظر صحيح الجامع الصغير ٥/٣٠-٣١ مرجع سابق برقم ٥٠١٤.

فهذا الترغيب القولي من الرسول ﷺ في الجواب على أسئلة القرآن إذا أضيف إلى فعله ﷺ كما رأينا، دلّ على أن ذلك الحوار أسلوب تربوي رغّب فيه النبي ﷺ لتربية[١] الإيمان والعواطف الربانية[٢] .

والحوار الخطابي التعبّديّ موصول من طرفيه، فكما أن العبد يستجيب لأسئلة القرآن، كذلك إذا خاطب المؤمن ربه مناجياً بقراءة آيات القرآن، في الصلاة، أجابه الحق، جل جلاله، بما يناسب المقام. ودليل ذلك مارواه الإمام مسلم عن أبي هريرة قال[٣] : سمعت النبي ﷺ يقول:

((قال ا لله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ماسأل)).

فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ١/٢] قال ا لله تعالى: ((حَمدَني عبدي)). وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة. ١/٣] قال ا لله تعالى: ((أثنى عليّ عبدي)) وإذا قال: ﴿مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ١/٤] قال: ((مجّدني عبدي)) وقال مرةً: ((فَوَّض إليّ عبدي)). فإذا قال: ﴿إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ١/٥] قال: ((هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ماسأل)). فإذا قال: ﴿اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِراطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ١/٦-٧] قال: ((هذا لعبدي، ولعبدي ماسأل)).

وتتجلى السِّمَة التربوية لهذا الحوار التعبدي في أن ا لله جعل هذه السورة التي نكررها في الصلاة بضع عشرة مرة في اليوم، لتبقى الصلة به مستمرة وليربي وحداننا على التجاوب المستمر مع آيات ا لله، وآلاء ا لله، ونعم ا لله وهذه ميزة الحوار التعبّدي.

ب- الشكل الثاني من أشكال الحوار الخطابي:

خطاب الحق، جل جلاله، لنبيّه محمد ﷺ:

---

(١) سيأتي ذلك في بحث أهداف التربية بالحوار القرآني إن شاء ا لله.

(٢) سيأتي في ذلك بحث (أهم شروط تربية العواطف الربانية)

(٣) صحيح الإمام مسلم ٩/٢، ط دار الطباعة العامرة سنة ١٣٣٠هـ.

أ- أثره في نفس النبي ﷺ: كان النبي ﷺ، يتأثر بهذا الخطاب الرباني، ويخشع حتى تذرف عيناه بالدموع أحياناً، مما يترك هذا الأسلوب التربوي الرباني في نفسه من أثر عظيم:

روى البخاري[1] عن عبد الله بن مسعود قال: قال لي النبي ﷺ: ((اقرأْ عَلَيَّ)) قلت: يارسول الله آقْرَأُ عليكَ وعَلَيْكَ أُنْزِل؟ قال: ((نعم: إني أحب أن أسمعَه من غيري)) فقرأت (سورة النساء) حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً؟﴾ قال: ((حَسْبُكَ الآن))، فَالتَفَتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان.

بَ – الحكمة من هذا الحوار: يأتي خطاب الله، عز وجل، لرسوله ﷺ، لحكمٍ[2] عديدة منها:

أ- إشعاره بمسؤولية التبليغ: ﴿يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾ [المائدة: ٥/٦٧].

بَ – ومنها تعظيم شأنه، ﷺ: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً، ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٥-٤٦].

جَـ- ومنها تسليته عما يجابهه أعداء الله به من غلظة وجفاء فيأتي الردّ الإلهي على حججهم الواهية كقوله تعالى: ﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً واحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً﴾ [الفرقان: ٢٥/٣٢] ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاّ جِئْناكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٢٥/٣٣].

دَ- ومنها لفت النظر والانتباه إلى أهمية الأمر الذي يراد منه تبليغه أو إنجازه مثل الجهاد ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٦٦/٩].

---

(١) صحيح البخاري برقم ٤٧٦٣ كتاب فضائل القرآن ٤/١٩٢٥ (وقوله ﷺ : ((إني أحبُّ أن أسمعه من غيري)) ورد في رواية أخرى برقم ٤٧٦٩) ص١٩٢٧، ط دار ابن كثير، دار اليمامة.

(٢) ذكرنا منها هنا سبعاً وسنشرح ما لم نشرحه هنا، ونتابع استكمالها عند بحثنا لأهداف الحوار القرآني إن شاء الله.

هـ- **ومنها لفت الأنظار إلى تشريعات جديدة،** لذلك استفتح المولى، عز وجل، سورة الأحزاب بهذا الخطاب والنداء لرسوله، لما تحوي هذه السورة من تشريعات وآداب اجتماعية تنحُو بالمجتمع الإسلامي منحى جديداً يخالف ماكانوا عليه: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً ، وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣/١-٢].

ومن هذه التشريعات والآداب أمر المؤمنات بالحجاب والجلباب:

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٩] ومنها بيعة المؤمنات: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً﴾ [الممتحنة: ٦٠/١٢].

و- **ومنها تخصيصه صلى ا لله عليه وسلم بتشريع خاصٍّ به:** ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٥٠].

ز- ومنها تكليفه أن يبلّغ أمته تشريعاً ذا أهمية خاصّة:

مثال: فمن هذه التشريعات ذات الأهمية الخاصة التي بدئت بخطاب المولى، جل جلاله، لنَبيّه، ﷺ: (الطلاق) فقد كثر فيه التسرّع وظلم المرأة، أو تحكّم الأهواء والنّزوات دُونَ تَرَيُّثٍ أو تفكّر في النتائج الخطيرة التي تنتج عنه؛ لذلك جاء الوحي الإلهي المنزل الموجَّه بالخطاب للنبيّ، ﷺ، يقرّر في (سورة الطلاق) أحكام الحالات التي تنتج عن الطلاق من شؤون الأسرة، وبيان الوقت الذي يمكن أن يقع فيه الطلاق الذي يقبله ا لله، ويجري وفق سنته ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وعِدَّتهن بيّنها النبي ﷺ لعمر بن الخطاب حين سأله عن ابنه، وقد طلّق امرأته وهي

حائض، فقال ﷺ: ((مُرْهُ فَلْيُراجعها، ثُمَّ ليتركها حتى تَطْهُرَ، ثم تحيض، ثم تطهر، ثم إن شاء أمسك بَعدُ وإن شاءَ طَلَّقَ قبل أن يَمَسَّ فتِلكَ العِدة التي أمر ا الله عز وجل، أن يُطَلَّقَ لها النساء))[1] ثم قال تعالى: ﴿وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ [الطلاق: ١/٦٥] لأنها إن زادت تضررت المرأة بانحباسها عن الزواج، وإن نقصت لم يحصل التأكد من براءة الرحم من الحمل حفظاً للأنساب. ثم تَذكُر السورة حقّ المطلّقة وواجبها في البقاء في بيتها بيت الزوجية فترة العِدة، لاتَخرج ولاتُخرَج: ﴿لا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلا يَخْرُجْنَ إلاّ أَنْ يَأْتِينَ بفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً﴾ [الطلاق: ١/٦٥] كَلَمْسَةٍ، أو نظرة مؤثّرة في أثناء العِدّة فتعود المياه إلى مجاريها.. ﴿فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ وهو ثلاث حيضات بإحصاء أولها وآخرها يطلّقها في كل حيضة، ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ عندما تحين الحيضة الثالثة، وله أن يمسكها ويرجع عن طلاقها في الحيضة الأولى أو الثانية. ومعنى ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾: بقصد العودة إلى الحياة الزوجية بالمعروف من حسن العشرة، لاليُضَارّها، ويؤذيها، فيعطّلها عن الزواج وهو لايريدها ﴿أَوْ فارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾: بإعطائهنّ صداقهن والإنفاق عليهن إن كن حاملات. وهذا مع إشهاد شاهدين على الإمساك أو الفراق ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [الطلاق: ٢/٦٥].

ومن هذه التشريعات ذات الأهمية الخاصة مافيه علاج لما يجري في البيوت ممّا تُسبّبه دواعي الغيرة عند بعض النساء، وقد ذكر لنا الوحي هذا العلاج، ومانطوى عليه من توجيهات ربّانية لبعض زوجات النبي،ﷺ، ليقدم بذلك القدوة الحية لجميع نساء المؤمنين ورجالهم إذا مَرُّوا في حياتهم بمثل الموقف الذي عالجه الوحي بما يتناسب مع الطبيعة البشرية.

فَوجَّهَ الخطاب إلى النبي ﷺ، وهو بشر مثلنا يتعرض لما يتعرض له سائر البشر في مثل هذا الموقف، فقال تعالى:

(١) صحيح الإمام مسلم ١٧٩/٤، كتاب الطلاق باب تحريم طلاق الحائض، ط. دار الطباعة العامرة.

﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضاةَ أَزْواجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التحريم: ١/٦٦] وهكذا بدأت السورة بعتاب مؤثّر من ا لله سبحانه لرسوله، ﷺ، ليعلّمنا أنه لايجوز أن يحرّم المؤمن على نفسه ماجعله ا لله حلالاً، ولاأن يَحْرِمَ نفسه منه عمداً وقصداً إرضاءً لأحد. وسبب هذا العتاب مارواه البخاري: أن السيدة عائشة زوج النبي ﷺ، قالت: كان رسول ا لله ﷺ يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، ويمكث عندها، فتواطأتُ أنا وحفصة على: أيّتُنا دخل عليها فَلْتَقُلْ له: أكَلْتَ مغافير؟ (وهو صمغ له رائحة كريهة) إني لأجد منك ريح مغافير. قال: ((لا! ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعودَ، وقد حَلَفْتُ، لاتخبري بذلك أحداً))[1].

ثم يختتم الآية بهذا التعقيب ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الذي يوحي بأنَّ مافعله النبي ﷺ، من حرمان نفسه، أمْرٌ يستوجب المؤاخذة، لولا أن تداركته مغفرة ا لله ورحمته. ويعالج النص القرآني الموقف الناجم عن اليمين التي حلفها النبي ﷺ؛ وقد أوقعَتْه في حرج؛ بعد هذا العتاب اللّطيف على حرمان نفسه مما أحل ا لله له؛ فيأتي الحكم الإلهي، وفيه مخرج ومفترج لكل من أقسم يميناً، وأراد أن يتحلل منها ليستمتع بما أحل ا لله له، ممّا أقسم أن يحرم منه نفسه: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحريم: ٢/٦٦] وهو الذي يلي أموركم ويرعاكم وهو العليم بما تحتاجونه ولذلك شرع التكفير عن اليمين بإطعام عشرة مساكين، فقال تعالى: ﴿...وَلَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بما عقَّدْتُمُ الأَيْمانَ فَكَفّارَتُهُ إطْعامُ عَشَرَةِ مَساكِينَ مِنْ أَوْسَطِ ما تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩/٥] وعمَّمَ النبي ﷺ، وهو نبي الرحمة، هذه الرخصة الإلهية فرخّص بالتكفير عن كل يمين يرى المؤمن أن مخالفتها خير له من التقيُّدِ بها فقال لعبد الرحمن بن سَمُرَةَ ((...وإذا حلفتَ على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها فكفّر عن يمينك وَأْتِ الذي هو خير))[2].

---

(١) صحيح البخاري ١٨٦٥/٤، كتاب التفسير (رقم الحديث ٤٦٢٨) مرجع سابق.

(٢) صحيح البخاري ٢٤٤٣/٦-٢٤٤٤ (كتاب الأيمان والنذور) رقم الحديث ٦٢٤٨.

ثم يشير النص القرآني إلى سبب نزول هذه الرخصة من الله إلى نبيه وإلى المؤمنين، ليؤدب المسلمات فَيحترمْنَ أزواجهن ولايفشين أسرارهم، ولايدبّرن المؤامرات، ولايكدن لأزواجهن أو لِضَرَّاتهنّ، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً﴾ عن شربه العسل[1] عند زينب ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أخبرت غيرها ففضحت السرَّ ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أطلعه الله على ذلك ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ اكتفى بالإشارة إلى جانب من السر الذي أذاعته ليُعْلمها بأنه اطّع على إفشائها السِّرَّ. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَها بِهِ قالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذا؟﴾ ﴿قالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣/٦٦].

وفي هذا إشارة إلى أنّ الله عليم بالأسرار، خبير بخبايا النفوس وبما يحاك وراء الأستار، لاتخفى عليه خافية، ليَردَّ الله قلوب المؤمنين إلى خشيته ومراقبته في سرّهم وعلانيتهم، فيسلكوا الطريق المستقيم في جميع تصرفاتهم ومعاملاتهم. وأن الله قد أَطْلَعَ نبيّه على مادار بين عائشة وحفصة، حين دبّرتا هذه المكيدة.

وينتقل السياق القرآني من الحكاية عما وقع بين النبي ﷺ، وبعض أزواجه، إلى مواجهة المتآمرتَيْن، وتوجيه الخطاب إليهما، لتتوبا إلى الله وترجعا عن مثل هذه المؤامرات، ولتعلما أن الله ناصر نبيه إن أصَرَّتا على مواجهته وتبييت الشر والكيد له: ﴿إِنْ تَتُوبا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُما﴾ فتكون توبتكما دليلاً على ميل قلوبكما لتكونا مع الله ومع رسوله. ﴿وَإِنْ تَظاهَرا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وإن عدتما إلى التواطؤ والتظاهر عليه فإنَّ الله يتولّى نصرته وتأييده، هو وجبريل والصالحون من المؤمنين ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤/٦٦].

وهكذا رضيت نفس النبي ﷺ، بعد نزول هذه الآيات، وخطاب ربه له ولأهل بيته، وهو تكريم له يناسب مكانته في بيان منهج الله في الأرض، وتحقيقه في عالم الواقع، وتثبيت أركانه.

وقد أشارت هذه الآيات المتجهة بهذا النداء الخطاب الرباني إلى النبي وآل بيته، أشارت إلى صورة للحياة البَيْتِيَّة لهذا النبي الذي كان ينهض بهداية أمة، وإقامة دولة

(١) ذكرنا الحديث بتمامه في الصفحة الماضية.

تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية، وتحقيق المنهج الرباني في مجتمع رباني في صورة واقعية إنسانية يتأسَّى بها الناس. فكان هذا الأسلوب التربوي الخطابي الموجه إلى النبي ﷺ، وسيلة لإعطاء البشرية صورة لحياة الإنسان الذي يعيش المنهج الربانيَّ في أسرته ومجتمعه، ولرسم صورة إنسانية حية يراها ويتأسّى بها من يريد القدوة الميسّرة العملية الواقعية التي تتحقق على الأرض، ولاتعيش في السماء لتصبح مجرد هالات أو خيالات.

وفي ظلال هذا الحادث الذي كان وقْعُه عميقاً في نفوس المسلمين ينطلق النداء الرباني، موجهاً إلى الذين آمنوا ليؤدوا واجبهم في بيوتهم بالتربية والتوجيه: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً..﴾ ولتحليل هذا النداء ننتقل إلى شكل جديد من أشكال الحوار الخطابي:

جـ- الشكل الثالث: الخطاب الموجه إلى الذين آمنوا، ويأتي لتحقيق أهداف متعددة:

أ - الخطاب الموجّه إلى المؤمنين لبناء المجتمع المسلم القائم على البيت المسلم، فهو خطاب من الحق، جل جلاله، يأتي هنا بعد ماحدث من جفاء بين النبي ﷺ، وبعض زوجاته، ليبيّن أن القرآن يتنزل للرجال وللنساء، لينظم البيوت ويقيمها على المنهج الإسلامي وليحمّل المؤمنين تبعة أهليهم، كما يحمّلهم تبعة أنفسهم: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النّاسُ وَالْحِجارَةُ عَلَيْها مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُونَ﴾.

وهكذا يتميز هذا الشكل من هذا الأسلوب التربوي بأنه يذكّرنا أن القرآن يبني أمة: فكلما بُدئت الآية بهذا النداء والخطاب الرباني للمؤمنين، فمعنى ذلك أن الإسلام لايستكمل منهجه إلاّ في محيط جماعة منظمة، ذات ارتباط بالعقيدة وذات نظام إسلامي، وأن على المؤمنين إقامة هذا المجتمع الإسلامي، في سبيل استكمال تطبيق المنهج الرباني في حياتهم. ولما كانت الأسرة نواة المجتمع الأولى جاء هذا النداء في مطلع هذه الآية يوحي هنا بأن أول الجهد، لبناء المجتمع المسلم، ينبغي أن يُوَجَّهَ إلى البيت: إلى الزوجة الأم، ثم إلى الأولاد، ثم إلى الأهل عامّة.

فينبغي أن يدرك المؤمنون اليوم ثقل هذا الجواب ليبذلوا من الجهد أضعاف ماكان يبذله المؤمنون الأوائل الذين كانوا يعيشون في مجتمع -مسلم في المدينة- يهيمن عليه الإسلام بتصوره النظيف للحياة البشرية فيجب الاهتمام البالغ بتكوين الأم المسلمة، لتنشئ البيت المسلم، وينبغي لمن يريد بناء البيت المسلم أن يبحث له أولاً عن الزوجة المسلمة، وإلا فسيتأخر طويلاً بناء الجماعة الإسلامية.

ذلك لأننا اليوم نعيش في جاهلية: جاهلية مجتمع، وجاهلية تشريع، وجاهلية أخلاق، وجاهلية نُظُم، وجاهلية ثقافة.

والمرأة تعيش اليوم في هذا المجتمع الجاهلي، وتشعر بثقل وطأته الساحقة حين تهمّ أن تلبي الإسلام وتنضم إلى نظامه الاجتماعي، وتحقق هذا النظام في حياتها وحياة أولادها..

لذلك كله استُهلّ هذا النص القرآني بهذا النداء الخطابي الرباني الموجه إلى المؤمنين ليصوّر تبعة كل مؤمن في وقاية نفسه وأهله من النار ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، ثم يأتي نداء آخر يوجهه القرآن إلى (الذين آمنوا) ليبين لهم به طريق الخلاص من النار ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً﴾ [التحريم: ٦٦/٨] وهذه بداية الطريق: إنها توبة تنصح القلب وتخلّصه، لتخلّص المؤمن وأهلَهُ من اتّباع أخلاق المجتمع الجاهلي المحيط به وأهله.. توبة تبدأ بالندم على ماكان، وتنتهي بالعمل الصالح والطاعة لكتاب الله وسنة نبيه، ﷺ، فهذه توبة مرجوّة في أن يكفّر الله بها السيئات، وأن يدخل المؤمنين بها الجنات: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ﴾ [التحريم: ٦٦/٨].

بَ – الحوار الخطابي الموجه إلى الذين آمنوا لبيان حكم الله، أو بعض الآداب الاجتماعية، وهو كثير، نذكر منه:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾ [النساء: ٤/٩٤].

وقد وردت روايات كثيرة في سبب نزول هذه الآية المصدّرة بالخطاب الربّاني الموجّه إلى (الذين آمنوا)، وخلاصتها (أن[1] سريَّةً من سرايا المسلمين لقيت رجلاً معه غنم، فقال: السلام عليكم وفي رواية[2] فقال: أشهد ألا إله إلاّ ا لله فاعتبر بعضهم وهو المقداد بن الأسود أنها كلمة يقولها لينجو بها وبغنمه، فقتله).

فنزل هذا التوجيه الرباني المصدر بهذا الحوار الخطابي، ليحرّج على المؤمنين مثل هذا التصرُّف، وينفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع في الغنيمة، أو تسرّع في الحكم، وليوجّه المؤمنين إلى أن عرض الحياة الدنيا لايجوز أن يدخل في حساب المسلمين، إذا خرجوا يجاهدون في سبيل ا لله، فليس هذا العرض هو الدافع للجهاد ولا الباعث عليه. وليوجههم كذلك إلى عدم التسرع بإهدار دم قبل التبيُّن. وقد يكون دم مسلم عزيز لايجوز أن يراق، وليذكّرهم بجاهليتهم التي كانوا عليها، وماكان فيها من تسرّع ورعونة وطمع في الغنيمة. وليمنّ ا لله عليهم أن طهّر نفوسهم وصعّد أهدافهم، فلم يعودوا يغزون ابتغاء عَرَض الحياة الدنيا كما كانوا في جاهليتهم، فأنعم ا لله عليهم بالإسلام وأهدافه النبيلة....

جـ- **الخطاب الموجّه للمؤمنين مصحوباً بالنهي والزجر** بقصد تهذيب الأخلاق والتخويف من عذاب ا لله، والأمثلة عليه كثيرة نذكر منها قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ٤٩/١١].

وفي هذا الخطاب الرباني توجيه إلى أن المجتمع القائم على الإيمان، المهتدي بهدي القرآن، له أدب اجتماعي، ونظام اجتماعي رفيع؛ ولكل فرد فيه كرامته التي لاتُمَسّ، وهي من كرامة الجماعة، لأن الجماعة كلها وَحْدة معنوية كرامتها واحدة؛ لذلك كان (لَمْزُ) أيّ فرد فيها يؤذي المجتمع، ويهين كرامته، ويصدّع بنيانه.

---

(١) الظلال ٢/٧٣٧.

(٢) هذه الرواية الثانية في تفسير ابن كثير ١/٥٥٢.

و(اللّمز) كالتنابز بالألقاب التي يكرهها المخاطب بها، ويُحسُّ فيها سخرية وعيباً، ولذلك نهى الله المؤمنين أن يسخَرَ قوم من قوم أي رجال من رجال، فقد يكونوا خيراً منهم عند الله، أو يسخَرَ نساء من نساء فلَعَلّهنّ خير منهن في ميزان الله.

وهذا النداء الربانيّ المصدّر بالخطاب الموجّه إلى الذين آمنوا، إيحاء بأن القيم الظاهرة البشريّة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النّسَاء في أنفسهن ليست من قيم الإيمان ولامن القيم الحقيقية المعتمدة عند الله فقد يسخر الرجل الغنيّ من الرجل الفقير والرجل القوي من الرجل الضعيف، والسّوي من المَؤوف، والذكي الماهر من الساذج الخام، وقد تسْخَر الجميلة من القبيحة، والشابّة من العجوز. ولكن هذه القيم وأمثالها من قيم الأرض ليست هي المقياس، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين، بل بميزان الإيمان بالله وابتغاء وجهه ومرضاته بالعمل الصالح، ولايكتفي القرآن بهذا الإيحاء، بل يستجيش عاطفة الأخوّة ووحدة المجتمع: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، فكل من عاب أخاه المؤمن فقد عاب نفسه فالمؤمنون نفس واحدة فمن أَدَب المؤمن، بل من واجبه ألاّ يؤذي أخاه فيلقبه بلقب يكرهه.

دَ- الحوار الخطابي الموجه إلى الذين آمنوا لبيان بعض شروط الإيمان مثل:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مالَهُ رِئاءَ النّاسِ وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوانٍ عَلَيْهِ تُرابٌ فَأَصابَهُ وابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/٢٦٤].

وهذا الخطاب الرباني أيضاً موجّه للذين آمنوا لنهيهم عن المنّ، وهو أن يظهر المتصدق فضله على من يعطيه، فيكسر خاطره، ويستعلي عليه، ويخرج أضغانه. وقد يكون للمنّان حظّه النفسي في هذا الاستعلاء، ولكن المجتمع يتصدع، ويعيش على الشقاق والبغضاء، والنفاق، وتبادل المديح والثناء على عمل المعروف، فينعدم الإخلاص، ويأتي المنّان يوم القيامة وهو لايقدر على الحصول على شيء من الثواب ﴿لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمّا كَسَبُوا﴾ لانعدام شرطه وهو الإخلاص.

وابتعاءُ مرضاة ا لله، وهذا الشرط هو من القيم الإسلامية الـتي يبنـى عليهـا السـلوك الاجتماعي في الإسلام، ولايتم الإيمان إلا به، لذلك وجّه المولى هذا النداء في أول الآيـة ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقاتِكُمْ﴾ المعنى: مادمتم من الذين آمنـوا فلاتبطلـوا إيمانكم وإخلاصكم لله بالمن والأذى، فهو منافٍ للإيمان، مُحْبِط للثـواب، فـالذي يمـنّ على الناس بل لايتصدق إلا ليمن بصدقاته وأعماله الاجتماعية الصالحة، لايؤمن بثـواب ا لله، ولايكون مخلصاً، ولاقاصداً بأعماله وصدقاته وجه ا لله، بـل غايتـه المديـح والثنـاء والتعالي، والحصول على ثقة الناس أو لتأييده لرئاسـة أو للحصـول علـى منفعـة أو نحـو ذلك من الأمور الدنيوية، أو القِيم المادية الأرضية، التي لاتلتقي مع القيـم الربانيـة المبنيـة على الإيمان والإخلاص لله، وابتغاء مرضاته وثوابه، لذلـك نفـى ا لله الإيمـان عـن هـذا الصنف من الناس الذين يعملون لأجل هذه القيم ﴿وَلا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ ثم ضرب له هذا المثـل العظيم(١) لبيان انتفاء الثواب بانتفاء شرط الإيمان من هذا العمل، كما ينتفي نبـات الـزرع إذا وضع البذار في تربة تحتها صخر لاينفذ فيه ماء ولاينتش فيه بذر، ولاينمو فيه جذر.

د- الشكل الرابع من أشكال الحوار الخطـابي: الخطـاب الموجـه إلى النـاس وقـد أنزل لأغراض منها:

أ- يتوجه الخطاب الإلهي في القرآن والسنة إلى الناس، **لـيردّهم إلى خـالقهم الـذي أنشأهم** في هذه الأرض وقد وُجدوا، بعد أن كانوا عدماً، بغير إرادتهم، وليذكّر النـاس بأن إرادة ا لله التي أوجدتهم هي التي رسمت لهم في هذا القرآن الطريـق الـذي يجـب أن يسيروا عليه؛ لأنها هي التي تعرف عنهم كل شيء، فهـي وحدهـا صاحبـة الحـق في أن تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم، ثم ا لله هو الرقيب عليهم يعلـم مـن يتّبـع شـريعته، ممـن ينقلب على عقبيه: ﴿يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِـنْ نَفْـسٍ واحِـدَةٍ وَخَلَـقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَساءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحـامَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ٤/١].

﴿يا أَيُّها النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [النساء. ٤/١٧٤].

---

(١) انظر كتاب: التربية بضرب الأمثال للمؤلف ٣٦-٣٧، ط دار الفكر دمشق.

بَ- ثم إن في هذا الأسلوب التربوي إشارة إلى **أن الناس الذين ينتمون بالولاء إلى رب واحد، كما ينتمون بالقرابة إلى أصل واحد، هم سواسية أمام ا لله وأمام شريعته**، وأنهم إخوة وذوو أرحام ووشائج قربى جعلها ا لله لترابط بين قلوبهم. وليتعارفوا ويتوادّوا ويتساءلوا بها لا ليتخاصموا وتتخذ كل قبيلة موقفاً معادياً للقبيلة الأخرى، ولالتنطوي كل أمة على مصالحها، وتسخّر الشعوب والأمم الأخرى وتستغلها!.. فلاعنصرية ولاأثرة عند ا لله الذي خلقكم أيها الناس من نفس واحدة وجعلكم شعوباً وقبائل لتعارفوا: ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣/٤٩] وقال ﷺ: ((الناس وَلَدُ آدم وآدم من تراب))[١].

وقال، ﷺ، في خطبة له عند فتح مكة وهو على راحلتة: ((يأيها الناس إن ا لله قد أذهب عنكم عُبِّيّة[٢] الجاهلية وتعاظمها بآبائها فالناس رجلان: رجل بَرٌّ تقيٌّ كريم على ا لله، وفاجر شقيٌّ هيّنٌ على ا لله، والناس بنو آدم وآدم من تراب))[٣] .

وقال ﷺ: ((كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب لَيَنْتَهِيَنَّ قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونُنَّ أهونَ على ا لله من الجُعلان))[٤] .

وفي هذا المعنى أحاديث أخرى ذكرها ابن كثير عند تفسير الآية، منها قوله ﷺ لأبي ذرّ: ((انظر. فإنك لستَ بخيرٍ من أحمر ولاأسود إلا أن تفضُلَه بتقوى ا لله))[٥] .

---

(١) رواه ابن سعد عن أبي هريرة وذكره السيوطي في الجامع الصغير عنه وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير برقم ٦٦٧٤) ٣٧/٦، ط. المكتب الإسلامي بيروت.

(٢) العُبِّيَّة: الكبر والفخر والنخوة (القاموس المحيط).

(٣) أورده السيوطي في الجامع الصغير نقلاً عن الترمذي من رواية ابن عمر، وحَسَّنه الألباني (صحيح الجامع الصغير برقم ٧٧٤٤).

(٤) المرجع السابق نقلاً عن البزار من رواية حذيفة (برقم ٤٤٤٥) ١٨٣/٤. والجعلان جمع جُعَل: وهي دويبّة كريهة الرائحة تعيش في الروث.

(٥) تفسير ابن كثير ٢٣٢/٤، وأورده السيوطي في الجامع الصغير من رواية أحمد بن حنبل عن أبي ذر، وحسّنه الألباني (صحيح الجامع الصغير برقم ١٥١٧، ٣٢/٢).

جَـ- وفي بعض الآيات المبدوءة (بهذا الخطاب الربّاني الموجه إلى الناس) **بيان لعظمة ومزايا هذا القرآن الذي نَزَّلَهُ ا لله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾** [الفرقان: ٢٥/١] وذلك ليلفت المولى عز وجل أنظار الناس إلى كتابه، وليربّيهم على التّمتّع بهذه المزايا والاستفادة منها كقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠/٥٧].

ولقد تأثّر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وتَطَبَّع بهذه الموعظة التي دخلت قلوب الصحابة من هذا القرآن العظيم فظهر أثرها حين قال عمر عن المال والأنعام التي جاءت إلى بيت مال المسلمين: ((ليس[٥] هذا هو الذي يقول ا لله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ﴾)) [يونس: ١٠/٥٨] ولقد دلّ هذا الموقف على أن القرآن كان شفاءً لقلوب الصحابة إذ حرّرها من العبوديّة للمال وأنه جاء دليلاً على أن القرآن أُنزل رحمة للمؤمنين، بما جاءهم به من الموعظة وشفاء الصدور من هذه العبوديّة، ونحوها من أخلاق الجاهلية، وبهذا شفي المجتمع الإسلامي من التصدع والانحطاط المادي والانهيار فارتفعت أخلاق أفراده، وارتقت حياتهم كلها من العبودية إلى التسامي والانطلاق، كما ارتفعت جميع علاقاتهم ومظاهر سلوكهم من درك الحيوانية والعبودية للآلة وللإنتاج، إلى التعالي على الآلة والإنتاج وإلى تملكها والتصرف بها بحريّة وجرأة وعزة نفس، فأصبحت الأرزاق وثمرات الإنتاج تجيء طيّعة سَلِسة في خدمة المجتمع المسلم، وفي دعم دولته ومؤسساته أمام التيارات والفعاليات التي تصدّرها الدول والمجتمعات الأخرى، وأصبح أفراد المجتمع المستعلي على العبودية للشهوات والحاجات الاقتصادية، يَتَقَشّفون حين تحتاج أمتهم إلى التقشف لئلا ترزح تحت نير العبودية الاقتصادية للدول الأخرى، بل تستطيع الصمود أمام الهزات والنكبات، بل إنها تتجنّب كثيراً من هذه الهزات والنكبات بتجنبها الربا والتعامل الربوي، فأما النكبات الطبيعية فهي من عند ا لله، وما أحلى الصبر لحكم ا لله ولإرادته،

---

(٥) الظلال ٣/١٨٠٠.

ولقضائه، وما أحلى الأمل والرجاء بما عند ا لله الرزاق المتين. وماأحلى الثقة بنصر ا لله والتفاؤل بالمستقبل وهو بيد ا لله.

ومن الآيات التي بدئت بهذا الخطاب الرباني: ﴿يا أَيُّها النّاسُ﴾ وأنزلت لترشد الناس إلى بعض مزايا القرآن، ولتربيهم على تذوقه عند سماعه أو تلاوته على اتخاذه نوراً لعقولهم ولحياتهم قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾ [النساء: ١٧٤/٤] وتشير الآية إلى أن هذا القرآن يحمل برهانه للناس من رب الناس، فطابع الصَّنْعَة الربّانية ظاهر فيه، يفرّقه عن كلام البشر وعن صنع البشر، سواء في مبناه أم في فحواه، حتى إن بعض من لايفهمون من العربية شيئاً يدركون ذلك، كما ذكر أحد الدعاة إلى ا لله، قال[1]: ((كنا على ظهر الباخرة في عرض الأطلنطي في طريقنا إلى نيويورك حينما أقمنا صلاة الجمعة على ظهر المركب ونحن ستة من الركاب المسلمين من بلاد عربية مختلفة وكثير من عمال المركب من أهل النوبة، وألقيتُ خطبة الجمعة وقد تضمَّنَتْ في ثناياها آيات من القرآن، وسائر ركاب السفينة من جنسيّات شتى متحلّقون حولنا يشاهدون!

وبعد انتهاء الصلاة جاءت إلينا من بين من جاء يعبّر لنا عن تأثّره العميق بالصلاة الإسلامية يوغوسلافيّة فارّة من الشيوعيّة إلى الولايات المتحدة! جاءتنا وفي عينيها دموع لاتكاد تمسك بها، وفي صوتها رعشة، وقالت في إنجليزية ضعيفة: ((أنا لاأملك نفسي من الإعجاب البالغ بالخشوع البادي في صلاتكم. ولكن ليس هذا ماجئت من أجله... إنني لاأفهم من لغتكم حرفاً واحداً. غير أنني أحسّ أن فيها إيقاعاً موسيقياً لم أعهده في أية لغة.. ثم إن هناك فقرات مميَّزة في خطبة الخطيب، هي أشد إيقاعاً ولها سلطان خاص على نفسي!)) وعرفتُ طبعاً أنها الآيات القرآنية المميزة الإيقاع ذات السلطان الخاص!.

دَ- ويهدف هذا الأسلوب الخطابي الرباني الموجه إلى الناس في بعض مواطنه من القرآن إلى دعوة هؤلاء الناس إلى عبادة ا لله وتوحيده ليتّقوا غضبه وعذابه،

---

(١) الظلال ٨٢١/٢.

وليَشكروه على أنه خلقهم من العدم وسخر الأرض والسماء لتيسير حياتهم على الأرض: ﴿يا أَيُّها النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١/٢] إنه النداء إلى الناس كافّة لعبادة ربهم الذي تفرد بخلقهم، فوجب عليهم أن يخصّوه وحده بالعبادة، لعلهم يتقون غضبه وعذابه الذي يُنْزله بكل من يشرك به ويجعل له أنداداً وهو ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢/٢].

اعبدوا ربكم الذي جعل لكم سطح الأرض كالفِراش تأوون إليه فتجدون فيه المتعة والراحة، كذلك الأرض يزرعها الإنسان فيجد فيها رزقه ليقي نفسه من غائلة الجوع، ويجد فيها مسكناً يأوي إليه، ويألفه وأرضه التي يحبها، وبلده الذي يجد فيه أهله وأصدقاءه، وينشأ فيه، فيتعلق به ويحميه، وينبت الله له الزروع فيها، ويربي فيها الأنعام يستعين بها على الحياة. وخلق لكم السماء وأوجد فيها الشمس، جعلها الله سراجاً يشعّ بالحرارة والدفء للإنسان وللزرع وللدواب، وجعلها نوراً يضيء للإنسان ليسلك في الأرض طرائق ذللاً له فيها معايش ومنافع كثيرة. ومنها تهطل الأمطار مصدراً للرزق وسبباً للحياة: ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢/٢].

فهذا الماء الذي ينزله الله من السماء هو مادة الحياة تجري به الدماءُ في العروق والنُسُغ في النباتات يبعث النضارة فيها، فينعش الله به الزروع ويحيي به الأرض بعد موتها، إذ يتسرب بين ذرات التراب فتمتصّه جذور النبات ويَصْعد النُسُغ في سوقها ليغذي أوراقها وثمارها بحكمة الله ﴿ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢/٢] إنه منزه عن الأنداد، وإن كل ماتجعلونه من أنداد لله لايقدرون على شيء من هذه العناية الإلهية والرحمة الإلهية التي خصّكم الله بها، فكيف تجعلونهم لله أنداداً وهم عباد ذليلون مسخرون من قبل الله تعالى، وهو يمدهم بالقوة والحياة؟!

هـ- كذلك يستهدف هذا الأسلوب الخطابي الربّاني الموجّه إلى الناس **الدعوة إلى الإيمان بالرسول، ﷺ، واتّباعه وبيان أنّ رسالته عالمية** كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّها

النّاسُ إِنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الّـذِي لَـهُ مُلْـكُ السَّـماواتِ وَالأَرْضِ لا إِلَـهَ إلاّ هُـوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا باللّهِ وَرَسُولِهِ النّبيِّ الأُمِّيِّ الّذِي يُؤْمِنُ باللّهِ وَكَلِماتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٧/١٥٨].

وهذا الخطاب موجّه إلى الناس عن طريق النبيّ الأمي ﷺ الذي يأمره الله بإعلان الدعوة إلى الناس جميعاً للإيمان بهذه الرسالة الربانية إنها الرسالة الشاملة، التي لاتختص بقوم، ولاأرض، ولابزمان معيَّن. ولقد كانت الرسالاتُ قبلها رسالات محلية محدودة بفترة من الزمان مابين عَهْدَي رسولين، وكانت كل رسالة تتضمَّنُ تعديلاً وتحويراً في الشريعة يناسب تدرّج البشريّة..، حتى إذا جاءت الرسالة الأخيرة جاءت كاملة في أصولها، قابلة للتطبيق المتجدّد في فروعها، وجاءت للبشرية جميعاً، لأنه ليس هنالك رسالات بعدها، وللأجيال في كل مكان.. فجاءت موافقة للفطرة الإنسانية التي يلتقي عندها الناس جميعاً، وأُرسِلَ بها النبي الأمي ليطبقها في الحياة بفطرته الصافية -كما أنزلت من عند الله -لاتشوبها شائبة من تعليم الأرض، ولامن أفكار الناس التي داخلها الزيغ والفساد ﴿قُلْ يا أَيُّها النّاسُ إِنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ فأمره الله أن يواجه برسالته الناس جميعاً، ويجابه بها المزوّرين من أعداء الإسلام الذين يزعمون أن محمداً ﷺ إنما كان يمدّ بصره برسالته إلى غير أهلها ليجاوز بها العرب إلى دعوة أهل الكتاب، ثم يجاوز الجزيرة العربية إلى ماوراءها -كان يفعل ذلك- بعد أن أغراه النجاح الذي ساقته إليه الظروف هكذا زعموا..

فأمره الله أن يخاطب الناس جميعاً ليدحض هذه الفرية التي جاءت في ذيول الحرب التي شنوها على هذا الدين وأهله ومايزالون ماضين فيها: يَتولّى كِبْرَهَا المستشرقون، يتابعهم بعض المغرورين بهم من المسلمين الذين يتخذونهم أساتذة لهم ويستشهدون بما يكتبونه عن تاريخ هذا الدين وحقائقه؟..

ثم يتابع النص القرآني بعد تكليف الرسول، ﷺ، أن **يعلن رسالته العالمية للناس جميعاً** يتابع بقيّة هذا التكليف وهي تعريفهم بربهم الحق، سبحانه،: ﴿ الّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إلاّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فهو يبيّن للناس أنه، ﷺ، مرسل إليهم

من ربهم الذي يملك هذا الوجود كله بأرضه وسمائه ومافيهما، وأنتم أيها الناس جزء من هذا الوجود، وكل مافي الوجود عبيد له فهو الذي يحيي الأجنة في بطون أمهاتها ويميت كل نفس استوفت أجلها، وهو الذي يملك الموت والحياة، فهو الذي يستحق -دون سواه- أن يدين الناسُ بدينه الذي أرسل به رسوله ليبلّغهم إياه.

ثم يؤكد الله هذا النداء فيأمر الناس بالإيمان بالله، وقد عرّفه لهم وبرسوله الذي يأتي تعريفه في هذا التأكيد والأمر الإلهي:

﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

وهذا النداء الرباني في هذه الآية المبدوءة بـ (يأيها الناس) **يتضمن الأمر باتباع هذا الرسول** الذي أرسله الله إلى الناس كافة. فلايكفي أن يؤمنوا بقلوبهم، بل لايتم هذا الإيمان إلا باتباعه، ﷺ، الاتباع الكامل فيما يُبَلّغه عن ربه، وفيما يشرعه ويسنّه. فهذه الآية تعلن عن طبيعة هذا الدين وحقيقته: إنه ليس مجرد عقيدة تَستَكنُّ في الضمير، كما أنه ليس مجرد شعائر تؤدَّى وطقوس تُعلَن. فالرسول لم يأمر الناس بالإيمان بالله ورسوله فحسبُ، ولابالصلاة والحج والشعائر التعبّدية فحسبُ، ولكنه أبلغهم شريعة الله في قوله وفعله. ولارجاء في أن يهتدي الناس إلاّ إذا اتبعوه في هذا كله ولو كان الأمر في هذا الدين أمر اعتقاد وحسبُ لكان في قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الكفاية لكنه ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.. فليس هناك رجاء في أن يأتمر الناس بأمر الله مما يدعوهم إليه رسول الله، ﷺ، إلا باتباعه فيه، لأنه هو الذي يبين للناس بقوله وفعله كيفية تطبيق أوامر الله وتحقيقها كما خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٦/٤٤].

وَ- ويجيء **هذا الخطاب الرباني الموجه إلى الناس ليبين لهم فضل الله الذي رزقهم** وأباح لهم أن يأكلوا مما أنبت لهم من الأرض من طيبات مارزقهم حيث قال: ﴿يا أَيُّها النّاسُ كُلُوا مِمّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً﴾ [البقرة: ٢/١٦٨].

فهذا النداء الرباني الموجّه إلى الناس يدعوهم إلى التمتع بطيّبات الحياة والبعد عن خبائثها، وهذا الأمر بالإباحة والحِلِّ لما في الأرض من رزق ا لله -إلا المحظور القليل الذي نصّ عليه القرآن نصّاً- يمثل طلاقة العقيدة الإسلامية، وتجاوبها مع فطرة الكون وفطرة الناس، ويُبيِّن أن ا لله خلق مافي الأرض للإنسان..

وكل ذلك بشرط واحد هو أن يتلقّى الناس ما يحِلُّ لهم ومايَحرُم عليهم من الجهة التي ترزقهم هذا الرزق. فلايُحرّموا على أنفسهم ما لم يُحرِّمه ا لله الذي خلقهم وخلق لهم رزقهم، وهو أعلم بما ينفعهم أو يضرهم من ذلك الرزق، فلايليق بهم أن يتلقّوا مايحل لهم ومايحرم عليهم من إيحاء الشيطان الذي لايوحي بخير، لأنه عدو للناس لايأمرهم إلاّ بالسوء والفحشاء كما قال تعالى بعد هذا النداء الذي وَجّهَهُ إلى الناس، قال لهم يحذرهم من اتباع الشيطان: ﴿ وَلا تَتّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطان إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ، إِنَّما يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: ٢/١٦٨-١٦٩].

فالشيطان يأمر الناس أن يحللوا ويحرموا من عند أنفسهم وفق أهوائهم دون أمر من ا لله وأن يزعموا لأنفسهم ولأتْباعهم أن هذا التحليل والتحريم هو من عند ا لله افتراءً على ا لله، كما كان أحبار اليهود يصنعون، وكما كان مشركو قريش يَدّعون، وقد جاء قوله تعالى منكراً على الناس تصرفهم هذا ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ؟﴾ [يونس: ١٠/٥٩] فالعرب الجاهليّون، وهم الذين وُجّه هذا الخطاب إلى الناس[1] من خلالهم، كانوا يعترفون بوجود -ا لله سبحانه- وأنه الخالق الرازق المصرّف لأمور السماوات والأرض، ومنها أمور البشر المقيمين على الأرض، ثم كانوا -مع هذا الاعتراف- يمارسون التحليل والتحريم لأنفسهم فيما رزقهم ا لله. لذلك جاءت هذه الآية في القرآن تواجههم بهذا التناقض بين اعترافهم با لله الخالق الرزّاق وبين تصرفاتهم المتناقضة لهذا الاعتراف القائمة على مشاركة ا لله بالتحليل والتحريم..

(١) وذلك في قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿يا أيُّها النّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ﴾ [يونس: ١٠/٥٧] وقد سبق تحليل هذه الآية والتي بعدها في الفقرة (جَ) من فقرات هذا الحوار الخطابي الموجّه للناس ثم جئنا هنا في هذه الفقرة على موضوع جديد يعالجه هذا الحوار الموجه إلى الناس.

ويطالبهم الله بالاستسلام له بالتشريع والتحليل والتحريم ويهددهم بالعقاب على افترائهم على الله ﴿وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ؟﴾ [يونس: ٦٠/١٠] أيظنون أنه لن يعاقبهم على افترائهم على خالقهم؟ كما يعاملهم بالإرجاء والإمهال في هذه الدنيا ليبلّغهم وحيه وقرآنه؟ فهذا الإرجاء فضل من الله اقتضته حكمته حتى يقيم عليهم الحجة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [يونس: ٦٠/١٠] فهو يستمرّ مسبغاً عليهم رزقه ونعمه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠/١٠] لايشكرون الله على رزقه ودوام رزقه عليهم وهم يبارزونه بالمعصية والافتراء... وحكمته في ذلك إتاحة الفرصة لهدايتهم إلى اتباع شريعته ووحيه وكتابه، وهم لايبالون.. مع أن الله مطّلعٌ على السرائر، محيط بكل مضمَرٍ وظاهر، لايغيب عن علمه ولايبعد عن متناوله وحسابه مثقال ذرة في الأرض ولافي السماء: ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاّ كُنّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس: ٦١/١٠].

هـ- الشكل الخامس من أشكال الحوار الخطابي:

الحوار الخطابي التذكيري:

وهو الخطاب أو النداء الرباني الموجه إلى الناس، أو إلى فئة معينة من الناس كأهل الكتاب أو بني إسرائيل أو إلى المؤمنين لتذكيرهم إما ببعض ذنوبهم وأخطائهم وإما ببعض نعم الله عليهم، فهذه ثلاث صيغ للحوار الخطابي التذكيري:

١ً- الصيغة الأولى: الحوار التذكيري الموجه إلى المؤمنين ليذكرهم الله ببعض نعمه عليهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم وليوجّههم إلى السلوك الذي تقتضيه هذه النعمة وليبعدهم عن السلوك السيئ كما في قوله تعالى:

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ

فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٢ ـ ١٠٣].

وفي هذه الآية يوجه الله خطابه إلى الذين آمنوا بقوله: اتقوا الله كما يحق له أن يتّقَى، يوصيهم بالتقوى، دون تحديد، ليدع القلوب تجتهد في بلوغ مرتبة التقوى التي تليق بكرم الله وعنايته بهم، ثم يبين لهم الأسلوب العملي السلوكي الذي يساعدهم على تحقيق هذه التقوى ﴿ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي استمروا على تقوى الله طَوالَ حياتكم وابقوا مستسلمين لشريعة الله وأوامره، حتى تسلموا أرواحكم إلى خالقها، وحتى تلاقوا ربكم على ذلك. ثم يذكّرهم الله تعالى بفضله ونعمته يوم ألّف وجمع بين قلوبهم على دينه وشريعته.. وبما يجب عليهم من التمسك بهذه النعمة، والاعتصام بكتاب الله ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً ولاتفرّقوا﴾، ثم يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية (أعداء) يوم كان الأوس والخزرج وكان بينهما ماكان من العداوة، في يثرب، يجاورهما اليهود كما كانوا يذكون هذه العداوة وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيّين جميعاً، لذلك حذرهم الله من التفرقة، ثم ألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ﴾ فهذه نعمة المؤاخاة بالإسلام، التي جاء هذا الخطاب الرباني الموجه إلى المؤمنين ليجلّيها، وليطالب المؤمنين بالمحافظة عليها، وعدم العودة إلى نار العداوة التي كانوا على شفا حفرة منها:

﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ منها﴾ فاليهود مازالوا بعد الإسلام يعملون على إيقاظ هذه الفتنة والعداوة، كما ذكر السيوطي في (أسباب النزول)[1] عن ابن إسحاق عن زيد بن أسلم قال: ((مَرّ شاس بن قيس– وكان يهودياً– على نفر من الأوس والخزرج يتحدثون، فغاظه مارأى من تآلفهم، بعد العداوة، فأمر شاباً معه من يهود أن يجلس بينهم فيذكّرهم يوم بعاث –وهو يوم من أيام الجاهلية جرت فيه حرب

(١) السيوطي: أسباب النزول بهامش المصحف، بهامش تفسير الجلالين ص١٣٣، مطبوعات مكتبة محمد هاشم الكتبي بدمشق تحقيق محمد كريّم راجح وحسين الخطّاب.

بين الأوس والخزرج ففعل فتنازعوا وتفاخروا، حتى وثب رجلان-أحدهما من الأوس والآخر من الخزرج- فتقاولا فغضب الفريقان وتواثبوا للقتال، فبلغ ذلك رسول ا لله ﷺ، فجاء حتى وعظهم، وأصلح بينهم فسمعوا وأطاعوا، فأنزل ا لله ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠/٣] والآيات التي بعدها. (ومنها هاتان الآيتان اللّتان أتينا على تحليلهما هنا) **ويمكن تحليل هذه الآيات المحققة** بمجموعها لهذا الأسلوب التربوي: (الحوار الخطابي التذكيري الموجه للذين آمنوا) **إلى عناصره أو مراحله التربوية** وهي:

١ـ تحذير المؤمنين من أن يطيعوا أعداءهم في الدس بين صفوف مجتمعهم وإلقاء الفرقة والعداوة بينهم ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا..﴾ ويستمر هذا التحذير بالسؤال الإنكاري ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ؟﴾..

٢ـ دعوة المؤمنين إلى تقوى ا لله والاعتصام بكتاب ا لله ونبذ كل أسباب الفرقة والتمسك بالإسلام حتى الرمق الأخير من الحياة ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ..﴾.

٣ـ تذكير المؤمنين بنعمة الأخوة التي ربط بها الإسلام بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداءً.. ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ليبقوا متمسكين بهذه الأخوة آخذين بأسبابها.

٤ـ مطالبة المؤمنين بتحقيق الثمرة العملية، والهدف السلوكي من هذا الأسلوب التربوي: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وذلك بتخصيص جماعة من المؤمنين لوقاية المجتمع من الانحراف عن منهج ا لله، فهي تأمر أفراد المجتمع وتذكّرهم دائماً بالعمل بأمر ا لله وبترك ما أنكره ا لله ونهى عنه، وتعمل على الإصلاح بين أفراد المجتمع وطوائفه إذا وقع بينهم خلاف على أساس الرجوع إلى ماأُمروا به من معروف ونُهوا عنه من منكر وإلى تحقيق المنهج والتشريع الرباني في كل أمورهم وعلاقاتهم وخلافاتهم..

ب- الصيغة الثانية: الحوار التذكيري الموجه إلى الناس جميعاً:

ومن الأمثلة على الحوار التذكيري المبدوء بالخطاب الرباني (يأيها الناس) ماأنزله الله ليذكرهم بنعمه ليوحدوه وليشكروه، وليؤمنوا بما وعد الله من البعث والحساب، وبأن رزق الله وافر يسخره للإنسان من السماء والأرض، لايقدر على تيسيره وتسخيره أحد إلا الله كقوله تعالى:

﴿يا أَيُّها النّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣/٣٥].

تذكروا ربكم الذي خلقكم وتذكروا ماخلق الله حولكم من السماء والأرض، ليُفيض عليكم نعمه كالشمس والقمر سخرهما الله لكم دائبين لاينقطعان ولايغيبان، وكالأمطار والأنهار والحبوب والثمار والأنعام تأكلون منها وتشربون وتدخرون.

فمالكم تنصرفون عن شكر الله والتوجّه إليه بالحمد والابتهال؟! وهو الله الذي لايستحق الشكر والعبادة والحمد والتبجيل أحد سواه؟

كيف تُصرفون عن الإيمان بتوحيد الله، وهو الحق الذي لامراء فيه؟.

كيف ودلائله وآياته تواجهكم من بين أيديكم ومن حولكم ومن فوقكم ومن تحت أرجلكم تواجهكم بالأمطار والينابيع والأنهار والبحيرات والزروع والثمار؟

كيف وكلها تدل على عناية الله ورحمته بكم؟!

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟﴾ كيف تصرفون عن عبادة الله إلى عبادة الأنداد التي جعلتموها شركاء تشركونها مع الله، فتعبدونها معه؟ أو تشرع لكم من الدين والقوانين مالم يأذن به الله؟ فطاعتهم على ذلك هي عبادة[1] لهم، وهي من قبيل جعلهم شركاء كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ ما لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ؟﴾ [الشورى: ٢١/٤٢].

فهذه ثلاث حقائق هي براهين يذكّر الله الناس بها ليدلهم على وجوب عبادته وتوحيده:

---

(١) شرحنا ذلك عندما عرضنا العناصر التي يتكون منها الحوار القرآني والنبوي، عند تفسير آية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وانظر تفسير الآية في الظلال ١٦٤١/٣-١٦٤٢ وتفسير ابن كثير ٣٦٢/٢.

١ـ حقيقة وحدانية الخالق المبدع.

٢ـ وحقيقة اختصاص الله بالرحمة وقد جاءت في الآية التي سبقت آية (يأيها الناس) التي أتينا على تحليلها، وهي قوله تعالى: ﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٣٥/٢] فهذه الآية مهدت للنداء الرباني (يأيها الناس) وبيّنت للناس عجز أي قوة في السماوات والأرض عن إيصال مثل هذه الرحمة والمدد الرباني المستمر الذي يمد الله به الخلائق كالأمطار والأرزاق، وعن منع أي رحمة يريد الله إرسالها، فمهدت أمامهم طريقهم إلى عبادة الله، وتوحيده ثم جاءت الآية التالية تدعوهم إلى ذلك كما بينا.

٣ـ أما الحقيقة الثالثة فقد جاءت لتبين معنى من معاني الرحمة التي يختص الله بإرسالها لعباده أو إمساكها عنهم **وهي حقيقة انفراد الله تعالى بالرزق**، وقد بينا مايلزم عنها من توحيد الله، ثم يأتي النداء الرباني الثاني ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٣٥/٥] يدعو الناس إلى الإيمان بالبعث والحساب الذي وعد الله به جميع الخلائق. ووعد الله حق آت لاريب فيه، ولكن الحياة تغر وتخدع، ويزيد الشيطان (الغرور) في خداع الناس وتزيين الحياة وملذاتها لهم حتى ينسيهم وعد الله أو يقلل من شأنه في نفوسهم فيطمعهم بأن التوبة ممكنة متى شاؤوا فليقتنصوا من نعيم الدنيا ماشاؤوا، وليغفلوا عن تشريع الله وعن حلاله وحرامه، مادام في العمر متسع وأمد بعيد، حتى يفاجئهم أجلهم...

ثم يحذر الله الناس من تغرير الشيطان وكيده: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٣٥/٦].

والشيطان قد أعلن عداوته لبني آدم، منذ أن أمره الله أن يسجد لأبيهم آدم، فأبى، فَحَقَّتْ عليه اللعنة إلى يوم الدين. لذلك يذكر الله الناس بعدائه هذا، ويأمرهم ألا يركنوا إليه ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾، ليبقى وجدانهم متحفزاً لدفع الغواية والإغراء، ولدفع وسوسة الشيطان، ولتبقى مشاعرهم في حالة التعبئة العامة ضد الشر ودواعيه، وفي حالة الاستعداد الدائم لهذه المعركة التي لاتهدأ أو لاتضع أوزارها.

التحليل التربوي:

يمكن تحليل هذا المثال إلى عناصره أو مراحله التربوية على النحو التالي:

١ـ بيان فضل ا لله وعنايته وانفراده تعالى بالرحمة: يرسلها لمن يشاء من عباده فلايستطيع أحد غيره إمساكها عنهم، أو يمسكها عمن يشاء ﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها..﴾ [فاطر: ٣٥/٢]. وهذا تمهيد جاء يهيىء العقول لتلقّي التذكير.

٢ـ تذكير الناس بأن ا لله وحده هو الخالق المبدع الذي أوجدهم فيجب أن يوحّدوه ويُفْردوه بالعبادة دون سواه ﴿يا أَيُّها النّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ فالذي خلقهم هو الذي يرسم لهم منهج حياتهم، وهو أدرى بما يصلحهم فعليهم طاعته والاستسلام لأمره.

٣ـ تذكير الناس برزق ا لله الذي يأتيهم من السماء والأرض، وتحذيرهم من الغرور ومن الشيطان الذي يغرّر بهم ويبعدهم عن طاعة ا لله وعن منهجه...

٤ـ مطالبة الناس بالعمل والسلوك الذي هو ثمرة هذا التذكير وهو الهدف منه، وذلك بالعمل لليوم الآخر والاستعداد لحساب ا لله وللوقوف بين يديه للحساب، وبعدم الاغترار بهذه الحياة الدنيا، وألاّ يلهيهم الشيطان الغَرور بها أو بالأمل الكاذب، والطمع في فضل ا لله الذي لايشمل إلا من عمل لآخرته، واتّقى ا لله حق تقاته.

جـ– الصيغة الثالثة: الخطاب التذكيري الموجه من ا لله تعالى إلى بني إسرائيل لتذكيرهم بنعم ا لله عليهم، ولمطالبتهم بالإيمان برسول ا لله ﷺ، ووفاءً بما أُخِذَ عليهم من العهود كقوله تعالى: ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيّايَ فَارْهَبُون ، وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٢/٤٠-٤١].

إن هذا الخطاب الموجه إلى بني إسرائيل يذكرهم بأمرين كان لهما أثر كبير في حياتهم:

١ـ فهو يذكرهم أولاً بنعمته عليهم، وقد جاء هذا التذكير هنا دون تفسير للنعم وقد عدّدها القرآن في مواطن أخرى، كنعمته يوم نجاهم من آل فرعون يسومونهم

سوء العذاب؛ يوم أتبعهم فرعون بجنوده وأهلك الله فرعون بالغرق، وهم ينظرون، وهذه من أعظم نِعَمه عليهم بعد أن أرسل إليهم نبيّه موسى عليه السلام، و لم تقتصر نعمة هدايتهم على إرسال موسى بل أرسل إليهم قبله أنبياء آخرين كيعقوب (إسرائيل) ويوسف، وقد ذكّرهم موسى بهذه النعم كما حكى الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَآتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ﴾ [المائدة: ٥/٢٠].

٢ًـ ثم يذكرهم الله بعد ذلك بالعهد الذي أخذه عليهم أن يؤمنوا بهذا النبي ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف. ١٥٧/٧] هذا العهد الذي أخذه الله على النقباء السبعين الذين اختارهم موسى لميقات ربهم، والذين تَشَفَّع فيهم نبيهم موسى عندما أخذتهم الرجفة وزُلْزِلَت بهم الأرض فشفّعه الله فيهم ونجّاهم من الهلاك. وعندما دعا لهم موسى بقوله: ﴿وَاكْتُبْ لَنا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ﴾ [الأعراف. ١٥٦/٧] أجابه الله بقوله: ﴿قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ﴾ [الأعراف: ١٥٦/٧-١٥٧] فاشترط الله على نبيه موسى ومن معه من النقباء الذين يمثلون بني إسرائيل أن يؤمنوا بهذا الرسول النبي الأمي ويتبعوه لكي يعفو الله عنهم ويكتب لهم رحمته وغفرانه.. وهذا عهد أخذه الله عليهم. كما أخذه ميثاقاً وعهداً على جميع الأنبياء: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي[1] قالُوا أَقْرَرْنا قالَ فَاشْهَدُوا وَأَنا مَعَكُمْ مِنَ الشّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١/٣].

ثم أكد الله عهده بقوله: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨٢/٣]، ولنعد إلى متابعة هذا الحوار؛ إذ يخوّف الله بني إسرائيل بَطْشَه بعد أن ذكرهم بعهده وأمرهم بالوفاء به ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠/٢]، فهو

---

(١) الإِصْر (بالكسر) العهد (مختار الصحاح ص١٧)، الناشر دار الحكمة دمشق.

القادر على أن يهلكهم كما أغرق آل فرعون وهم ينظرون. ثم يفسر الله عهده الذي أخذه عليهم فيأمرهم أن يؤمنوا بما أنزل على نبيه محمد، ﷺ، ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ﴾ بهذا الأسلوب البرهاني المبني على الوثائق والوقائع يدعوهم الله للإيمان، وهو أسلوب جعله الله مثلاً للدعاة إلى الله، لدعوة هؤلاء القوم وأمثالهم إلى الإيمان بالله وبرسوله وبكتابه، عن طريق الجدل بالحق، وبالأسلوب الحسن الذي وصّانا الله بقوله تعالى: ﴿وَلا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦/٢٩] وتأمّلْ معي هذا الأسلوب الرباني الرفيق يدعوهم إلى الإيمان بالقرآن المصدق للحق الذي جاء في التّوراة ﴿وَآمِنُوا بِما أَنْزَلْتُ مُصَدِّقاً لِما مَعَكُمْ وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١/٢].

إنه إذْ يدعوهم إلى الإسلام الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ إنما يدعوهم إلى الدين الواحد الخالد الذي أُنْزِل على جميع الأنبياء، وقد أنزله في صورته الأخيرة امتداداً لرسالة الله التي أُنْزِلَتْ منذ البشريّة الأولى، ليجمع الله بها بين البشر كلهم على هذا الدين، إخوةً متعارفين يلتقون على عهد الله ودين الله، يلتقون عباداً لله، مستمسكين جميعاً بعهده الذي لايتبدل، لئلا يتفرقوا شِيَعاً وأحزاباً، فيتقاتلوا ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢/٣٠] كل طائفة يريد زعماؤها أن تبقى لهم السيطرة على أتباعهم فرحين بالجاه الذي يفرضونه أو المال الذي يجمعونه ثمناً للفتاوى المكذوبة يحرّفون بها أحكام الله حتى يوهموا الأغنياء بأنهم ناجون من عقوبة الله مهما ظلموا ومهما أكلوا أموال الآخرين بالربا وبالباطل.. ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيّايَ فَاتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١/٢] اتقوا غضبي واطلبوا مرضاتي؛ فإن المال والجاه والغنى لن يغنوا عنكم من عذاب الله شيئاً يوم القيامة إن عصيتم ربكم وخالفتم ماأنزل على رسله من الحق والتشريع..

ويمضي السياق القرآني، بهذا الأسلوب التربوي التذكيري الرباني، يحذّرهم ماكانوا يزاولونه من تلبيس الحق بالباطل وكتمان الحق وهم يعلمونه: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْباطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢/٢].

٣ـ ثم يدعوهم إلى الاندماج في موكب الإيمان، وأداء عباداته المفروضة مع عباد ا لله، وترك هذه العزلة والتعصب العنصريّ الطائفيّ الذّميم، وهو ماعرفت به يهودُ من قديم: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٢/٤٣].

٤ـ ثم يمضي هذا الأسلوب التربوي يذكّرهم أخطاءهم ويعيب أسلوبهم العقيم الذي لايليق بأهل كتاب ولابدعاة إلى دين رباني:

ـ ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ إنه يعيب عليهم: كيف كانوا يدعون العرب إلى الإيمان، بصفتهم أهل كتاب يعيشون بين مشركين، وهم في الوقت ذاته يصدّون قومهم عن الإيمان بدين ا لله المصدق لدينهم وهم يتلون عهود ا لله التي أخِذت عليهم في الكتاب: أن يؤمنوا بالنبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل؟! أهذا تصرّف يقوم به عاقل؟ ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ؟﴾ ثم يوقظ وجدانهم إلى عبادة ا لله والصبر على العودة إلى الحق، وترك المنافع والأنانيات، مستعينين بما بقي في ضميرهم من الخشوع لله... والإيمان بالرجوع إليه ﴿وَاسْتَعِينُو بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلاّ عَلَى الْخاشِعِينَ ، الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ راجِعُونَ﴾ [البقرة: ٢/٤٥-٤٦].

٥ـ ويعود السياق القرآني، بهذا الأسلوب التذكيري الخطابي الرباني إلى تذكير بني إسرائيل مرة أخرى بنعمة ا لله عليهم وتخويفهم من معصية ا لله، ومن اليوم الآخر الذي يُرجعون فيه إلى ا لله ليحاسبهم على أعمالهم، فلاتنفعهم قرابة ولاشفاعة، ولاتعدلها أموال، ولايُنصر الظالمون ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢/٤٧] وتفضيلهم هذا على العالمين موقوت بزمان استخلافهم واختيارهم. فأما بعد أن عَتَوْا عن أمر ربهم وعصوا أنبياءهم وتخلّوا عن الوفاء بعهدهم فقد أعلن ا لله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلّة والمسكنة[1].

---

(١) ودلك في قوله تعالى. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَباؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٢/٦١]

ويأتي هذا التذكير ليُطْمِعَهُم بهذه الفرصة المتاحة لهم على يدي الدعوة الإسلامية، علّهم يعودون إلى موكب الإيمان وإلى الوفاء بعهد الله، شكراً على تفضيله لآبائهم، وليُرغّبهم في العودة إلى مقام التكريم الذي أعدّه الله لعباده المؤمنين.

ثم يأتي التحذير من اليوم الآخر ليتوازن التحذير مع التفضيل والترغيب مع الترهيب: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة: ٢/٤٨].

فالتبعيّة في هذا اليوم الآخر فرديّة، كل نفس مسؤولة عن نفسها، لاتغني نفس عن نفس شيئاً، فلاشفاعة تنفع من لم يقدم في الدنيا إيماناً وعملاً صالحاً، ولاتؤخذ فدية من أيٍّ كان للتجاوز عن كفره، وغدره بما عاهد الله عليه، ومامن ناصر يعصمه من الله، أو ينجيه من عذابه.

ويمكن تلخيص المراحل التربوية لهذا الخطاب التذكيري على النحو التالي:

١ً- ففي المرحلة الأولى يذكّر الله بني إسرائيل بنعمته التي أنعمها عليهم، وهي تنطوي على نعم كثيرة. ذكرنا أهمها مقتبسةً من مواطن أخرى من القرآن الكريم.

٢ً- وفي المرحلة الثانية يذكرهم الله بعهده الذي أخذه عليهم ويطالبهم بالوفاء به. كما بيّناه مقتبساً من مواطنه من القرآن الكريم، وقد بينا في هذه المرحلة عظمة الأسلوب القرآني المبني على الوقائع التي يعرفونها وقد مرّت بها أمتهم وعلى اعترافهم وإقرارهم.

٣ً- وفي المرحلة الثالثة يدعوهم القرآن لينضموا إلى موكب الإيمان الإنساني، وإلى أداء الصلاة والزكاة مع عباد الله المؤمنين، وإلى الركوع مع الراكعين.

-وقوله سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَما ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَباؤُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كانُوا يَكْفُرُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِياءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِما عَصَوْا وَكانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١١٢].

٤ـ وفي المرحلة الرابعة يَعيب القرآن عليهم بسؤال تعجب وإنكار: كيف يدعون العرب في الجاهلية إلى دينهم، ثم ينسون أو يتناسون الانضمام إلى هذا الدين الإسلامي والإيمان والعمل بكتاب الله. ويستمر في هذه المرحلة يطالبهم أن يستعينوا على كبريائهم وعنصريّتهم بالصبر والصلاة.

٥ـ وفي المرحلة الأخيرة يعود إلى تذكيرهم بنعمة الله وتفضيلهم على العالمين في زمانهم عندما أخلصوا دينهم لله، ويأتي التذكير هذه المرة مشفوعاً بتحذيرهم من عذاب يوم القيامة الذي تكون كل نفس فيه بما كسبت رهينة، فلاشفاعة تنفع الظالمين المستكبرين عن اتباع رسل الله، ولامالَ ينفعهم ليفتدوا به من عذاب الله ومن غضبه.

وـ الشكل السادس من أشكال الحوار الخطابي:

الخطاب الموجه إلى الإنسان:

وسنحلل (سورة الانفطار) تحليلاً تربوياً على اعتبارها مثالاً حياً متكاملاً على هذا الأسلوب التربوي:

١ـ فقد جاء مطلع السورة بآياته الخمس الأولى موقظاً ومنبهاً للحواسّ والمشاعر والعقول والضمائر، ليُعِدّها لتَلَقّي هذا الخطاب الإلهي للإنسان، وتصف هذه الآيات مشهد التغيير العنيف، في هذا الكون الكبير، عند انتهاء نظامه هذا الذي نراه عليه في هذه الحياة الدنيا، وانفراط عقده، الذي يمسك به في هذا النظام الدقيق: ﴿إِذا السَّماءُ انْفَطَرَتْ ، وَإِذا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ ، وَإِذا الْبِحارُ فُجِّرَتْ ، وَإِذا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ، عَلِمَتْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٨٢/١-٥].

وكأنّي بهذه الآيات تقول للإنسان كيف بك؟ وكيف تكون حالك أيّها الإنسان إذا انشقت السّماء، وتكدست أشلاؤها فطُويَت ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٤] كما يطوي خازن الصحائف صحائفه[1]، وطُويَ هذا الكون، وأصبحتَ أيها الإنسان أمام عالم جديد؟ كيف بك إذا تناثرت الكواكب بسرعات هائلة مفزعة بعد

(١) الظلال ٤/٢٣٩٩.

أن كانت مُمْسَكَةً، بقدرة ا لله، في مداراتها لاتتعداها؟ فهامت على وجهها في الفضاء الرهيب، وأفلتت بإذن ا لله من ذلك الرباط الإلهي الوثيق الذي كان يمسكها ﴿وَيُمْسِكُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥/٢٢] كيف بك إذا فجِّرَتِ البحار حتى تجاوزت شواطِئَها وطغت على اليابسة، وأغرقت الديار والزروع والأنهار، أو تفجرت تفجيراً نووياً فانطلقت ذرات الأكسجين والهيدروجين بقوة ذَرِّية نوَوِيّة تتضاءَل أمامها القنابل الذرية، آخذة كل اتجاه، حتى طغت على كل ماحولها فصعق من في السماوات والأرض؟ كيف بك إذا خرج الناس من قبورهم بعد ذلك ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ٤٢/٥٠] فانطلقوا فزعين وقد علمت كل نفس ماقدمت من خير أو شر، وماأخرت لنفسها عند ا لله من ثواب أو عقاب؟!

٢ً ـ وبعد هذا المطلع بهذه السورة، الموقظ المنبه للعقول والضمائر يأتي النداء والخطاب الرباني يلفت نظر الإنسان إلى واقعه، فإذا هو غافل لاهٍ، فينادي في (الإنسان) إنسانيته التي تميز بها من سائر الأحياء. يأتي هذا الخطاب من الحق، جل جلاله، ليعاتب (الإنسان): ﴿يا أَيُّها الإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ؟﴾ [الانفطار: ٧/٨٢] ماالذي غرّك أيها الإنسان بربك فجعلك تقصر في حقه، وتتهاون في أمره، وقد ميزك بإنسانيتك التي تعقل بها وتدرك الخير من الشر؟!

ثم يفصّل هذا النداء الرباني للإنسان جانباً من إنسانيته التي كرمه ا لله بها وميّزه وفضّله على جميع الكائنات التي تدبّ على الأرض فيشير إلى خلقه وتسويته، وهو القادر على أن يركبه في أي صورة وفق مشيئته، فكان من كرمه -جل جلاله- أن اختار له هذه الصورة الجميلة المعتدلة المتناسقة. فتأمل هذا الأسلوب التربوي العظيم: إنه خطاب من ا لله يهز كيان الإنسان ويوقظ إنسانيته، ويبلُغ من القلب شغافه، ومن النفس والمشاعر أعماقها: كيف لا وربه الكريم يعاتبه هذا العتاب الجليل، ويذكره بهذا الجميل، وهو سادر في التقصير؟!

إنه خطاب يشير ا لله به إلى تكامل خَلْق الإنسان، ليتأمل تكوينه، وليتأمل هذه الأجهزة العامة التي تتعاون، وتتناسق لإعطاء هذا الإنسان صورته وحياته وعقله

وإدراكه وتكاثره، كالجهاز العصبي، والجهاز الدموي، والجهاز التّنفّسي والجهاز التناسلي، والجهاز الهضمي وأجهزة الذّوق والشمّ والسمع والبصر، والجهاز العظمي، والجهاز العضلي والجهاز الجلدي، وكل جهاز يتكون من مجموعات من الخلايا كل منها ذات خصائص تجعل الجهاز قادراً على القيام بمهماته ووظائفه دون علم أو تدخل من قبل الإنسان..

ويجري التعاون والاتصال المستمر بين جميع هذه الأجهزة والخلايا حتى يتكون من ذلك كله هذا الإنسان الحي المدرك المريد النامي المتغذي المتكاثر العاقل العطوف، فكيف لايعاتب ا لله هذا الإنسان الذي ميزه بكل هذه الخصائص إذا حاد عن تحقيق الأهداف التي خلقه ا لله لتحقيقها، وركّبه بهذه الصورة ليعينه على تحقيقها؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥]. لقد خلق ا لله الإنسان لأداء المهمة التي خُلِقَ لأجلها ورسم ا لله له، على يد رسله وفي كتبه، المنهج الذي لاتتحقق المهمة إلا به، وجعل ذلك كله اختياراً وامتحاناً له، ثم قدر لهذا الإنسان ولهذا الكون، الذي سخّر للإنسان، عمراً مُعَيَّناً، وأجلاً مُسَمَّى، فيه يرجع الجميع إلى ا لله ليحاسب هذا الإنسان على ماعمل فيما ابتلاه ا لله واختبره به من النعم، التي سخرها له. فكيف يغتر فيغفل عن رقابة ربّه وعن منهجه ووحيه ومأرسل به رسله؟

٣ـ وهاك الجواب:

﴿كَلاّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ ، كِراماً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ٨٢/٩-١٢].

وبهذا الجواب يكشف ا لله عن علة الغرور والتقصير، فيقول لهم: كلاّ، انتهوا عما أنتم عليه من الغرور: بل انتهوا أيها الناس عن التكذيب بيوم الحساب، ولاتظنوا أن تكذيبكم ينجيكم من العقاب، فقد جعلنا عليكم رقباء من الملائكة يحفظون جميع أقوالكم وأعمالكم ويكتبونها عليكم لتأخذوا كتابكم يوم القيامة، وقد أُحصِيت أعمالكم عليكم، لتحاسبوا بموجبها. فإن كنتم من الأبرار صرتم إلى النعيم المقيم الذي لاشقاء بعده. وإن كنتم من المكذبين الفجار صرتم إلى الجحيم لتُسَعَّرَ بكم نار جهنم،

فهذه حقيقة يوم الدين: ﴿إِنَّ الأَبْرارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ ، يَصْلَوْنَها يَوْمَ الدِّينِ ، وَما هُمْ عَنْها بِغائِبِينَ﴾ [الانفطار: ٨٢/١٣-١٦].

هذا يوم الحساب، وهذا مصير الأبرار ومصير الفجار بعد الحساب، وكل هذا جعله الله ليحقق مشيئته وعدالته وحكمه بين الناس وهو أحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين، ثم ليبين للإنسان أهم معاني إنسانيته التي يمتاز بها من سائر الكائنات، فهو لم يوجد في هذه الحياة عبثاً، و لم يُترك كمّاً مهملاً كالنفايات والتراب، بل جعله الله مسؤولاً عن أقواله وتصرفاته وأعماله، وأعدّه ليَلْقَى مصيره وجزاءه يوم الدين.

المراحل التربوية لهذا الحوار، كما تبدو في هذه السورة:

يمكن التذكير بالمراحل التربوية التي عرضنا هذه السورة على ضوئها، على النحو التالي:

١ــ في المرحلة الأولى رأينا كيف أعدّ القرآن النفوس إلى تلقّي النداء الرباني والخطاب الإلهي الموجه إلى الإنسان فأيقظ المشاعر ونبّه العقول إلى التفكير في مصير الإنسان ومصير الكون، وإلى الانقلاب الكوني الرهيب الذي ينتظر هذا الكون ليُصارَ بالإنسان إلى كونٍ آخر يليق باليوم الآخر، وينسجم معه.

٢ـ وفي المرحلة الثانية ينادي الحق جلّ جلاله في الإنسان إنسانيَّتَهُ فيفصّل له بعض الميزات التي جعلها فيه، إذْ خلقه في أجمل صورة، وأحسن تقويم، وجعل لبني الإنسان سمعاً وأبصاراً وأفئدة، ليتأملوا خلقهم ومصيرهم إلى الله، ويعاتب الله الإنسان على غروره وتقصيره.

٣ـ وفي المرحلة الثالثة يبين الله للإنسان مصيره إلى الله، ومسؤوليته بين يديه عن جميع أعماله وتصرفاته التي وكّل الله ملائكة حافظين يكتبونها عليه، فأصبح ﴿ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٥٠/١٨]..

حتى إذا حان يوم الدين تفرّد الله بالأمر في ذلك اليوم العصيب.. وفي أثناء توجيه الخطاب الرباني للإنسان وصف الله ذلك اليوم وصفاً بليغاً: ﴿وَما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ، ثُمَّ ما أَدْراكَ ما يَوْمُ الدِّينِ﴾ فسأل عنه وكرر السؤال ليشعرنا بأنّ الأمر أعظم

وأهْوَل من أن يحيط به إدراك البشر، ثم يبيّن الله بعض خصائص ذلك اليوم ﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩/٨٢] وبهذا تُختَتم هذه السورة التي جاءت كل آياتها بهذا الأسلوب الخطابي الموجّه إلى الإنسان لتشعره بمكانته الإنسانية وبمسؤوليته عن إنسانيته أمام خالقه.

مثال آخر على الحوار الخطابي الموجه إلى الإنسان:

وسنرى في هذا المثال شكلاً جديداً من الحوار الخطابي واضحاً في (سورة الانشقاق)، يتميز بالتركيز على لون آخر من إنسانية الإنسان التي خوطب بها لحَفْزه على التحلّي بها.

١ً- ففي مطلع هذه السورة الذي جاء موقظاً للمشاعر، وللعقول والضمائر لإعدادها لتَتَلَقّى هذا النداء الإلهي تبدأ الإشارة إلى هذا اللون من إنسانية الإنسان:

﴿إذا السَّماءُ انْشَقَّتْ ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ ، وَإذا الأَرْضُ مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ ما فِيها وَتَخَلَّتْ ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّها وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٨٤/١-٥].

وقد بدئت هذه السورة -كما رأينا في مطلع سورة الانفطار- بِتَنْبيه العقول والضمائر إلى مشاهد الانقلاب الكوني، كانشقاق السماء، وتمدد الأرض، وقد اقتربت منها الشمس حتى يكاد الناس يهلكون من العَرَق، كلٌّ بحسب ذنوبه كما ثبت في الأحاديث الصحيحة بعد أن ألقت الأرض مافي باطنها من البشر والمعادنِ وتخلّت عنهم، وقد كانت تضمهم وتحرص عليهم.

ولكن الجديد في مطلع هذه السورة هو استسلام السماء والأرض لربهما وخضوعهما لهذا الحقّ الذي أُمِرتا به.

٢ً- وفي هذا الجو الخاشع الطائع الذي يصوّر لنا خضوع الكون كله لله، يجيء النداء العلوي للإنسان وقد عُرض أمامه مشهد الكون، مستسلماً لربه، بسمائه وأرضه، (ياأيها الإنسان) الذي ميّزه الله بخصائص إنسانيته فجعله، بما آتاه من عقل وإدراك وتمييز، أجدر بأن يعرف ربه، وأحق بأن يكون أطوع لأمر ربه من السماء والأرض،

وقد نفخ فيه من روحه، وأوْدعه القدرة على الاتصال به وعلى تلقّي قبسٍ من نوره. ولكنه، سبحانه، جعل استسلام الإنسان لربه مرهوناً بتفكُّره في آلاء الله وبسعيه وعمله ليرضي ربه.. فجعله كادحاً يسعى طول حياته جاهداً: إما ليرضي ربه ويستسلم لأوامر ربه وشريعته مجاهداً شهواته ومطالبه الحيوانية، مخضعاً نزواته لتكون مستسلمة لأمر بها.

وإما كادحاً يسعى في سبيل إرضاء شهواته بالمعاصي وطموحاته المادّية بجمع المال من حلال أو حرام لمجرد الاغتناء والتباهي، والتكاثر، والتفاخر، وإرضاء نزواته في السيطرة والجاه والتعالي على الناس بغير حق، فهذه رحلة الحياة المصحوبة بالكدح والكد يصفها الله إذ يخاطب الإنسان ويبين له مصيره في كلا الحالين:

﴿يا أَيُّها الإنْسانُ إنَّكَ كادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦/٨٤] إنك كادح طول حياتك لاتجد الراحة في هذه الحياة على الأرض، فالكدح حقيقة مستقرة في حياتك ثم النهاية في آخر المطاف إلى الله..

٣ـ أما العاقبة فتختلف عندما تصل إلى ربك ﴿فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ ، فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً ، وَيَنْقَلِبُ إلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾ [الانشقاق: ٧/٨٤ـ٩] فأما من كان كدحه في سبيل إرضاء ربه وتحقيق المنهج الرباني في حياته وإخضاع جميع تصرفاته ونزواته وعلاقاته إلى هذا المنهج، فمصيره إلى نعيم يمسح على آلام الحياة الدنيا وكأنه لم يكن كدْحٌ ولاكدٌّ. فهذا هو المرضيّ السعيد الذي آمن وأحسن فرضي الله عنه وحاسبه حساباً يسيراً لامناقشة فيه، بل يُنْظَر في كتابه فَيُتَجاوز عنه فهذا هو الحساب اليسير الذي يلقاه من يؤتى كتابه بيمينه ثم ينجو ﴿وَيَنْقَلِبُ إلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً﴾.

﴿وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ، وَيَصْلَى سَعِيراً﴾ [الانشقاق: ٨٤/١٠-١٢] فهذا التعيس الذي قضى حياته في الأرض كدحاً، وقضى رحلته إلى ربه كدحاً –ولكن في المعصية والإثم والضلال– يُعطى كتابه من وراء ظهره شأن المُكْرَهِ

الكاره الخَزْيَان من المواجهة. يَلْقَى مصيره فيدعو ثبوراً: ينادي الهلاك، لينقذه من موقف الخزي وموقف الحساب، حتى لِيُصبح الهلاك أقصى أمانيّه، كما قال المتنبّي:

كَفَى بك داءً أنْ تَرى الموت شافياً وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا

فهذا مصير الذي أذهب طيباته في الحياة الدنيا مصحوبة بالمعاصي والآثام واللذات المحرّمة ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾ كان مسروراً غافلاً عن آخرته، وعن حساب ربه، وعن كل ماوراء اللحظة الحاضرة لايحسب لآخرته حساباً، ولايقدم لها زاداً.. إنه ظنّ أن لن يحور: أن لن يرجع إلى بارئه.. ﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيراً﴾ ولكن ربه كان محيطاً به عالماً بحركاته وخطواته، وبأنه صائر إليه، وأنه مجازيه بما كان منه.

تلخيص المراحل التربوية: يمكننا أن نؤكد هذا الأسلوب التربوي الرباني، أسلوب الحوار الخطابي الموجه إلى الإنسان، بتلخيص مراحله التربوية في هذه السورة على النحو التالي:

١ً- التمهيد وتهيئة المشاعر والعقول والضمائر لتَلَقّي النداء الرباني للإنسان، وذلك بوصف حي لبعض مظاهر الانقلاب الكوني الذي سيجعله الله مقدمة ليوم البعث والحساب، وفيه إشارة إلى استسلام السماء والأرض لأمر ربهما إيذاناً للإنسان بأنه أجدر وأحق بهذا الاستسلام لربه وخالقه والاهتداء برسله في الحياة الدنيا وبكتبه..

٢ً- النداء والخطاب الإلهي للإنسان وإشعاره بما خُلق له من الكدّ والكدح في سبيل إرضاء ربه والعمل بشريعته، وأنَّ حياته على الأرض ليست للعبث والتسلية.

٣ً- ذكر مصير الإنسان وعاقبته بعد هذا الكدح الشاق الطويل المتواصل فإما إلى نعيم أبديّ، وإما إلى شقاء أبدي. وذلك ليختار الإنسان لنفسه طريق الخير المؤدي إلى سعادته ومرضاة ربه، وليبتعد عن طريق الشر الموصل إلى الجحيم والشقاء...

ز- الشكل السابع من أشكال الحوار الخطابي:

الحوار الموجه إلى بني آدم:

مثال وتمهيد: خص الله بني آدم بنداءات أربعة في سورة الأعراف، للتحذير من أساليب الشيطان، ومداخله، وقد جاءت هذه النداءات بعد ذكر قصة آدم مع إبليس:

إذ أمر ا لله الملائكة أن يسجدوا لآدم، فرفض إبليس أمر ربه وغضب ا لله عليه، وأخرجه من الجنة، وأغْوَى إبليس آدم وزوجه فأهبطهم ا لله جميعاً من السماء، إلى الأرض، تلك القصة التي تبين لنا عداوة إبليس لبني آدم وكيده لهم، أبد الدهر حتى يدخلهم معه إلى جهنم حين يرث ا لله الأرض ومن عليها...

أَ– النداء الأول: جاء هذا النداء الأول من الرحمن لبني آدم ليُبين لهم فضل ا لله عليهم أن علّمهم ويسّر لهم وشرع لهم اللباس الذي يستر العورات المكشوفة ثم يكون زينةً لهم وجمالاً: ﴿يا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنا عَلَيْكُمْ لِباساً يُوارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِباسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آياتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦/٧]. وقد بين هذا النداء فضل ا لله على بني آدم من وجهين: فهو الذي يسّر وأوجد لهم اللباس الذي يستر سوءاتهم، وهو سبحانه بشرائعه وأنبيائه دلّهم على لباس التقوى. فهذان الأمران كلاهما لباس: فالتقوى لباس معنوي يستر عورات القلب ويمنع المؤمن من إتيان الفاحشة بما يُودِع الضمير والقلب من مخافة ا لله والحياء منه، فيصبح المجتمع المؤمن نظيفاً من العيوب ومن أسباب التمزق والتفسّخ والشقاق. ووسيلة مادية ستر الجسد حياءً من ا لله، لا لمجرد إتيان عمل اصطلح عليه الناس فأصبح عرفاً، كما تزعم أبواق الدعارة والإباحية المسلّطة على الناس لسلخهم من العفة والحياء، ولتدمير إنسانيتهم وفق الخطة اليهودية البشعة التي تضمنتها مقررات حكماء صهيون..!

فهذا الخطاب الرباني لبني آدم يذكّرهم بنعمة ا لله عليهم في تشريع اللباس والستر، صيانة لإنسانيتهم، لئلا ينحطّوا إلى مستوى البهائم، وفي تمكينهم منه بمايسر لهم من وسائل النسج، وبما خلق من أوبار الحيوانات، وأنبت لهم من القطن والكتان ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فضل ا لله.

بَ– النداء الثاني: ثم يأتي النداء الثاني لبني آدم يُحذّرهم من فتنة الشيطان وإغوائه، كما وسوس لأبيهم آدم وأمهم حواء فأخرجهم من الجنة بإغوائه لهما ليعصيا ربهما: ﴿يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما

لِباسَهُما لِيُرِيَهُما سَوْآتِهِما إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٧].

ولم يجئ هذا التحذير الرباني بهذا النداء إلا بعد ظهور الحاجة إليه في واقع الحياة التي كان يعيشها العرب الجاهليون في عصر الرسالة، كما عودتنا الحكمة الإلهية التربوية: أن تجيء الأحكام علاجاً لمشكلات واقعية يعيشها المجتمع آنذاك، ليكون وقعها في النفوس أبلغ وليكون الناس متعطشين إليها، وهذا ماكان.

قال مجاهد[١]: ((كان المشركون يطوفون بالبيت عراة يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على قُبُلها النِّسعة[٢] أو الشيءَ، وتقول:

اليوم يبدو بعضُه أو كلُّه فما بدا منه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله: ﴿وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها﴾ وردّ الله عليهم ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ؟﴾ [الأعراف: ٧/٢٨].

قال ابن كثير[٣] بعد أن ساق هذا الأثر عن مجاهد قال: ((قلت: كانت العرب –ماعدا قريشاً– لايطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها يَتأَوَّلون في ذلك أنهم لايطوفون في ثياب عَصَوُا الله فيها. وكانت قريش... –وهم الحُمْس[٤]– يطوفون في ثيابهم. ومن أعاره (أحْمِسِيٌّ) ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلايتملّكه أحد، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أنّ فِعْلَ آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله عليهم ذلك..)).

وجاء الإنكار بعد هذا النداء والخطاب الإلهي الموجه إلى بني آدم، ليعم بني آدم أجمعين ولئلاّ يتقوّل أحد على الله ما لم يقل، ولاينْسُبَ إلى الله أو رسوله ما لم يثبت عنه

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢١٧.

(٢) النِّسع: بالكسر: سَيْر يُنْسَج عريضاً على هيئة أعِنَّة النعال والقطعة منه (نِسعة) القاموس المحيط.

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٢١٧.

(٤) الأحْمَس الشديد الصلب في الدين (مختار الصحاح) والجمع حُمْس على وزن (أخضر) و(خُضْر)، (أو هو الشجاع) قاموس.

بالسند الصحيح، وليحذرهم من أن يستسلموا للشيطان وللأهواء فيما يتخذون لأنفسهم من مناهج وشرائع وتقاليد، فيُسْلِمَهم إلى الفتنة، كما فعل مع أبويهم من قبل، فالعُريُ والتكشّف هو طابع كل جاهلية، وهو عمل من أعمال الفتنة الشيطانية ﴿يا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطانُ كَما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُما لِباسَهُما﴾ [الأعراف: ٢٧/٧]. ثم يخبرهم الله أن الشيطان يراهم هو وقبيله من حيث لايرونهم، يخبرهم بذلك زيادة في التحذير، ليعلموا أن الشيطان أقدر على فتنتهم، وهو في الخفاء، بوسائله الخفيّة: ﴿إِنَّهُ يَراكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

وهذه حقيقة أخرى يخبر الله بها بني آدم: أنّ الشيطان ولي الذي لايؤمنون كما أن الله هو ولي الذين آمنوا، ويعرض الله علينا نموذجاً عما ينتج عن ولاية الشيطان للذين لايؤمنون وعن تولّيهم إياه؛وذلك بتوليته أمر التشريع لهم وطاعته في ذلك: ﴿وَإِذا فَعَلُوا فاحِشَةً قالُوا وَجَدْنا عَلَيْها آباءَنا وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها﴾ [الأعراف: ٢٨/٧] وهذا ماكان يفعله المشركون نتيجةً لتولّيهم الشيطان؛ إذْ إنه كان يغريهم بأن هذه الفاحشة التي يُزَيِّنها لهم هي من أمر الله، ولو لم تكن كذلك لما كان آباؤهم يفعلونها!!

ولكن القرآن يردّ عليهم بقاعدة عامة معروفة عن الله –جل جلاله ـ:

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ﴾ ثم ينكر عليهم قبول هذه المقولة عن الله من غير سند أو علم أو دليل ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ؟﴾ [الأعراف: ٢٨/٧] ثم يبين لهم مايأمر الله به من العدل والاعتدال في الأمور كلها مما يتنافى مع دعواهم، بأنه يأمر بالفحشاء، مع أمره لهم بالدينونة له تعالى دينونةً كاملةً خالصةً، وبالعبودية الكاملة لله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩/٧].

وكذلك يتنافى أمره تعالى بالقسط والاعتدال في كل شيء، مع الشرك الذي يزاولونه بخضوعهم لازدواج مصادر التشريع لحياتهم ونسكهم وعبادتهم...

وبهذا الخطاب لبني آدم يُبَيِّن ا لله لهم مصيرهم ومعادهم إلى خالقهم، فهو الذي يعيد خلقهم، كما أنه هو الذي بدأ خلقهم ﴿كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّياطِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٢٩-٣٠].

وفي هذه الآية يعرض ا لله مشهد عودتهم إليه يوم القيامة، وهم فريقان: الفريق الذي هداه ا لله ودلّه على طريق الحقّ فاهتدى، والفريق الذي أَبَى الهداية، واتّبع طريق الشّيطان... فالفريق المهتدي يعودون مع أبيهم آدم وقد ﴿ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ [طه: ٢٠/١٢٢] يعودون معه ناجين، إلى رضوان ا لله وجناته. والفريق الذين اتبعوا الشيطان وعَصَوا ربهم سيعودون مع إبليس وقبيله إلى جهنم، إلى لعنة ا لله وغضبه وعذابه... مع الشياطين الذين اتخذوهم أولياء من دون ا لله وهم يظنون أنهم مهتدون... وهكذا يعودون فريقين، كما بدؤوا رحلتهم من السماء إلى الأرض إلى الحياة الدنيا فريقين: فريق آدم وزوجه وقد تاب ا لله عليهما، وفريق إبليس وقبيله وقد باؤوا بغضب ا لله ولعنته إلى يوم الدين وأعلنوا عداءهم وإغواءهم لبني آدم أجمعين، إلا عباد ا لله المخلصين.

جـ- النداء الثالث: ثم يأتي النداء والخطاب الرباني الثالث لبني آدم ليبين ا لله لهم حكمه وشريعته فيما يحاول الشيطان إغواءهم وفتنتهم فيه من نزع ثيابهم وتعرية أجسادهم في بيت ا لله الحرام وهم يطوفون حول الكعبة. ولكن حكم ا لله يأتي كاملاً شاملاً لكل مسجد يريد الإنسان دخوله ولكل عبادة يريد المؤمن أن يقوم بها: ﴿يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٣١].

وبهذا الخطاب الرباني يأمر ا لله بني آدم أن يأخذوا زينتهم من اللباس الذي أنزله ا لله ليواري سوءاتهم عند كل عبادة. وخاصة عند الطواف حيث ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنّاسِ﴾ [المائدة: ٥/٩٧] يقومون فيه بعبادة ا لله آمنين على أنفسهم من كل أذى، وقد حرم ا لله فيه القتال والقتل، حتى لو لَقِيَ الرجلُ قاتل أبيه في بيت ا لله

الحرام في الشهر الحرام، لم يعرِضْ له، و لم يَقْرَبْه، فكيف تُنْتَهَكُ حرمات الأخلاق والأعراض بالتَعرِّي وهتك الأستار؟! وكان الرجل إذا أراد البيت الحرام تَقَلَّد قلادة من شعر، فَحَمَتْهُ ومنعته من الناس[١] في طريقه إلى بيت الله، وكان إذا نفر للسفر قاصداً بيت الله الحرام أو عائداً تقلّد قلادة من الإذْخِر[٢] أو من السّمُر[٣] فتمنعه[٤] من الناس، فجعل الله من البيت الحرام والشهر الحرام حواجز[٥] (تقوم) في ضمير كل عربي في جاهليته وفي قلب كل مسلم، فتحول دون التعرض بالقتل أو إرادة القتل لأي إنسان يدخل الحرم أو يقصد البيت الحرام، وكذلك جعل الله أمْره باللباس والزينة عند كل مسجد أو عبادة، قواماً وحاجزاً لصون الفطرة والحياء والإنسانية من الفواحش التي تنتج عن التعرّي...

ويأتي التعقيب على هذا الخطاب أو النداء الرباني الثالث الموجّه إلى بني آدم، يأتي في حوار يستنكر الله تعالى فيه على من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده، زينة اللباس الذي يجّمل الإنسان ويستر سوأته ويحفظه من الإثم، ومن حرّم على الناس الطيبات من الرزق كما كان مشركو قريش يفعلون: يحرّمون على باقي العرب أن يطوفوا حول الكعبة بثيابهم، إلا إذا كان الثوب جديداً يُلبس لأول مرة، أو كان مستعاراً من عند قريش[٦] ، وكانوا يقولون: (نحن أهل الحرم فلاينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا بثيابنا، ولايأكل، إذا دخل أرضنا، إلا من طعامنا)[٧] .

---

(١) فتح القدير ٢/٨٠، الناشر مكتبة المعارف بالرياض.

(٢) (الإِذْخِر) نَبْتٌ. الواحدة (إذخِرَة) مختار الصحاح

(٣) (السَّمُرَة) بضم الميم الواحدة: من شجر الطَلْح والجمع (سَمُر) مختار الصحاح.

(٤) فتح القدير ٢/٨٠.

(٥) فتح القدير ٢/٨٠.

(٦) الظلال ٣/١٢٨٢ وقد عزاه إلى صحيح مسلم عن هشام عن عروة عن أبيه، وفي صحيح مسلم: حدثنا هشام عن أبيه قال: ((كانت العرب تطوف بالبيت عراة إلا الحُمْسَ والحُمْسُ قريش وماولدت، كانوا يطوفون عراة، إلا أن تعطيهم الحُمْسُ ثياباً فيعطي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ..)) صحيح مسلم ٤/٤٣، ط. نظارة المعارف الجليلة، دار الطباعة العامرة إستانبول ١٣٣١هـ.

(٧) سيد قطب المرجع السابق.

على هذه التصرفات الجاهلية يأتي الاستنكار من الله تعالى بعد الخطاب الثالث الموجه إلى بني آدم.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ؟﴾ [الأعراف: ٣٢/٧] بهذا الاستنكار يحرم الله على أيٍّ كان أن يحرم -برأيه- ماأخرج الله للناس من الزينة أو من الطيبات. فتحريم شيء، أو تحليله لايكون إلاّ بشرع من الله.

ثم يتابع الحوار فيقرر الله تعالى لبني آدم -بعد هذا الاستنكار- أنّ هذه الزينة من اللباس، وهذه الطيبات من الرزق، هي حق للذين آمنوا بربهم الذي أخرجها لهم. وإذا كان غيرهم من الملحدين والمشركين يشاركهم فيها في هذه الدنيا، فهي خالصة لهم يوم القيامة لايشاركهم فيها أحد من أولئك الكفرة:

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا خالِصَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٢/٧] فالذين (يعلمون) حقيقة هذا الدّين وأنه من عند الله هم الذين ينتفعون بتفصيل أحكامه بهذه الآيات. ويتابع الحوار فيكرّر الله استنكاره على المشركين أعمالهم بأسلوب تعريضي يعرّض بهم ليقول لهم: إن الفواحش التي يعملونها - كالتعرّي في بيت الله الحرام- والآثام التي يرتكبونها، والبغي على عباد الله من القبائل الأخرى هي من الأمور التي حرمها الله. ويأتي هذا التعريض تشريعاً لقاعدة ربانية عامة تضع تعريفاً للحرام: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣/٧].

هذا هو الذي حرّمه الله: الفواحش من الأعمال المتجاوزة لحدود الله ماظهر وماخفي منها، والإثم، وهو كل معصية لله على وجه الإجمال. والبغي: الظلم الذي يخالف الحق والْعَدْلَ. وإشراك أحد مع الله في خاصة من خصائص الله، كإشراك غير الله ليشرّع للناس، ثم طاعته فيما يشرّعه من دون الله، وأن ينسب أحد إلى الله ما لم يقله وهو لايعلم لذلك دليلاً ولاسنداً... كالذي يقولونه من التحليل والتحريم ثم ينسبونه إلى الله.

المراحل التربوية: وبعد فهذا مثال واضح للحوار الرباني لبني آدم يمكن تحليله تربوياً إلى عناصره ومراحله التربوية:

١ً- فالمرحلة الأولى تبدأ في الآيات التي تقص عليهم قصة أبيهم آدم مع إبليس -وقد لخصناها- وهي الآيات (١١-٢٥) من السورة، وقد جاءت تمهيداً ومقدمة لهذا الخطاب تهيئ النفوس لقبوله..

٢ً- ثم يبدأ الخطاب أو النداء الأول يذكر للناس فضل الله عليهم، بما يسّر لهم من اللباس يستر عوراتهم، ويذكّرهم بأن لباس التقوى هو أصل كل عفّة وفضيلة، وهو الدافع الذي يدفع الإنسان لحفظ كرامته وإنسانيته بالتعفف عن الفواحش خوفاً من الله واتقاءً لغضبه..

٣ً- ويأتي النداء أو الخطاب الثاني يحذر الناس من غواية إبليس الشيطان الذي أغوى أباهم آدم، وأعلن عداوته وإغواءه لبني آدم إلى يوم الدين، وينطوي هذا الخطاب على حوار مع المشركين، وهم من بني آدم الذين أطاعوا الشيطان فيأمر الله نبيه أن يجيبهم على افترائهم على الله، ويبين لهم أن الله لايأمر بما يأمرهم به الشيطان من الفحشاء، وينكر عليهم أن يقولوا على الله مالايعلمون له سنداً، ثم يأمره أن يبين لهم مايأمر الله به من القسط والعدل وإخلاص الخضوع لله تعالى... ثم يخاطبهم الله تعالى مذكّراً إياهم بأنه سيحشرهم إليه كما خلقهم أول مرة ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ..﴾ فهذه محاورات ثلاث تفرعت عن الخطاب الرباني الثاني لبني آدم.

٤ً- ثم يأتي النداء أو الخطاب الرباني الثالث لبني آدم ليبين حكم الله في الموضوع ويأمر باللباس والزينة وستر العورات عند كل عبادة أو مسجد، وينطوي هذا الخطاب أيضاً على حوار يأمر الله به نبيه ليسألهم عمن حرّم الزينة واللباس والطيبات ثم يأمره أن يبيّن فضل الله إذْ جعل هذه الطيبات، لعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة وحرمها في الآخرة على المعاندين لشريعة الله المخالفين لها، ويأمره أخيراً أن يبين ماحرمه الله. فهذه حوارات ثلاثة تتفرع عن الخطاب الرباني لبني آدم، زيادة في الإيضاح والتحذير والبيان.. وقد بُدئ كل حوار بالأمر الإلهي للنبي ﷺ أن يحاور هؤلاء المشركين حينما

بُدئ بـ (قل): إما ليرد باطلهم الذي افتروه ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ؟﴾.

وإما ليبين لهم الحق فيما ادّعوا من الكذب على الله ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ وجاء رد باطلهم في الحوار الملحق بالنداء الثالث ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبادِهِ وَالطَّيِّباتِ..﴾. ثم جاء بيان الحق ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.

دَ- النداء الرابع في الحوار الخطابي الموجه إلى بني آدم:

وهو النداء الذي يبين لبني آدم دستور الحياة على هذه الأرض التي استخلفهم الله فيها لينظر كيف يعملون؟.. وإنه الدستور الذي يحدد الجهة التي يتلقون منها تشريع الله ومنهاجه الذي سنه لتنظيم حياتهم وعلاقتهم بربهم الذي خلقهم، وسخر لهم مافي الأرض جميعاً، وعلاقاتهم بعضهم ببعض. وبأمور الحياة وزينتها وماجعل الله فيها من المتعة واللباس والطيبات من الرزق.

وهذه الجهة هي جهة الرسل المبلغين عن ربهم... ثم يحدد الله مصير بني آدم على أساس الاستجابة أو عدم الاستجابة لرسله..، وعلى أساس تقوى الله ﴿يا بَنِي آدَمَ إِمّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آياتِي فَمَنِ اتَّقى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولَئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [الأعراف: ٧/٣٥-٣٦].

ففي هذا الخطاب الرّباني لبني آدم؛ يبين الله عهده لهم وشرطه في استخلافهم على أرضه التي خلقها وقدّر فيها أقواتها وبارك فيها وجعلها ملائمة لحياتهم، مذلّلةً لهم يستمتعون بطيباتها وأرزاقها، وقد بيّن لهم عهده، ليؤدوا أمانة الله التي استأمنهم عليها حين جعلهم خلفاء على الأرض وفق هذا العهد وذلك الشرط..

لقد أخذ عليهم الله عهده: أن يتقوه ويصلحوا أمورهم وحياتهم وفق ماينزله على رسله من تشريع ويطيعوا أوامره.. ثم يأتي يو م الحساب... فمن اتقى غضب الله

بطاعته، وأصلح حياته وفق شريعة ا لله وابتغاء مرضاته، فهؤلاء في كنف ا لله وولايته يؤيدهم بنصره في الدنيا، ويلقون وجه ربهم وهو راض عنهم يوم القيامة، ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون، بل يفوزون برضوان ا لله وجناته، لهم فيها نعيم مقيم...

ومن كذّب رسل ا لله وكفر بآيات ا لله واستكبر عن قبولها والعمل بها فمصيره يوم القيامة إلى غضب ا لله وعذابه الذي يحيق بالمكذبين المستكبرين وهو من أصحاب النار، وجميع أعماله في الدنيا مردودة عليه، وتصبح يوم القيامة وِزْراً عليه؛ لأنه لم يؤمن با لله، ولم يقصد بعمله إرضاء ا لله، ولم يكن عمله موافقاً لشريعة ا لله، فلايقبل ا لله منه صرفاً، فيصرف عنه العذاب، ولاعدلاً يَعدِل عصيانه لرسل ا لله واستكباره عن قبول آيات ا لله والعمل بها، فينجيه أو يُقبل منه عوضاً عن العذاب والعقاب.

التحليل التربوي: يمكننا تحليل المراحل التربوية لهذا النداء الرباني لبني آدم كما يلي:

١ـ يبدأ التمهيد لهذا الأسلوب التربوي الخطابي الرباني من الآية السابقة لهذا النداء الرابع الموجه إلى بني آدم، والّذي أوضحنا معانيه ومغزاه في الصفحة الماضية.

فقوله تعالى في الآية المشار إليها: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يدل على أن ا لله قدّر أعمار الأمم والأجيال حتى إنها ﴿ما تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَها وَما يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الحجر: ١٥/٥ والمؤمنون: ٤٣/٢٣] وهذا يبعث الإنسان على التفكير، فَيَتَساءَلُ عن مهمته في هذه الحياة المحدودة بأجل مقدّر من ا لله، ولماذا خُلِق وقُدِّر أجله؟.

٢ـ ويجيء النداء الرباني لبني آدم يبين لهم مهمة الإنسان وسرّ وجوده في هذه الحياة، وأن ا لله أوجده ومدّ له في عمره حتى تبلُغَه رسالة رسل ا لله، ويختبر ا لله موقفه من أوامره وتشريعه وكتبه ورسله.

٣ـ ثم يبين ا لله مصير الإنسان يوم القيامة تَبَعاً لاستجابته لرسل ا لله، ومدى تحقيقه لأوامر ربه ولتشريعه، فلم يُقدِّر ا لله آجال الأمم والأجيال عبثاً، تعالى ا لله عن ذلك.. ولكن ليبْلُوَهم ويختبرهم، ثم ليحاسبهم على أعمالهم وَنِيّاتهم وماكسبت أيديهم...

فذاك هو التمهيد، وهذا هو الخطاب، وهذا هو الجواب، وهذه مراحل هـذا الحـوار الخطابي في هذه الآية. وكأنّ المولى عز وجل يقول لنا: (يابني آدم، أنتم مكلّفون بامتحان إلى أجل مقدّر). وكأنّ البشر يقولون: (وماهذا الامتحان يارب؟) ويجيبهم المولى بما معناه (لقد كلفتكم بهذا الامتحان بما أرسلت به إليكم رسلي... وكلفتكم بأوامري وبتشريعي وعبادتي... والنتائج يوم القيامة: فإما ثواب ونعيم، وإما عقاب وجحيم، وعليكم أن تحسموا أمركم في هذه الدنيا).

ح- الشكل الثامن من أشكال الحوار الخطابي:

الخطاب الموجّه من الله إلى عباده:

هذا الشكل من أشكال الحوار مخصص -في أكثر مواطن وروده- لعباد الله المؤمنين، وفيه التفاتة خاصة من الله تعالى إلى الذين أخلصوا عبوديتهم لربهم فأطاعوه في كل أمورهم وأطاعوا جميع أوامره رغبةً وخضوعاً. فعباد الله هم الذين وصفهم الله بقوله: ﴿وَيَدْعُونَنا رَغَباً وَرَهَباً﴾ [الأنبياء: ٢١/٩٠] والذين أخلصوا عبوديتهم له دون سواه، وفي هذه الالتفاتة بنسبة العباد إليه تعالى، تنبيه من الله، عز وجل، على أهمية مقام العبودية، ليقصد المؤمنون إليها، وليتحلّوا بخصائصها، فقد خص الله بها نبيه محمداً ﷺ ﴿سُبْحانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١٧/١] حتى أصبحت ملازمة له ﷺ في الصلاة عليه وفي التشهد الدال على الدخول في الإسلام، وحتى صارت مميِّزة له ولأمته عند مدحه، ﷺ، تميّزهم عن صنيع النّصارى بأنبيائهم ذلك الذّي أدّى بهم إلى الشرك: ((لاتُطْرُوني كما أَطْرتِ النّصارى ابنَ مَرْيَمَ فإنّما أنا عبدُهُ، فقولوا: عبد الله ورسوله))[1].

وإليك بعض الأمثلة من القرآن على هذا الشكل من الحوار:

أ- **الخطاب الموجه للأمر بتقوى الله:** ﴿قُلْ يا عِبادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [الزمر: ٣٩/١٠] يأمر الله نبيه أن يبلّغ عباده تعالى بهذا النداء، هذا البلاغ الذي

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ٤٩ (حديث رقم ٣٢٦١) ط. دار اليمامة، دار ابن كثير - دمشق.

يأمرهم بتقوى الله، أي باتقاء غضبه عليهم إذا لم يحققوا عبوديتهم لـه سبحانه، ويبين لهم المولى ثواب الذين أحسنوا عبادتهم وطاعتهم لله وحده، وأنّ هذا الثواب يكون في الدنيا بإحيائهم حياة طيبة حسنة ملؤها الأمن والسعادة وراحة الضمير والسلام، وبإجزال ثوابه لهم في الآخرة في جنات النعيم الخالد المقيم.

ثم يشير إلى سعة أرض الله أمامهم إذا كان بقاؤهم في أرضهم يمنعهم من توحيد الله وتحقيق عقيدتهم وإقامة شرع الله فيما بينهم، يرغّبهم بالهجرة إلى دار الإسلام إن كانوا يعيشون في دار الكفر عيشة تمنعهم من إقامة دينهم، ثم يشير إلى ثواب الصبر على مشقّات الهجرة وترك الأوطان والأقرباء في سبيل الله. ويَعِدُ الصابرين بالعوض عن الوطن والأهل عطاءً من عنده بغير حساب! ﴿إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.

بَ- الخطاب الموجه إلى العباد المذنبين ليفتح لهم مجالات الرحمة والمغفرة على مصراعيها أمام كل مذنب أسرف في ذنبه. إنها الرحمة الواسعة التي تسع كل معصية وتسع الذنوب مهما كثرت إذا تاب مرتكبها إلى الله توبة نصوحاً، وأسلم وجهه لله: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣/٣٩].

إنها الدعوة للأوْبة والرجعة إلى الله! دعوة العصاة المسرفين الشاردين إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله مادام مرجعهم إلى عبودية الله وطاعته، ولاملجأ من الله إلاّ إليه. فلماذا لايُقْلعون عن الذنوب ويتوبون إلى الله؟ لقد علم الله مارُكّب في كيان هذا الإنسان من نزوات وميول وشهوات، قد ينحرف بسببها عن صراط الله فيقع في المعصية، فأمدّ له في العون على كل هذا ووسّع له في الرحمة، ولم يأخذه بمعصيته قبل أن يهيّئ له جميع الوسائل، ويفتح أمامه كل المجالات ليصلح خطأه، ولو بلغ به الإسراف في الذنب حدّ اليأس والقنوط. فقد أراد الله بحكمته ورحمته أن ينتشل عبده، ويأخذ بيده لينقذه من هذا اليأس والقنوط. وليس عليه إلاّ الإنابة والاستسلام إلى الله بينه وبين الله، بلاطقوس ولامراسم ولاحواجز ولاوسطاء.

فهيّا ياعباد الله المذنبين. هذا نداء الله يدعوكم، قبل فوات الأوان، قبل أن يحين الأجل ويأتي الموت، وعذاب ملائكة الموت ثم عذاب البرزخ ثم عذاب جهنم، ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ [الزمر: ٣٩/٥٤].

جـ- الخطاب الذي يميز الله فيه عباده المتقين ببقاء المودة بينهم يوم القيامة، سنرى في هذا المثال كيف **يميز الله عباده المؤمنين الموحدين** يوم يحشر الناس جميعاً ليعذب الكافرين المشركين الجاحدين الذين أنكروا عظمة الله وفضْلَهُ عليهم فجعلوا له أنداداً وشركاء يعبدونهم من دون الله، فيخاطب عباده المتقين الذين كانوا في الدنيا يتقون غضب ربهم، ويؤمنون برسوله وينزّهونه عن كل شرك وعن كل نقص، فيخصّهم بالأمن والنعيم، ويلقي بالمشركين المجرمين إلى الجحيم، وإليك الآيات التي تعرض لنا الأمر منذ أن أرسل الله نبيه عيسى يدعو الناس إلى توحيد ربهم، إلى أن يُحشَر الناس يوم القيامة لِيَلْقَى كل إنسان جزاء عمله:

﴿وَلَمَّا جاءَ عِيسَى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ من شريعة موسى عليه السلام ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُون ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ، فَاخْتَلَفَ الأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ، هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ السّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ، الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٦٣-٦٧].

وهكذا اختلفت الأحزاب باختلاف موقفهم واستجابتهم لرسل الله، فاختلف مصيرهم يوم القيامة: ذلك اليوم العظيم ذا العذاب الأليم! فالأخلاّءُ الذين جمعتهم الشهوات المحرمة في الدنيا واجتمعوا على الباطل والنفاق والشر والضلال يصبحون يوم القيامة أعداءً يُلْقِي بعضهم على بعض تبعة الضلال وعاقبة الشر الذي ذاقوا بسببه أشد العذاب، ﴿إلاّ المتقين﴾؛ فهؤلاء مودّتهم باقية، فقد كان اجتماعهم في الدنيا على الهدى وتناصحهم على الخير فاجتمعوا في الآخرة في جنات النعيم، ونجوا من العذاب الأليم.. وجاءهم النداء العلوي الكريم من رب العباد:

﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٦٨] وإذا سألت يأخي القارئ من هؤلاء الذين استحقّوا هذا النداء العطوف من رب العالمين في ذلك الموقف الرهيب؟ يأتيك تعريفهم في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٦٩] الذين صدقوا رسلهم وآمنوا با لله واليوم الآخر، وكانوا مستسلمين لأوامر ا لله ومنهجه يتبعونها ويطبقونها في سلوكهم وعلاقاتهم الاجتماعية، فهؤلاء هم الذين خاطبهم ا لله مُطَمْئِناً مُبَشِّراً ﴿يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ اطمئنوا فلاخوف عليكم بل ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧٠] (تُحْبَرون) أي تسرون، ويدخلهم ا لله الجنة، فإذا بصحاف الذهب الملأى بأشهى الطعام وأكواب الذهب والفضة يطاف بها عليهم في الجنة وفيها ألذ الشراب فيزول مابهم من ظمأ ونَصَب كانوا يلاقونه في ذلك الموقف الرهيب: ﴿يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧١] وليست هذه الملذات مؤقتة أو زائلة يُخشى نفادها كما في الدنيا بل هي دائمة، وهم فيها خالدون تكريماً من ا لله بهذا الوعد بالخلود وبهذه الجنة التي استحقها عباد ا لله المكرمون، بما كانوا يعملون في الدنيا من طاعة ا لله والصبر والجهاد في سبيله.. ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٣/٧٢-٧٣] فهذا نداء ا لله لعباده المتقين يوم القيامة إنه نداء تكريم، ووعد صادق بجنات النعيم، فهو لهم في الدنيا وعْد ونداء، وفي الآخرة خطاب وحوار وتكريم وتنعيم، ليعملوا ويصبروا في الدنيا ولينعموا في الآخرة وينالوا جزاء عملهم وصبرهم وسعيهم الطيّب الحميد..

دَ- المثال الرابع: الخطاب الموجه إلى جميع العباد:

تمهيد: سنرى في هذا المثال كيف يوجّه ا لله خطابه إلى جميع عباده: المسلمين منهم والكافرين... ولاعجب فكلهم عباد ا لله تجري عليهم أحكامه ونواميسه الكونية من موت وحياة ومرض، وليل ونهار، وتهطل عليهم الأمطار، وتحيط بهم البحار، ويفترشون الأرض، ويلتحفون السماء، ويستنشقون ماجعل لهم في غلاف الأرض

الجوي من هواء، ويأكلون من رزق ا لله.. وماداموا كذلك ينعمون بما خلق ا لله لهم في الأرض وماحولها من وسائل العيش وأسباب الحياة، ويخضعون لنواميس الكون المحيطة بهم وبأرضهم كما أرادها وقدرها ا لله، فلماذا يجحدون فضل ا لله ويرفضون أن يعترفوا بألوهيته وأن يخلصوا له الدين والعبادة؟؟ ولقد جرّب معهم القرآن أسلوب البرهان[١] -كما اقْتبستُ منه في مقدمة هذا المثال- مراراً عديدة ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النّاسِ إلاّ كُفُوراً﴾ [الإسراء: ٨٩/١٧]. وهذا قبس من أسلوب آخر نعرضه هنا مع هذا الأسلوب التربوي (الخطاب والنداء من ا لله إلى عباده) في هذا البيان القرآني، الذي يبدأ بأمر من ا لله لنبيه ﷺ؛ أن يعلن ماأمره ا لله به: أن يعبد ا لله وحده، ليكون أول المسلمين، وأن يخاف عذاب يوم عظيم إن هو عصى ربه.. وفي هذا المنعطف يعرض علينا القرآن خسارة الكافرين يوم القيامة ويصور لنا عذابهم..، ثم يأتي نداء ا لله لعباده جميعاً يخوّفهم عقابه ليتّقوه، وليجتنبوا عبادة الطاغوت، وإليك هذا البيان من أوله: ﴿قُلْ إنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ ، وَأُمِرْتُ لأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ، قُلْ إنِّي أَخافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، قُلِ اللّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي ، فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ ، لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ **ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ**﴾ [الزمر: ٣٩/١١-١٦].

التحليل التربوي: بعد هذا التمهيد والعرض السريع يمكننا تحليل هذا الأسلوب التربوي في هذا المثال إلى عناصره ومراحله التربوية على النحو التالي:

١ـ التمهيد: وقد مُهِّدَ لهذا الأسلوب الخطابي الرباني بتوجيه الرسول، ﷺ، إلى أن يعلن للناس أجمعين ماأُمر به من توحيد ا لله بالعبادة، ويعلن خوفه من عذاب ا لله إن انحرف عن توحيده. وهذا أسلوب خطابيّ حواري مزدوج فهو حوار على صورة أمر من ا لله إلى نبيه،ﷺ ؛ ثم هو حوار بين النبي، ﷺ، وبين الذين يدعوهم إلى توحيد ا لله ليبين لهم أنه لايريد أن يتفضل عليهم وأنه مأمور مثلهم بعبادة ا لله... ثم يستمر هذا

---

(١) بسطنا هذا في الحوار البرهاني، وفي الفقر (دَ) من أهداف الحوار الخطابي الموجه إلى الناس.

الحوار المزدوج في الآية الثانية من هذا المثال، ليخبر النبي، ﷺ، الذين يحاورهم ويدعوهم إلى ا لله بأنه ممتثلٌ أمرَ رَبّهِ، يقوم بعبادته مخلصاً موحِّداً، فإذا انحرفوا عن توحيد ا لله فهم الخاسرون. وهنا يبيّن لهم مدى خسارتهم المزدوجة يوم القيامة: خسارتهم في أنفسهم إذ يزجّون بها إلى الجحيم، وخسرانهم لأهليهم كذلك إن كانوا مثلهم كافرين، أمّا إن كانوا مؤمنين فقد خسروهم بفراقهم فأصبحوا فريقين ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٤٢/٧] ﴿أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ٣٩/١٥].

٢ً- ويأتي التمهيد الثاني ليبين الأمر الذي هو موضوع النداء الرباني من ا لله للعباد فيصف ذلك المشهد الرهيب: مشهد النار في هيئة ظُلَل تغشى الذين عصوا أمر ربهم وأشركوا به في الدنيا، ظُلل من فوقهم وظُلَل من تحتهم، وهم في طيات هذه الظلل المعتمة التي تلفّهم وتحتويهم وهي من النار ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ثم يصرح ا لله بتربيته الوجدانية لعباده، وهي من التقوى فيدعوهم إلى أن يخاف العباد عذا ب ربهم وعقابه.

٣ً- ويأتي النداء أخيراً مقروناً بطلب التقوى ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ﴾ ذلك الوصف للعذاب جاء لتربية العباد بتخويفهم ﴿يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾ ومع ذلك فإنه تعالى يناديهم ليحذَروا بطشه وليتّقوه ويُسْلِموا له من قبل أن يأتيهم العذاب فهذه ميزة الحوار الرباني لايخلو من طابع الرحمة وإرادة الخير للعباد وإن جاء للتخويف..

ط- الشكل التاسع من أشكال الحوار الخطابي: الحوار الخطابي التعريضي: وهو الموجه من ا لله إلى النبي ﷺ أو من النبي ﷺ، ويُقْصَدُ به غير ظاهره كتوجيه النقد إلى المشركين أو توجيه النقد النبوي إلى قوم يعملون عملاً يكرهه ا لله....

المعنى اللغوي للتعريض. التعريض في اللغة[1] ضدّ التصريح: يقال عَرَّض لِفُلان وَبِفُلان إذا قال قولاً وهو يعنيه. ومنه المعاريض في الكلام وهي التورية بالشيء عن الشيءً. وفي المَثَل (إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب) أي سعة، ونعني هنا بالحوار

(١) مختار الصحاح لأبي بكر الرازي ط. دار الحكمة ـ دمشق.

التعريضي في القرآن: أن يُوجَّهُ الخطاب من ا لله تعالى إلى نبيه، ﷺ، متحدثاً عن شخص ما أو جماعة ما، دون أن يسميهم أويعيّنهم. لكنه يبين مثالبهم ويذكر مصيرهم.

مثال من القرآن الكريم: يتضح معنى هذا الحوار في المثال الذي سنورده وهو آيات من سُوَرة مكية نزلت لتشدّ من أزر النبي، ﷺ، والذين آمنوا معه، وكانوا قلّة مستضعفين، ولتدعو المشركين المتكبرين المعتزّين بمالهم وجاههم وقوّتهم وبأسهم، المستهزئين بالنبي، ﷺ، وبالمؤمنين إلى الإيمان با لله واتباع رسوله، وكلٌّ من هذين الهدفين[1] يحتاج تحقيقه إلى هذا الأسلوب الخطابي التعريضي؛ لأن التعريض لايصدر إلا عن قوة وثقة بمصدر هذه القوة، وقد أراد ا لله أن يشعر نبيه والمؤمنين بأنهم أقوياء با لله، وإن كانوا قلة يستضعفهم أعداؤهم، وأن يستصغروا أعداءهم بهذا الأسلوب التعريضي. وليُشعرهم بتفاهة عقيدة المشركين وقِيَمهم المادّية التي يعتمدون عليها، وأنها ليست شيئاً يذكر إذا قورنت بقوة ا لله وبما أعد لهم من عذاب أليم ومصير مهين، كما في قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ، إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً ، وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً ، يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ [المزمل: ٧٣/١١-١٤].

وقد نزلت هذه السورة ورسول ا لله والمؤمنون في أشد الحاجة إلى مايشد عضدهم، نزلت، وقد اجتمعت[2] قريش في دار الندوة تدبّر كيدها للنبي ﷺ، فقالوا: سموا هذا الرجل اسماً يصدُّ الناس عنه. فقالوا: كاهن. قالوا: ليس بكاهن. قالوا: مجنون. قالوا: ليس بمجنون. قالوا: ساحر. قالوا: ليس بساحر. فتفرق المشركون على ذلك فبلغ ذلك النبي ﷺ فاغتمّ، وتزمّل في ثيابه، فأتاه جبريل عليه السلام فقال: ﴿يا أَيُّها الْمُزَّمِّلُ﴾... وأنزل ا لله شطر هذه السورة الأول.

وفيها وجّه ا لله الرسول، ﷺ، إلى الصبر الجميل على مايلقاه من قومه من الاتهام والإعراض.. فقال سبحانه: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى ما يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً﴾

(١) سيأتي شرحهما، إن شاء ا لله، عند بحث أهداف الحوار الخطابي التعريضي مع سائر الأهداف

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٤٦٢-٤٦٣.

[المزمل.٧٣/١٠] وذلك بعد توجيهه إلى القيام والذكر والالتجاء إلى الله تعالى. ثم يأتي التعريض بالمشركين والتهديد والوعيد من قبل رب العالمين ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ﴾.

خلِّ بيني وبين المكذبين الذين يرتعون فيما أنعمت عليهم من الغنى والترف، فلم يَرْعوا النعمة ولم يشكروا المنعم فهي دعوتي، وماعليك إلا البلاغ، وسأتولّى أنا حربهم[1].

﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ ولو أمهلتهم الحياة كلها ماكانت عند الله إلا ساعة من يوم من أيامه. ويتابع الرب تهديدهم ذاكراً ألوان العذاب الذي ينتظرهم ﴿إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً ، وَطَعاماً ذا غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً﴾ [المزمل: ٧٣/١٢-١٣] إنها سلاسل يقيَّدون بها وجحيمٌ تسعّر بهم وطعام يمزق أحشاءهم وتلازمه الغصة ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ [المزمل: ٧٣/١٤] (وذلك في يوم رهيب ترجف فيه الأرض وتتفتّتُ الجبال وتنهال، فكيف بالناس المهازيل الضِعَاف؟!)[2].

نهاية هذا الحوار: بعد أن يصف السياق القرآني هذا المشهد المفزع ليوم القيامة ينهي القرآن تعريضه عن طريق مخاطبة النبي ﷺ، ليخاطب المشركين مباشرة، وليضعهم تجاه مسؤوليتهم فقد أرسل الله إليهم رسوله، فبلّغهم، فهو لذلك يحذّرهم من المصير الذي آل إليه المكذبون من قبلهم:

﴿إِنّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شاهِداً عَلَيْكُمْ كَما أَرْسَلْنا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْناهُ أَخْذاً وَبِيلاً﴾ [المزمل: ٧٣/١٥-١٦] أغرقناه وجنوده في اليم.. إنه يحذرهم، ويهزّ قلوبهم ويخلعها خلعاً، بعد أن عرض مشهد الأرض والجبال وهي ترجف وتنهار، فذلك أخذ الآخرة وهذا أخذ الدنيا فأين المفر؟ وكيف تنجون بأنفسكم من بأس الله؟ ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيباً ، السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ [المزمل: ٧٣/١٧-١٨].

---

(١) الظلال ٦/٣٧٤٧.

(٢) المرجع السابق.

فهذا وعد الآخرة آتيكم لامحالة: إنه موقف رهيب تنشقُّ فيه السماء وترجف فيه الأرض والجبال، ثم تسيل الجبال بصخورها وجبروتها فتكون كثيباً مهيلاً..

ولكن السبيل إلى الله آمن يسير، مفتوح أمام من ينفعه التذكير: ﴿إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ [المزمل: ١٩/٧٣] فمن شاء أن يتذكر ويرجع إلى الله، فهذا هو القرآن من عند الله وهذه سنة رسول الله يرسمان منهج الإسلام، منهجاً للحياة ولجميع سلوكنا في الحياة ولعلاقاتنا بالله ولعلاقاتنا الاجتماعية الخاصة والعامة. وماعليك أيها المذَّكِّر إلا الاتباع والاستسلام لأمر الله!

مراحله:

ينطوي هذا الحوار التعريضي على ثلاث مراحل نوجزها فيما يلي:

١ًـ مرحلة التعريض بالمشركين إذ يخاطب الله رسوله متحدثاً عنهم يصفهم بما يستحقون من الصفات.

٢ًـ مرحلة الوعيد أو عنصر التهديد وقد جاء ضمن مرحلة التعريض فبدأ الله تهديدهم منذ بَدْءِ الحوار، منذ أن بدأ ذكرهم لرسوله ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ..﴾ ثم استمر يذكر أهوال يوم القيامة وماأعد الله لهم من عذاب، وختمه بذكر مصير فرعون وتهديدهم بالمصير نفسه.

٣ًـ مرحلة المغزى والدعوة إلى تحقيق الهدف: الاستسلام لأمر الله واتخاذ سبيل إلى الله، وهو الهدف السلوكي المقصود من هذا النداء الرباني إلى النبي ﷺ، وليبلغه إلى الناس أجمعين...

الحوار التعريضي النبوي:

كان النبي، ﷺ، يستخدم هذا الأسلوب التربوي لتوجيه الصحابة، والأمة من بعدهم، إلى تجنب بعض الأعمال المكروهة التي تؤدي إلى إيذاء المجتمع أو إلى إفساد العبادة أو نحو ذلك مما سيتضح معنا في الأمثلة التالية:

فأما تحذير المسلمين مما يؤذي الآخرين فمثاله ماروواه الإمام مسلم في (صحيحه)(١) عن أبي هريرة أن رسول الله، ﷺ، رأى نخامة في المسجد فأقبل على الناس فقال: ((مابالُ أحدكم يقوم مُسْتَقْبِلَ ربّه فيتنخّعُ أمامه؟! أيحب أحدكم أن يُستقبَلَ فيُتَنَخَّعَ في وجهه؟! فإذا تنخّع أحدكم فَلْيَتَنَخّعْ عن يساره تحت قدمه، فإن لم يجد فليقل هكذا)).

قال أبو هريرة: ووصف القاسمُ فَتَفَلَ في ثوبه، ثم مسح بعضه على بعض، ويمكن تحليل هذه الواقعة بما فيها من أسلوب وتوجيه تربوي إلى مراحلها التربوية على النحو التالي:

١ـ التمهيد وهو ما بدأ به أبو هريرة من ذكر سبب الحديث، أن رسول الله ﷺ رأى نخامة في المسجد. وهذا التمهيد يجعل القارئ يتساءل كيف عالج الرسول ﷺ الموقف؟

٢ـ الأسلوب التربوي، فأقبل علي الناس وكان قد توجه بوجهه نحو القبلة، ليصلي بهم إماماً، فالتفت إليهم لما رأى أثر النخامة في جدار المسجد وأقبل عليهم بوجهه فقال: ((مابالُ أحدكم)) وهذا هو التعريض فرسول الله، ﷺ، لم يسمّ أحداً بل ورّى وعرّض بهذا اللفظ: ((مابال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخّع أمامه)) فأنكر هذا الفعل القبيح دون أن يسأل عمن فعله.

٣ـ التوجيه العملي في مثل هذا المأزق، فإذا اضطر أحد أن يزيل النخامة من حَلْقه لئلا تؤذي معدته، فليبصقها في طرف ثوبه، ثم يذهب إلى داره فيغسله.

وأما تحذير المسلمين من مخالفته، ﷺ، فمثاله ماروواه البخاري(٢) قال: قالت عائشة: صنع النبي، ﷺ، شيئاً، فرخّص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبيَّ، ﷺ، فخطب، فحمد الله ثم قال: ((مابالُ أقوامٍ يتنزَّهون عن الشيء أصنعُهُ، فوالله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشيةً)).

---

(١) الجامع الصحيح للإمام مسلم ٢/٧٦/ (من كتاب المساجد)، ط. نظارة المعارف الجليلة في دار الطباعة العامرة ـ إستامبول ١٣٣٠هـ.

(٢) الجامع الصحيح للإمام البخاري ٥/٢٢٦٣ كتاب الأدب، رقم الحديث ٥٧٥٠، ط دار اليمامة ـ دمشق، ودار ابن كثير ـ دمشق، باب من لم يواجه الناس بالعتاب.

وقد أدرك الإمام البخاري أن هذا أسلوب تربوي نبوي، فأورد الحديث في (كتاب الأدب) من صحيحه، ومادّة الأدب والتأديب[١] تعنى في اللغة العربية التربية، والتعليم، ثم جعَله في (باب: من لم يواجه الناس بالعتاب)، وهذا من أدبه، ﷺ، وخُلُقه الذي مدحه الله به فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم. ٤/٦٨] وهذا الحديث تنطبق عليه الخطوات التربوية التي أوردناها في المثال السابق، لكنه أشد دلالة على فائدة هذا الأسلوب التربوي النبوي وأهميته، فعلى الرغم من أن هذا أمر يمسّ النبي، ﷺ، وأن هؤلاء (الأقوام) الذين يتنزهون عن متابعته والاقتداء به ، يخشى على عقيدتهم أن يكون بها زيغ عن الحق، وتكبر عن الاتباع؛ فقد آثر رسول الله، ﷺ، هذا الأسلوب: أسلوب التورية والتعريض، ولم يلجأ إلى الفضيحة والتصريح، بل ترك لهم المجال مفتوحاً أمامهم ليتوبوا عن زيغهم هذا، وليرجعوا إلى طاعة الله ورسوله، مع أنه مؤيَّد من الله كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّـهَ﴾ [النساء: ٨٠/٤]، ولكنه، ﷺ، آثر أن يكون رفيقاً بالمؤمنين عملاً بقول الله تعالى: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩/٣].

وأما تحذير المسلمين من الرشوة والفساد، وتحذير الولاة والقضاة من أخذ الهدايا بهذا الأسلوب التربوي، فمثاله مارواه البخاري[٢] عن أبي حُمَيْدٍ السَّاعِديّ قال: استعمل النبيّ، ﷺ، رجلاً من بني أسد يقال له (ابن اللُّتْبِيَّة) على صدقة[٣] ، فلما قَدِمَ قال: هذا لكم، وهذا أُهدي لي، فقام النبي ﷺ فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ((مابالُ العاملِ نبعثُه، فيأتي فيقول: هذا لكَ وهذا لي، فهلاّ جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أَيُهْدَى له أم لا؟ والذي نفسي بيده، لايأتي[٤] بشيء إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته: إن كان بعيراً له رُغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر))[٥] .

---

(١) في القاموس المحيط: (... وأَدَّبَهُ: علّمه فتأدّبَ...)

(٢) الجامع الصحيح للبخاري ٢٦٢٥/٦، كتاب الأحكام (رقم الحديث ٦٧٥٣) مرجع سابق.

(٣) استعمله على صدقة: أرسله لجباية أموال الزكاة.

(٤) أصلها: لا لا يأتي بشيء، حذفت إحدى اللاءين.

(٥) (تصوّت) والشاة المعزى أو الغنمة أو الخروف أو التيس، وحمْله على رقبته كناية عن فضيحته والتشهير به لينال الخزي والعار ثم عذاب النار.

ثم رفع يديه حتى رأينا عُفْرَتَيْ إِبْطَيْهِ: ((ألا هل بَلَّغْتُ؟!)) ثلاثاً.

وهذا الحديث أشد دلالة على تعمّد استخدام هذا الأسلوب التربوي، فالموظف الذي أهدي إليه، موجود ومعروف. ومع ذلك أصر رسول الله، ﷺ، على التعميم، و لم يعنفه لوجهه، ليستفيد جميع المسلمين من هذا التوجيه، فاستخدم أسلوب التورية ليترك له المجال ليتدارك خطأه، ويعود إلى جادة الصواب ويخشى الله واليوم الآخر.

ومثل هذا متروك للخليفة أو الرئيس لعلمه بما يصلح الناس والموظفين والحكّام، وأما ترك الأمر على الغارب وعدم دفع الرواتب المجزية وإحراج الجباة والموظفين لدفعهم إلى الفساد فهذا مسؤوليته عظيمة عند الله.

الفصل الخامس

الحوار التعليمي

أ- **الصيغة الأولى**: يطرح فيها المربي على المتعلمين سؤالاً، وهو يعلم أنَّ إجابتهم ستأتي وفق خبراتهم الناقصة في موضوع الجواب الذي يريد شرحه لهم، ثم يعرض عليهم الجواب الصحيح بعد أخذ جوابهم: مثالها: مارواه الإمام مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله قال:

- ((أتدرون ما المفلس؟))

ـ قالوا: المفلس فينا من لادرهم له ولامتاع.

ـ فقال : ((إنَّ المفلسَ من أمتي من يأتي يومَ القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضرب هذا، فيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيَتْ حسناتُه قَبْلَ أن يقضِيَ ماعليه أُخِذَ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طُرِح في النار))[1].

وهكذا بيّن رسول الله، ، للصحابة، وعلّمهم، أن الغنيّ يوم القيامة -في ميزان القيم الربانية التي يزن بها أعمال العباد- هو مَنْ أغنى حياته بالأعمال الصالحة دون أن يكون قد آذى أحداً، أو غشّ أحداً، أو أكل حق أحد، وأن حقوق العباد لاتضيع عند

(١) رياض الصالحين للإمام النوري ص٩٦، نشر وتحقيق: دار الخير ــ دمشق ــ بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، وذكره السيوطي في الجامع الصغير من رواية أحمد والترمذي وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير برقم ٨٧) وليس فيه ذكر جواب الصحابة

ا لله، بل يقتص لهم مِمَّن ظلمهم يوم القيامة، وأن المفلس من حبط عمله بسبب ما أكل من حقوق العباد.

وتأتي مراحل الحوار هنا في صورة واضحة مبسطة: فالمرحلة الأولى تتجلى في سؤال النبي، ﷺ، وجواب الصحابة الذي يتبيّن به ماعندهم من خبرات حول موضوع السؤال.

أما المرحلة الثانية فجاءت ضمن المرحلة الثالثة؛ لأن الموضوع لايحتاج إلى نقاش مع المتعلمين، فالصحابة يؤمنون بالقيم التي سيأتي الجواب الأخير موافقاً لها، وحسب سلّمها وأولوياتها. ثم تأتي المرحلة الثالثة، يقرر الرسول، ﷺ، معنى المفلس عند ا لله وموقفه يوم القيامة...

بَ- الصيغة الثانية من الحوار التعليمي: وهي تشبه الأولى غير أن المتعلمين هنا: لأجواب لديهم عند طرح السؤال عليهم، فعندما يظهر للمربي عجزهم عن الجواب يشرح لهم الأمر الذي يريد تعليمهم إياه، بعد أن يكون قد أثار شوقهم إليه، وبدا له استعدادهم لتلقّيه ووعيه وتتضح هذه الصيغة في هذا المثال من الحوار النبوي مع بعض الصحابة: عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال:

- ((أتَدْرونَ ماالغيبة؟)).

- قالوا: ا لله ورسوله أعلم.

وهذا الجواب يعني: لاعلم لنا فنحن ننتظر العلم من ا لله ورسوله.

- النبي ﷺ قال: ((ذكرُكَ أخاك بما يكره)).

وقد أثار هذا الجواب النبوي بعض التساؤل عند بعض الصحابة، فعبر عنه راوي الحديث أبو هريرة بلفظ (قيل)؛ إما لأنه لم يعرف السائل أو لأنه لايريد ذكر اسمه.

- أحد الصحابة يسأل النبي ﷺ: أفرأيت إن كان في أخي ماأقول؟

ومعنى سؤاله هذا: إذا كان وصفي له في غيابه بما هو متّصف به فعلاً أفلا أكون صادقاً؟ فهل عَلَيَّ إثم؟ والصحابة يعلمون أن القرآن حرّم الغيبة، وشبّه المغتاب بمن

يأكل لحم أخيه ميتاً، لذلك طرح هذا الصحابي هذا السؤال ضمن الحوار، ليتعلّم: ماالغيبة حتى يجتنبها، فجاء الجواب النبوي:

- (النبي) قال: ((إن كان فيه ماتقول فقد اغْتَبْتَهُ)) أي إنْ ذكرت عَيبَه في غيابه فقد وقعت في إثم الغيبة، ((وإنْ لم يكن فيه ماتقولُ فقد بَهته))، أي افتريت عليه الكذب وهذا أكبر إثماً. رواه مسلم(١).

وتتجلى مراحل الحوار في هذا المثال بوضوح، ففي المرحلة الأولى يطرح النبي ﷺ الموضوع بهذا السؤال: ((أتدرون ماالغيبة؟)) ولما أجابوه بما يفيد نَفْيَ علمِهم بحقيقة الموضوع دخل في المرحلة الثانية.

المرحلة الثانية: إيضاح بعض جوانب الموضوع وتعريفه تعريفاً إجمالياً، وتأتي هنا هذه المرحلة في تعريف النبي ﷺ الغيبة كما رأينا.

المرحلة الثالثة: وتتجلى في مناقشة بعض الصحابة وسؤاله ليَسْتجْلي بعض الغموض.

وفي الجواب التوضيحي الذي أجاب به النبي، ﷺ، على هذا الاستفسار حول الموضوع فبيّن الحق في الشبهة التي أثارها السائل بمناقشته هذه، وبيّن بذلك المعنى الصحيح للغيبة، كما بيّن مايلتبس بها، ليكون الجميع على بيّنة من أمرهم، فلايقعوا في إثم الغيبة أو مايشابهها، ولئلا تحدّثهم نفوسهم بأن ذكر الصفات الحقيقية المكروهة في غياب الموصوف ليس بإثم ماداموا صادقين بوصفه بها. ثم بيّن لهم ﷺ البهتان وهو زيادة في معلوماتهم حول الموضوع، لئلا يترك عندهم أي شبهة أو أي غموض...

جـ- الصيغة الثالثة، ويمكن أن نطلق عليها اسم **الحوار التنْبيهي:**

ويكون بتوجيه سؤال بقصد إثارة الاهتمام والشوق إلى مايراد تعليمه أو توضيحه، والمخاطبون يعرفون شيئاً عنه، ولكنّ المربي يريد إعطاءهم معلومات جديدة عنه، أو إيضاح أمور لايعرفونها، أو تصحيح معلوماتهم، أو إزالة شكوكهم وارتيابهم حوله...

---

(١) رياض الصالحين للنووي ص ٦١٢ طبعه، وضبطه وشرحه أحمد عبيد الدعاس الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، وأورده السيوطي في الجامع الصغير من رواية أحمد ومسلم وأبي داود والترمذي وصححه الألباني، (صحيح الجامع الصغير برقم ٨٦) وليس فيه جواب الصحابة (الله ورسوله أعلم)

ويكون الجواب بأسلوب مشوق مبني على دلائل حسية، وقد يتخلله أسئلة عن أمور يعرفها المخاطبون، ويرونها دالة على الأمر الذي وجّه السؤال عنه، وهذا هو الاستفهام التقريري الذي يَسْأل عما يعترف به المخاطبون ويقرون بوجوده؛ لإفحام المتعنّتين منهم، وبيان بطلان رأي المنكرين المبطلين، أو زجرهم عن باطلهم.

ومثاله من القرآن: السؤال عن البعث في سورة (النبأ) وسميت كذلك؛ لأن جواب السؤال جاء بهذا اللفظ ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ؟ عَنِ النَّبَأِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٧٨/١-٣] وفي هذه العبارات الموجزة جاء التعريف بالموضوع الذي يسألون عنه تعريفاً يثير الدهشة، ويزيد في الشوق إلى المعرفة، فقد عرّفه بوصفه بأنه عظيم وعجيب، حتى إنهم اختلفوا فيه، لكن اختلافهم كان ناشئاً عن كفرهم وارتيابهم، لذلك أردف معقباً على هذا التعريف بزجرهم وتهديدهم بأن الذي يتساءلون عنه واقع لامحالة ﴿كَلاّ سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاّ سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٧٨/٤-٥].

سيعلمون حقيقته يوم يحيق بهم ثم يأتي بالأدلة على ذلك النبأ العظيم الذي يرتابون به من قَبْلِ أن يبسط لهم وقائعه، يأتي بهذه الأدلة في صيغة سؤالهم عنها وهم يرونها من حولهم: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً ، وَالْجِبالَ أَوْتاداً﴾ [النبأ: ٧٨/٦-٧] ألم نجعل لهم الأرض ممهدة ميسرة لحياتهم عليها ولبناء دورهم ولشق الطرقات وللسير فيها؟ ولشق ترابها وبذر الزرع فيها؟ ولاستخراج الماء والمعادن من جوفها؟ ألم نجعل لهم الجبال كالأوتاد تثبّت الأرض، وتحفظ توازنها عندما تتقلص في الشتاء قشرتها، أو تثور فيها البراكين والزلازل..؟ ثم يعرض لهم الأدلة من أنفسهم وحياتهم ﴿وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً ، وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً ، وَجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً ، وَجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً﴾ [النبأ: ٧٨/٨-١١] ألم نخلقكم من ذكر وأنثى ليحصل بينكم التزاوج والتكاثر والمودة والتقارب؟ ألم نجعل نومكم سكوناً وانقطاعاً عن الحياة والإدراك والنشاط لإراحة أجسادكم وأعصابكم وعقولكم؟ وجعلنا النهار لتطلبوا في ضوئه معايشكم؟ أليس ربكم الذي خلقكم على هذا النظام ومهّد لكم الأرض ونصب الجبال بقادر على أن يبعثكم ويُحْيِيَكم تارة أخرى ليحاسبكم على أعمالكم؟ وقد أرسل لكم الرسل لتنظموا حياتكم وفق المنهج

الذي رسموه لكم من عند الله؟ ثم انظروا إلى السماوات فوقكم وفيها الشمس المضيئة الباعثة للحرارة التي تعيش عليها الأرض ومافيها من الأحياء: ﴿وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً ، وَجَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً﴾ [النبأ. ٧٨/١٢-١٣]، وانظروا إلى السحب التي تعصرها الرياح الباردة، فيهطل منها الماء منصباً بقوة وغزارة، فتنشق له تربة الأرض، وتحتفظ به لتنبت به الجنات والزروع، أو لترسله ينابيع وأنهاراً يسقي الله بها أنعاماً وغابات وأشجاراً وأناسيّ كثيراً: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَباتاً ، وَجَنّاتٍ أَلْفافاً؟﴾ [النبأ: ٧٨/١٤-١٦].

وبعد هذه الأدلة كلها ألا تشعرون أيها الناس أنكم لم تُخْلَقُوا عبثاً، ولن تتركوا سُدًى بغير بعث ولاحساب؟ وأن الذي قدَّر حياتكم وَرِزْقكم ونومكم ومعاشكم ونسَّق حياتكم مع الكون الذي تعيشون فيه لايمكن أن يدعكم تعيشون سدًى وتموتون هَمَلاً؟ تُصلحون أو تُفسدون في الأرض، أو تهتدون وتعدلون، ثم تذهبون في التراب ضياعاً؟ وتلقون مصيراً واحداً فيذهب العدل والظلم جميعاً؟ هذا لايمكن أن يكون ولايستسيغه عقل سليم، فلابُدّ إذن من البعث والحساب.

وبعد أن يدلّل الحقّ جل جلاله بهذه الحجج وبهذا الأسلوب الحواري، على البعث والحساب وبهذه الأدلة المحسوسة والبراهين المعقولة، يعرّف المخاطبين بصفات وتفاصيل ذلك النبأ العظيم، الذي هم فيه مختلفون، وذلك اليوم الرهيب الذي ينتظره كل عاقل مؤمن: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً ، يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْواجاً ، وَفُتِحَتِ السَّماءُ فَكانَتْ أَبْواباً ، وَسُيِّرَتِ الْجِبالُ فَكانَتْ سَراباً﴾ [النبأ: ٧٨/١٧-٢٠] إنه يوم موعود، يأتي وفق ميقات محدود؛ وهو يوم ينقلب فيه نظام هذا الكون، وينفرط فيه عقد هذا النظام، إنه يومُ الفصل الذي يفصل فيه بين المؤمنين الصالحين والجاحدين المنكرين المكذبين؛ فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير، وذلك بعد أن يُنفخ في الصور فيأتي الناس أفواجاً للحساب، بين يدي العليّ الأعلى الوهاب. إنه يومٌ تندك فيه الجبال التي كانت كهوفها وظهورها أكناناً وقلاعاً ومباني، وتصبح الأرض كلها سواء ﴿لا تَرَى فِيها عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾ [طه: ٢٠/١٠٧] كما يخرج الناس كلهم من قبورهم سواسية، عراة

لاتميزهم ثياب أنيقة، ولاتيجان زاهية، ولاسيّارات فارهة، ولاطائرات للقارات عابرة، لاتميزهم إلا آثار أعمالهم على أجسادهم يدعوهم الداعي إلى الحساب فيجيبون صاغرين منقادين ويمتاز المجرمون وقد حُشِروا يومئذٍ زُرْقاً ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ [طه: ١٠٢/٢٠] ويحشر كل من تعامى عن الهدى في الدنيا يحشر يوم القيامة أعمى...

أما المؤمنون فيحشرون و﴿نورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا أَتْمِمْ لَنا نُورَنا﴾ [التحريم: ٨/٦٦] واستكمالاً لوصف يوم القيامة يصف الله عذاب المجرمين في جهنم التي جعلها الله مرصاداً، ترصد وتترقب المجرمين الطاغين لتؤويهم إليها: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كانَتْ مِرْصاداً ، لِلطّاغِينَ مَآباً ، لابِثِينَ فِيها أَحْقاباً ، لا يَذُوقُونَ فِيها بَرْداً وَلا شَراباً ، إِلاّ حَمِيماً وَغَسّاقاً ، جَزاءً وِفاقاً﴾ [النبأ: ٢١/٧٨-٢٦] لقد جاء عقابهم وفقاً لكفرهم بربهم وجحودهم وإنكارهم لما جاء من كتب الله وشرائعه وأنبيائه ﴿إِنَّهُمْ كانُوا لا يَرْجُونَ حِساباً ، وَكَذَّبُوا بِآياتِنا كِذّاباً﴾ [النبأ: ٢٧/٧٨-٢٨].

ثم يصف الله نعيم المؤمنين الذين كانوا يتقون الله: يتقون غضبه بطاعته، وبالأعمال الصالحة، وباتّباع شريعته، فأصبحوا يوم القيامة يفوزون بنعيم جنات الخلود، وينجون من العذاب.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفازاً ، حَدائِقَ وَأَعْناباً ، وَكَواعِبَ أَتْراباً ، وَكَأْساً دِهاقاً ، لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَلا كِذّاباً﴾ [النبأ: ٣١/٧٨-٣٥].

وهكذا بهذا الأسلوب الحواري القرآني يبرهن لنا القرآن على أن يوم القيامة آت لامحالة. ثم يصف لنا بعض أهواله ونتائجه ومصير كل من المجرمين الطاغين المكذبين، والأتقياء المؤمنين الصالحين، ليختار المؤمنون سبيلهم إلى الله.. ويمكن أن نميز مراحل هذا الأسلوب التربوي في هذه السورة كما يلي:

د- مراحل الحوار التنبيهي:

المرحلة الأولى: التعريف بموضوع الحوار والتشويق إليه وإثارة الاهتمام وزجر المكذبين وذلك في الآيات الخمس الأولى المتضمنة: سؤالاً وجواباً وزجراً ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ؟ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلاَّ..﴾ [النبأ: ١/٧٨-٣].

المرحلة الثانية: عدد من الأسئلة جاءت على أسلوب الحوار البرهاني[1] لتبرهن على أن خلق الكون بهذا النظام وأنّ الإنسان المتمتع بهذا الكون، المحفوف بالعناية الإلهية لم يخلق عبثاً، ولابد له من يوم يرجع فيه إلى خالقه، لينال جزاءه، ويلقى حسابه، وتضمنتها الآيات من السادسة إلى السادسة عشرة وقد شرحناها وبيّنا برهانها [النبأ:٧٨/٦-١٦].

المرحلة الثالثة: وصف يوم القيامة والنار والطاغين فيها، والجنة والمتقين الفائزين بها، وقد تضمنتها الآيات [النبأ: ٧٨/١٧-٣٨] إلى الآية التي تصف المشهد الختامي المهيب حيث يقف جبريل والملائكة خاشعين بين يدي ا لله ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفاً لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً﴾ [النبأ: ٧٨/٣٨].

المرحلة الرابعة: الدعوة إلى المغزى العملي والمنهج السلوكي الذي يلزم عن الإيمان با لله وباليوم الآخر؛ ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً ، إِنّا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ ما قَدَّمَتْ يَداهُ وَيَقُولُ الْكافِرُ يا لَيْتَنِي كُنْتُ تُراباً﴾ [النبأ: ٧٨/٣٩-٤٠].

وهكذا يُختم هذا الوصف الرائع لذلك اليوم العظيم، بهذا الخطاب الرباني الموجه إلى جميع الناس ليبلّغهم هذا الإنذار الإلهي بعد أن ظهر لهم الحق، وتأكد لهم حسابهم في ذلك اليوم الحق الذي يُعرضُ فيه على كل إنسان عمله فمن اختار في هذه الحياة مرضاة ربه وجناته والخلاص من غضبه وعذابه اتخذ لنفسه سلوكاً وطريقاً في الدنيا توصله إلى هدفه، باتّباع منهج القرآن، منهج الإسلام الذي يرضي الرحمن. ومن أبى فليس أمامه إلا عذاب جهنم المقصود بهذا الإنذار الإلهي، ويتمنى، حين يحق عليه العذاب، يتمنى أن لو كان في الدنيا ذرّة من تراب أو نبات أو أي عنصر مُهمل زهيد حتى لايحيق به ذلك العذاب المهين الأليم.

هـ- الحوار النبوي التنبيهي: وقد ثبت عن النبي ﷺ في أشهر مواقفه، في حجة الوداع. فقد أراد أن ينبّه المسلمين إلى حرمة الدماء والأموال، فسألهم عن أمور

---

(١) انظر تعريفنا للحوار البرهاني ومثاله وتحليله في الأبحاث الماضية في أول هذا التصنيف.

لايشكّون في حرمتها؛ ليبين لهم أن حرمة الدماء والأموال عند الله كحرمة تلك الأمور، كما ثبت في صحيح البخاري عن أبي بَكْرة، ذكر أن النبي ﷺ، قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه أو بزمامه قال: ((أي يوم هذا؟)) فسكتْنا حتى ظَنّنّا أنه سيسميه سوى اسمه، قال: ((أليس يوم النحر؟)) قلنا: بلى، قال: ((فأيُّ شهر هذا؟)) فَسَكتْنَا حتى ظننّا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: ((أليس بذي الحجة؟)) قلنا: بلى، قال: ((فَإِنَّ دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم، بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، لِيُبَلِّغ الشاهد الغائب))[1].

وهكذا اتخذ النبي ﷺ أسلوب الحوار للتنبيه والتشويق، مع أنه كان في موقف جامع حافل بمئات الألوف من الحجاج من الصحابة، فسألهم عن يومهم الذي هم فيه وعن شهرهم، وهو يعلم وهم يعلمون أنهم يعيشون في يوم وشهر حرم الله فيهما القتال، حتى وُصف بالشهر الحرام. سألهم عنه ليشوقهم إلى ماسيلقيه إليهم من أحكام الله في أموالهم ودمائهم، ثم أمرهم أن يبلّغوا عنه أحكام الله، ومايلقي عليهم من تشريع الله في المنهج الذي رسمه الله لهم، ليقيموا على أساسه علاقاتهم الاجتماعية، ولينسخ به دستور (البقاء للأقوى)، ذلك الدستور الجاهلي الذي كانت العلاقات بين القبائل تحتكم إليه، فيَسْتبيح القوي دماء الضعفاء وأموالهم، وحرّم عليهم أن يستبيحوا أعراضهم فيطعنوا في الأنساب أو العلاقات، أو يسفه بعضهم بعضاً. أو يقذف بعضهم بعضاً بالقبائح والعيوب والفحشاء، مما يمزق شمل المجتمع، ويزرع الاحتقار والكراهية والحقد في صفوفه، وبين جميع أفراده وشرائحه وطبقاته.

وهكذا كان الرسول ﷺ قدوة في أسلوبه التربوي ليعلمنا كيف نربي أبناءنا ومن نرْعاهم.

(١) صحيح البخاري ١/٣٦-٣٧ برقم ٦٧ باب ٩-١٠ من كتاب العلم.



الفصل السادس

أهداف التربية بالحوار القرآني

أهداف التربية بالحوار القرآني

تمهيد:

إذا استقرأنا أكثر مواطن الحوار الواردة في القرآن والسنة، وجدناها جميعاً تشترك في هدف رئيس، هو جذب الانتباه إلى الهدف الاعتقادي، أو التعبدي، أو السلوكي الذي وجد الحوار من أجل تحقيقه، والترغيب في الاهتمام به واعتناقه. ولكن هذا الهدف التربوي يمكن أن يكون بدوره وسيلة إلى تحقيق الأهداف الاعتقادية والاجتماعية والسلوكية والأخلاقية والتعبدية التي أنزلَتْ كتب الله وبُعِثَتْ رسله لتحقيقها.

لذلك سنعمل على استقراء أهم هذه الأهداف من النصوص القرآنية المعتمدة على الحوار، وبيانها، وذلك بتحليل جديد نبرز فيه أهمية هذه الأهداف: من خلال دلالة الحوار عليها، أو النص عليها أو الإشارة إليها...

١- أهم أهداف الحوار الخطابي:

لعل أوضح الأدلة على بعض هذه الأهداف مارأينا في الحوار الخطابي، بمختلف أشكاله. لذلك سنبدأ بهذا النوع من أنواع الحوار:

أولاً- أهم أهداف الحوار الخطابي التعبّديّ:

١ً- الاستغراق في مناجاة الله تعالى وإذكاء الشعور برحمته وعظمته وعنايته وبأنه وحده المستحق للعبادة، وإخلاص التوجّه إليه بالدعاء والاستغفار.. وقد أمر الله عباده بدعائه، وأوعد المستكبرين عن عبادته بعذاب جهنم، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٤٠/٦٠].

ويؤكد ذلك قول النبي ﷺ: ((من لم يدْعُ الله عز وجل غضب الله عليه))(١).

والدعاء يمكن اعتباره لوناً من ألوان الحوار بين العبد وربه على نحو مارأينا في الحديث القدسي عن الفاتحة: ((قسمت الصَّلاةَ بيني وبين عبدي..)).

فكل دعاء يرضي الله يستجيب الله له، كما تدل عليه هذه الآية وكما يدل عليه الحديث النبوي: ((ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغْفِرَ لَهُ؟))(٢).

٢ً- استمرار الصلة بالله وتربية الوجدان والعواطف الربانية على ذلك: ذلك أن استمرار الدعاء، واستمرار ملاحظة معنى الفاتحة التي يقرؤها المؤمن في كل ركعة من ركعات الصلاة، وملاحظة أنها حوار يناجي المؤمن به ربه فيجيب الرب سبحانه عن أسئلته ودعائه، كل ذلك يؤدي إلى استمرار ودوام الاتصال بالله تعالى، وبهذا تربَّى العواطف الربانية، كمحبة الله وشكره وطاعته والعمل على إرضائه والخوف من غضبه وعذابه، كما تدل عليه معاني الفاتحة.

٣ً- تربية خلق التفاؤل والثقة بالنفس وعزة النفس والاعتزاز بالله، وكلها أخلاق سامية تنتج عن الإيمان الصحيح الذي يُغذيه الدعاء المستمر، ودوام الصلة بالله، وذلك أن الثقة باستجابة الله تجعل المستقبل يبتسم للإنسان المؤمن، فإذا أخفق في اقتناص ملذات الدنيا عَوَّضَ عنها بالأمل والثقة بثواب الله ونعيم الآخرة، فتجده جادّاً مخلصاً

---

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ((من لم...)) تفسير ابن كثير ٤/٩٢-٩٣.

(٢) رواه البخاري (صحيح البخاري ١/٣٨٤ من كتاب التهجد باب الدعاء من آخر الليل).

في أداء واجبه أميناً في أداء هذا الواجب دونَ غش أو مواربة، ودون منّ أو استعلاء، لايرهبه تهديد أعداء ا لله أو المستهزئين با لله وبالمؤمنين، بل ينصرف عنهم إلى مناجاة ربه ودعائه كما فعل إبراهيم مع قومه حين رفضوا دعوته إياهم إلى عبادة ا لله وترك الأصنام وهدّدوه بالرجم فقال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً﴾ [مريم: ١٩/٤٨] أي خائباً[1] وشق إبراهيم لنفسه وولده طريقاً جديدة، بل طريقين للدعوة إلى ا لله، أحدهما في فلسطين أرض كنعان حيث رُزق ابنهُ إسحاق، جعله ا لله نبيّاً دعا إلى توحيد ا لله، ومن وراء إسحاق يعقوب وَلَد إسحاق بُعث نبياً أيضاً، ثم رزق يعقوب بيوسف الذي أصبح نبياً في مصر يدعو إلى ا لله... والطريق الآخر في الجزيرة العربية حيث ترك إبراهيم ابنه إسماعيل رضيعاً فشبَّ وَبُعِثَ في العرب نبياً، يدعوهم إلى الحنيفية هو وأبوه إبراهيم، ويرفعان قواعد الكعبة البيت الحرام الذي جعله ا لله للناس مثابة وأمْناً... يلجؤون إليه ويأمنون فيه، ويحجون إليه بعد أن أذّن فيهم بالحج ودعاهم إليه...

ثانياً- آداب الحوار التعبّدي وشروطه:

لكي تتحقق أهداف الحوار التعبدي كما أشرنا، وجئنا عليها بأمثلة من الدعاء ومناجاة العبد لربه، لابدّ له من آداب وشروط يجب تحقيقها أهمها:

١ً- حسن الظن با لله والثقة باستحابته وعنايته بعباده ورحمته بهم وقد بين لنا رسول ا لله، ﷺ، ذلك في أحاديث قدسية يرويها عن ربه تبارك وتعالى منها قوله ﷺ: ((يقول ا لله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في مَلأ ذكرته في مـلأ خير منهم، وإن تقَرّبَ إليَّ شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرّب إليَّ ذراعاً تقربتُ إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً))[2] وفي هذا الحديث دليل على أن الدعاء حوار تعبدي بدليل استجابة الرب جل جلاله.

---

(١) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٣٣٧/٥، (مرجع سابق).

(٢) رواه البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ ((...)) ومعنى قوله: (أنا عند ظن عبدي بي): أجازيه بحسب ظنه بي فإن رجا رحمتي وظن أني أعفو عنه فَلَه ذلك. (وإن ذكرني في ملأ): أي جماعة من الناس. ملأ خير منهم: جماعة من الملائكة المقربين (باعاً: هو مسافة مابين الكفين إذا بُسِط الذراعان يميناً وشمالاً) (هرولةً) المقصود هنا سرعة إجابة الرب ومزيد فضله. (صحيح البخاري ٢٦٩٥/٦ برقم ٦٩٧٠ مرجع سابق).

٢ـ عَدَم الدعاء بإثم كالدعاء بطلب تيسير المعصية للداعي، أو الدعاء على من لم يظلمه من المسلمين أو نحو ذلك فهذا الدعاء لايجوز ولايستجيب ا لله له.

٣ـ عدم الاستعجال بالاستجابة وعدم اليأس من رحمة ا لله ونحو ذلك ودليل هذين الشرطين قوله ﷺ: ((لايزال يُستَجَابُ للعبد مالم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعة رحم، مالم يستعجل)). قيل: يارسول ا لله ماالاستعجال؟ قال: ((يقول: قد دعوت وقد دعوت فلم أَرَ يستجيب لي فَيَسْتَحْسِرُ عندئذ ويَدَع الدعاءَ))[1] .

٤ـ إخلاص الخضوع لله تعالى والشعور بالعبودية له، والخوف منه والطمع في كرمه، كما قال تعالى: ﴿..وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩/٧] فا لله هو الذي خلق الإنسان أول مرة، وهو الذي سيحشره إليه فليس له ملجأ، أو ملاذ يلجأ إليه إلا ا لله، لذلك يلتجئ إليه بالدعاء، مخلصاً... والدين من (دَانَهُ): أخضعه، ودان له خضع له، والمعنى ادعوه: وأنتم مخلصون بالخضوع والعبودية له وحده.

أما الخوف من غضبه ومعصيته والطمع في ثوابه ورزقه فهما الموضوعان الرئيسان اللّذان يدعو بهما الداعون: أن يبعدهم عن المعاصي والعقاب ويدخلهم جَنّته: ﴿وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦/٧].

وا لله يغضب من العبد حين يترك دعاءه ويستكبر أو يستحسر أو ييأس ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠/٤٠].

فكانت عاقبة غضب ا لله على المستكبرين عن دعاء ربهم أن يدخلهم جهنم صاغرين، لاينفعهم الاستكبار ولاالتعالي على خالقهم ولاالتكبر عن دعائه.

(١) صحيح الإمام مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ٨٧/٨، كتاب الذكر والدعاء (مرجع سابق) ط دار الطباعة العامرة إستانبول.

ثالثاً– أهم أهداف الحوار الخطابي الموَجّه من الحق جل جلاله إلى نبيه ﷺ:

بينّا، حين شرحنا هذا الشكل الثاني من أشكال الحوار الخطابي، بعض الحِكَم من توجيه الخطاب من الله، عز وجل، إلى نبيه، ﷺ، وهي من أهداف هذا الأسلوب التربوي، لكننا شرحناها هناك لبيان أن كيان هذا الأسلوب يقوم على تحقيقها. ونعيد عناوينها هنا لنتابع شرح سائر الأهداف؛ وهي:

١ـ **إشعار النبي ﷺ بمسؤولية التبليغ**: وهي مهمته الأولى إذ أرسله الله ليبلغ رسالة ربه لذلك خاطبه الله آمراً إياه بالتبليغ فقال تعالى: ﴿يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ﴾ [المائدة: ٥/٦٧] فوعده الله أن يعصمه من أذى الناس الذين يعادون رسالته، ويريدون منعه من تبليغها. وماعليه إلاّ أن يحسن التبليغ. وقد أظهره الله على بعض الغيب من أخبار الرسل والأمم الغابرة ونحوها؛ ليعينه ذلك على مهمة التبليغ فقال تعالى: ﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ، إِلاّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ [الجن: ٧٢/٢٦-٢٨]. فانظر ماأعظم مهمَّة التبليغ عند الله حتى إنه أطلع بعض رسله على بعض غيبه ورصد الحَفَظَة[1] من ملائكته ليحفظوا جبريل الرسول الذي ينزل بالوحي، وليحفظوا رسوله الذي أنزل عليه علمه وشريعته وكلامه، ليعلم هذا الرسول، وهؤلاء الرسل أنهم تبلّغوا رسالات ربهم نظيفة من أي زيادة أو تحريف وليبلّغوها للبشر نظيفة صافية كما أنزلها الله وأنه تعالى قد أحاط عِلماً بما أنزل على أنبيائه وأحصاه، وأنهم مسؤولون عن تبليغها كما أنزلت.

٢ـ **تحديد طبيعة دعوته ﷺ ومهمّته** وتسليته وإيقاظ عزيمته ليمضي في دعوته، إن ممّا يُشعِر النبي ﷺ بمهمته في تبليغ الدعوة **تحديد هذه المهمة التي أرسل بها بأمر الله بهذا الخطاب الرباني**: ﴿يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٥-٤٦] فهو شاهد يشهد على الذين أرسل

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٦١ (مرجع سابق).

إليهم، ليدعوهم إلى توحيد الله ويوجههم، وهو يبشر المؤمنين منهم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٧/٣٣].

وهذا يستلزم منه أن يحذر من إغراءات الكافرين والمنافقين كإغرائهم له بالمال والجاه وتثبيطهم همَّته عن الدعوة، بإيذائه واتهامه.. ﴿وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٨/٣٣].

لذلك كان الوحي يدافع عن النبي ﷺ، ويجيب عنه عن بعض اعتراضاتهم... تسليةً له ﷺ وتقوية لعزائمه ليمضي في دعوته إلى الله.

وكانت أكثر اعتراضاتهم ناشئة عن جهلهم بطبيعة دعوته ﷺ ومهمته وبأنه أُرسِلَ إليهم بمنهج حياة كامل يتناسب مع النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها، وأن الله اختاره أن يكون بشراً يقدم للبشرية نموذجاً حياً في تطبيق هذا المنهج، ويُبيِّنُه لهم بأسلوبه البشري.

ولكنهم حينما قَصُر إدراكهم عن هذه الحقيقة، راحوا يطلبون منه الخوارق والمعجزات، ومادام مرسلاً من عند الله فلماذا لايريهم قدرة الله في الأمور المادية، التي هي مثلهم الأعلى، وهي مقياس العظمة عندهم، فأخبرنا الوحي بأن هذا كفر منهم بعظمة هذا القرآن وبهذا المنهج الإلهي: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنا لِلنّاسِ فِي هَذا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النّاسِ إِلاّ كُفُوراً ، وَقالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعاً ، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالَها تَفْجِيراً ، أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٩/١٧-٩٢] فعلّقوا إيمانهم بالرسول ﷺ وبالقرآن، على هذه المطالب المادية التي كانوا محرومين من أكثرها: من الجنات والأنهار ويرون فيها المثل الأعلى للرسول كما كانوا يتصورونه: من ملكيّة البساتين والجنات وتفجير الينابيع، ويرون فيها القدرة الخارقة التي تثبت لهم أنه مؤيد من الله كإسقاط السماء قطعاً كما أنذرهم أن يكون ذلك يوم القيامة، أو أن يأتي بالله والملائكة قبيلاً يناصرونه ويدفعون عنه كما تدافع القبيلة عن أحد أفرادها في زعمهم.

ثم طلبوا منه براهين حسّية مادّية أخرى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّماءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنا كِتاباً نَقْرَؤُهُ﴾ فأمره ا لله أن يجيبهم ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣/١٧] فهذا من حوار ا لله لنبيه، ولما كانت هذه الخوارق والمعجزات التي يطلبونها ليست من صنع الرسول ﷺ ولامن شأنه، إنما هي من أمر ا لله، وليس من شأن الرسول ﷺ أن يطلبها، إذا لم يعطه ا لله إياها، فقد منعه أدب الرسالة، وإدراك حكمة ا لله في تدبيره، من أن يقترح على ربه مالم يصرح له به، فانصاع لنداء ربه وللجواب الذي أمره أن يجيب هؤلاء المكابرين المتعنّتين به فجاء الجواب مبدوءاً بهذا الحوار الربانيّ: (قل) ﴿قُلْ سُبْحانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إلاّ بَشَراً رَسُولاً﴾ [الإسراء: ٩٣/١٧] إذ أمره ا لله أن يخبرهم بأنّ طبيعته البشرية، ومهمته التي تقف عند أداء رسالة ربه وتبليغها، لاتسمحان له أن يأتي بالخوارق من عنده، ولاأن يقترحها على ا لله، ولايتزيّد فيما كلفه إياه.

وهكذا ختم هذا الحوار بين النبي ﷺ وبين المشركين بهذا الحوار الرّباني الذي جاء بهذه الصيغة مبدوءاً بـ (قل) ليحدِّد الطبيعة البشرية للنبي ﷺ ويُبَيِّن حدود مهمته ورسالته التي تتوقف عند تبليغ ماأمره ا لله أن يبلغه دون أن يتجاوزه.

فهذه الصيغة للحوار بين ا لله ورسوله من جهة، وبين الرسول ﷺ والبشر من جهة أخرى ذات ثلاثة أطراف: الطرف الإلهي يبلغ رسوله مايجيب به البشر، والطرف النبوي وهو الواسطة بين ا لله وبين البشر، والطرف البشري، إما أن يمثله السائلون المستفسرون، وغالباً مايشير إليهم الوحي بصيغة (يسألونك). وهذا ينقلنا إلى:

٣ـ الهدف الثالث من أهداف الحوار الموجه من ا لله إلى رسوله: الإجابة عن أسئلة السائلين صيغته: يأتي الحوار المحقق لهذا الهدف غالباً على صيغة تبدأ بإخبار المولى -جل جلاله ـ عن سؤال السائلين، وهو أخبر وأَعْلَمُ بعباده وبما يسألون. ثم يأتي الأمر الإلهي لنبيه أن يجيبهم بالجواب المناسب كما يأمر به ا لله، وله أشكال تختلف باختلاف السائلين، وباختلاف نوعية السؤال.

أشكال الإجابة بالحوار الإلهي النبوي عن أسئلة السائلين:

أ – الإجابة عن أسئلة ليست غايتها الاستفادة أو الاستفسار، وهي على أشكال:

أ – أسئلة أطلقت للتعجيز والتحدّي والتعنّت، كسؤال المشركين عن الساعة فيأتي الجواب تارة بأمر النبي بالتجاوز عن الجواب، لأنه ليس بمقدوره كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السّاعَةِ أَيّانَ مُرْساها﴾ [النازعات: ٤٢/٧٩] أي متى موعدها؟ فيجيب الحق موجهاً نبيه: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْراها﴾ [النازعات: ٤٣/٧٩]، أين أنت من علمها[١]؟ ﴿إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهاها﴾ [النازعات: ٤٤/٧٩] أي ينتهي علمها إلى الله ﴿لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاّ هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧/٧].

وتارة يحدّد الجوابُ هدف الداعية المبَلّغ عن الله من ذكر الساعة ﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها﴾ [النازعات: ٤٥/٧٩] هذه وظيفتك[٢]: أن تنذر من ينفعه الإنذار، وهو الذي يشعر بحقيقتها فيخشاها ويعمل لها؛ وتارة يصوّر هولها وضخامتها: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَها لَمْ يَلْبَثُوا إِلاّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحاها﴾ [النازعات: ٤٦/٧٩] فهي من ضخامة هولها تتضاءل الحياة الدنيا إلى جانبها[٣] ﴿قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلاّ هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٧/٧].

ومن هذه الأسئلة التي يقصد بها التعجيز بعض أسئلة أهل الكتاب كاليهود: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتاباً مِنَ السَّماءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ [النساء: ١٥٣/٤].

وفي مثل هذه الأسئلة قد يتولّى الله الإجابة عن نبيه، فيقص عليه وعلى المسلمين في مواجهة اليهود بعض ماجبل عليه اليهود من غلظ الحسّ فلايدركون إلا المحسوسات، ومن التعنّت والإعنات فلايُسلمون إلاّ تحت القهر والضغط، ومن الكفر والغدر،

---

(١) فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير ٣٨١/٥، محمد بن علي الشوكاني، ط. مكتبة المعارف بالرياض.

(٢) الظلال ٣٨٢١/٦ (مرجع سابق).

(٣) المرجع السابق.

فسرعان ماينقلبون فينقضون عهدهم، حتى مع ربهم، فلننظر إلى الجواب الإلهي عن هذا السؤال فهو يصف لنا بعض أعمال اليهود التي تدل على صفاتهم هذه، وتشرح لنا بعض ظلمهم الذي وقفنا عنده فيما نقلناه من أول هذا النص حيث عرض الله مايدل على غلظ حسّهم، وتعنتهم حين طلبوا أن يروا الله جهرة، بل أبَوا أن يؤمنوا حتى يروه، كما في سورة البقرة ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٢/٥٥] ولنعد إلى النص الذي كنا بصدده المتضمّن سؤال النبي ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وكأنّ الله يطمئن رسوله بما معناه: (فلاعليك من هذا التعنّت[1] ولاغرابة فيه) فهو من أخلاق هؤلاء السائلين ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقالُوا أَرِنا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾[النساء:٤/١٥٣] ولكن الله -سبحانه- عفا عنهم وتقبّل فيهم دعاء نبيه موسى وضراعته.

ويستمر الوحي في الجواب عن هؤلاء المتعنّتين مبيناً أخلاقهم التي لايُستغرب معها مثل هذا الطلب ﴿ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ ما جاءَتْهُمُ الْبَيِّناتُ﴾ [النساء:٤/١٥٣] اتخذوا عجل الذهب الذي صاغه لهم السامري، وأمرهم بعبادته فاتخذوه إلهاً في غيبة موسى حين ذهب لمناجاة ربه، حيث أنزل عليه الألواح، فيها كتاب التوراة﴿ فَعَفَوْنا عَنْ ذَلِكَ﴾، ولكن اليهود لايفلح معهم إلا القهر والخوف: ﴿ وَآتَيْنا مُوسَى سُلْطاناً مُبِيناً﴾[النساء:٤/١٥٣] هو شريعة الله التي أخذ بها عليهم ميثاقهم، كما أشار إلى ذلك في تتمة هذه الآية: ﴿وَرَفَعْنا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثاقِهِمْ﴾ [النساء:٤/١٥٤] وهنا جاءهم القهر الإلهي حينما رأوا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم يوشك أن تقع عليهم، إذا لم يستسلموا لربهم، ولم يتعهدوا بأخذ ماأعطوا، وماكُتِب عليهم من التكاليف في الألواح وعندئذ فقط استسلموا، وأُخذ عليهم العهد، وأعطَوا الميثاق: أن يدخلوا بيت المقدس، وأن يعظّموا السبت الذي طلبوا أن يكون عيداً لهم ﴿وَقُلْنا لَهُمْ لا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً﴾ [النساء: ٤/١٥٤].

---

(١) الظلال ٢/٨٠٠.

وهكذا يُسفِر هذا الجواب الرباني على سؤالهم النبي ﷺ أن يُنَزِّل عليهم كتاباً من السماء عن كشف بعض طبائع اليهود وبعض تاريخهم، وعن فضح تَعِلاّتِهم ودَمْغِهم بالتَّعَنُّتِ مع نبيّهم وقائدهم ومنقذهم موسى عليه السلام، فكيف لايتعنّتون مع هذا النبي الأمي الذي أُرسل رحمة للعالمين، وهم يريدون أن يكون نبياً لهم، خاصاً بهم، ولايؤمنون به إلا إذا كان حسب أهوائهم، ﴿فَلَمّا جاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكافِرِينَ ، بِئسَ ما اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بما أَنْزَلَ اللّهُ بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ فَباؤُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكافِرِينَ عَذابٌ مُهِينٌ﴾ [البقرة: ٢/٨٩-٩٠] لقد باعوا أنفسهم للشيطان وخسروها حين اشتروا بها غضب ا لله وعذابه بغياً وعدْواً، لأنّ ا لله أنزل من فضله على نبيه هذا الوحي. فعادوا متلبّسين بتجديد غضب ا لله عليهم بكفرهم، هذا فوق غضبه عليهم بسبب ماذكره عنهم ا لله من تعنتهم وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً وأكلهم الربا وقد نهوا عنه وقولهم: إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم، وماقتلوه وماصلبوه..

وهكذا كان جواب الربّ جل جلاله يكتفي ببيان بعض طبائعهم وهذا يعني أن طلبهم وسؤالهم لايستحق تلبيةً ولاجواباً يتعلق بطبيعة السؤال أو مضمونه، بل هو سؤال يدل على تعنتهم وعدم تأمّلهم لما أنزل ا لله على نبيه من أخبار الرسل السابقين ومن البينات الموافقة لما أنزل ا لله على نبيهم موسى عليه السلام.

بّ - ومما يُلحق بالإجابة عن أسئلة لم توجّه بقصد الاستفسار أو الاستفادة أسئلة **غايتها التهرّب من أداء ماأوجب ا لله**، وهي من أساليب الذين في قلوبهم مرض، ومثالها سؤال بعض المسلمين ﴿ربنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنا الْقِتالَ﴾ [النساء:٤/٧٧]، وقد كانوا من قبل يتدافعون[1] حماسةً إلى القتال فأمرهم ا لله أن يكفوا عن طلب القتال وينتظروا أمر ا لله فيه كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكاةَ فَلَمّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقالُوا رَبَّنا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنا الْقِتالَ لَوْلا أَخَّرْتَنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا

(١) الظلال ٢/٧١٢.

قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧/٤] فهذا سؤالهم يعرضه الحق، جل جلاله، في صيغة الاستفهام للتعجّب من موقفهم ومن أمرهم: إنهم يخشون الموت ويريدون الحياة، ويتمنّون – في حسرة – لو أن الله قد أمْهلهم بعض الوقت، ليستمتعوا بالحياة غير مُنَغّصة بهاجس القتل والقتال: ويُعالج القرآن مشاعرهم هذه وضعفهم بمنهجه وأسلوبه؛ فيذكّرهم بما آمنوا به حين آمنوا بالله المحيي المميت، وباليوم الآخر، وأنه آت لامحالة، وبالموازنة بين هذه الحياة المؤقتة الفانية، وبين الآخرة الباقية ومافيها للمؤمن من خير عظيم فهي دار القرار بلاقلق ولامنغصات، ودار البقاء والخلود بلاموت ولافناء.

فالدنيا ليست نهاية المطاف، إنها مرحلة وراءها الآخرة، وهي خير للمتقين ﴿قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧/٤] فهذه ثلاث حقائق تضمّنها الجواب الربّاني لعلاج هذا الضعف والخوف من الناس ومن الموت:

الأولى: أنّ متاع الدنيا قليل والموت آت لامحالة، وسيقطَعُ هذا المتاع المؤقت.

الثانية: أن الآخرة آتية وهي دار البقاء والخير العميم والنعيم المقيم لعباد الله الصابرين.

الثالثة: أن الحساب حق وعدل ولايُظلم أحد مقدار فتيل أو مثقال ذرّة، ولاينقص من عمره شيء.

ففيمَ الخوف من الموت، وفيم هذا الجزع والهلع على ملذات الحياة الفانية ومتاعها المؤقت؟ وماذا ينتظر الإنسانُ غير حقه في الحياة، حقه المقدّر من الأزل، بمقدار لايزيد ولاينقص فتيلاً؟ ثم لايبقى له إلا العمل الصالح الذي يُكتَبُ له عند الله فينال ثوابه ولايظلم فتيلاً ومنه القتال والجهاد في سبيل الله، فلاغَبْنَ ولابَخْس؛ وإذا فاته شيء من متاع الدنيا الفانية، فهناك الآخرة الباقية وهناك الجزاء الأَوْفَى بعد الحساب العادل للدنيا والآخرة جميعاً.. ولئن تظاهر الذين كفروا على المؤمنين بالقوة المؤقتة وبزخرف الحياة الدنيا فإنّ الله سيسلبهم قوتهم، وسيغلبهم، وإلى مصيرهم في النار سيقلِبُهم ﴿قُلْ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران: ١٢/٣] ﴿مَتاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧/٣].

بَ - النوع الثاني المحقق للهدف الثالث: **الإجابة عن أسئلة المؤمنين** التي تهدف:

أً - تارةً إلى **الاستفسار عن بعض ماخلق الله:** في الكون، ويغلب أن يحكي لنا القرآن السؤال، ثم يأتي الأمر بالجواب ومعه نصائح ربّانية تتعلق بموضوع السؤال مثل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَواقِيتُ لِلنّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩/٢] مواقيت للناس يعرفون بها موعد حجهم وإحرامهم، وصومهم وفطرهم، ويؤقتون بها لنكاحهم ومواليدهم، ومعاملاتهم وتجاراتهم وديونهم، فهذا الجواب يأتي من واقع حياتهم العملي، ولايَتَوَجَّهُ إلى مجرد العلم النظري كالبحث عن الدورة الفلكية؛ لأن هذه الإجابة العلمية النظرية لم تكن العقول البشرية مهيأة لها آنذاك. ولم تكن تفيد هذه الأمة في تحقيق المنهج الإلهي بما فيه: من العبادة والاحتفاء بالمواسم والأعياد التي شرع الله العبادة فيها. أما النصيحة المتعلقة بموضوع السؤال والتي يصحح بها الوحي بعض العادات الجاهلية المتعلقة بالحج، فهي قوله تعالى في تتمة الآية: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِها وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩/٢] فقد كانوا[١] إذا أحرموا في الجاهلية أتوا بيوتهم من ظهورها، فأنزل الله ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ...﴾. وكانوا يعتقدون أن هذا هو البر -أي الخير والإيمان- فجاء القرآن ليمحو هذا التصور الباطل، وينهى عن هذا العمل المتكلّف، ثم أعطانا التصوّر الصحيح للبر فالبر هو التقوى، هو الشعور برقابة الله في السر والعلن وليس شكلية من الشكليات التي لاترمز إلى شيء من حقيقة الإيمان، لذلك أمرهم الله أن يتقوا الله، ويخالفوا هذه العادة الجاهلية ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

بً - وقد تهدف أسئلة المؤمنين تارةً أخرى **إلى الاستفسار عن بعض شؤونهم** وعلاقاتهم الشخصية أو الاجتماعية ليعرفوا حكم الشرع الإلهي فيها فيأتي الجواب مبيناً حكم الله، كقوله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري برقم ٤٢٤٢ (الباب ٣١ من كتاب التفسير ١٦٤٠/٤) ط. دار ابن كثير ودار اليمامة.

﴿يَسْأَلُونَكَ ماذا يُنْفِقُونَ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتامَى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢/٢١٥].

والسؤال هنا لايعني الاستفسار عن نوعيّة الشيء الذي ينفقونه، وحتى لو كان هذا مقصوداً من بعض السائلين، فإن الجواب يوحي بأنه ليس -في مقياس الإسلام- بالأمر الذي يحتاج إلى إيضاح، فأيُّ (خير) ينفقونه فينبغي أن يصرف إلى أحد هذه الأصناف: (الوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) فالإنفاق عليها يقوي الروابط الاجتماعية، ويزيدها قوة ومتانة، فإن كانت من روابط القرابة والوالدية ازدادت متانة وقوة، وإلاّ فهي روابط إنسانية، كالإنفاق على اليتامى الصغار الضعاف، والمساكين الذين لايجدون ماينفقون ولايسألون الناس، ضنّاً بكرامتهم وتجمُّلاً. ثم أبناء السبيل الذين قد يكون لهم مال، ولكنهم انقطعوا عنه، وحالت بينهم وبينه الحوائل، وهؤلاء جميعاً أعضاء في المجتمع المسلم ماداموا يدينون بعقيدته ويشاركونه آماله وآلامه... والعديد من مثل هذه الأسئلة يدل على يقظة العقيدة في النفوس، ورغبة المؤمنين في معرفة حكمها في كل شأن من شؤون حياتهم اليومية...

كسؤالهم: ﴿عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢/٢٢٢]، وسؤالهم ﴿عَنِ الْيَتامَى﴾ [البقرة: ٢/٢٢٠]، و﴿عن الأنفال﴾ [الأنفال: ٨/١]...إلخ.

٤ـ **الهدف الرابع** من أهداف الحوار الموجه من الله إلى رسوله:

الرد على المشركين والمنافقين وأهل الكتاب ودحض حججهم الباطلة:

ويأتي الرد، من غير أن يوجه هؤلاء المشركون، أو أهل الكتاب أيّ سؤال، بل يأتي تعليقاً على بعض ادّعاءاتهم وأقوالهم التي يلخصها لنا، أو يسردها الوحي، كما في قوله تعالى: ﴿وَقالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصارَى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ﴾ [المائدة: ٥/١٨].

وهكذا زعموا لله أبوّة -سبحانه وتعالى عما يقولون- وادَّعوا أنهم أبناء الله وأحبّاؤه، فلن يعذّبهم بذنوبهم، ولن يدخلوا النار إلا أياماً معدودات! وفي هذا اتّهام

لله تعالى بأنّ عدل ا لله لايجري مجراه! وأنه -سبحانه- يحابي فريقاً من عباده، فهم يفسدون في الأرض، ثم لايعذبهم عذاب المفسدين الآخرين! فأي فساد في حياة البشرية يمكن أن ينشأ عن مثل هذا التصور المنحرف؟ ولكن القرآن يواجههم بالحقائق الحاسمة، والحجة الدامغة: بالمبدأ العام المقرر في كتبهم، والمنزل على أنبيائهم، وهو أن المذنب -أياً كان ـ سيلقى جزاءه الموافق لذنبه من غير استثناء ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾؟.

وقد قرر ا لله في موضع آخر في القرآن هذا المبدأ، أو بيّن في الصحف التي أنزلها على إبراهيم وموسى فقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى ، الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾ [الأعلى: ٨٧/١٠-١٢].... ثم أخبرنا في آخر السورة أن محتواها في الصحف الأولى... ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: ٨٧/١٨-١٩].

وهكذا يقرر ا لله -بهذا الرد الذي أوحاه إلى النبي ﷺ في الرد على ادعاء أهل الكتاب- الحقيقة الحاسمة في عقيدة الإيمان إذ يقرر بطلان نسبة الأبوّة إلى ا لله، وبطلان نسبة البنوة لله إلى أي كان من البشر فليس لله أبناء أبداً، ولاأحبّاء يخصهم بالمحبة دون سواهم دون مرجّح يتعلق بسعيهم وإخلاصهم...

رابعاً- أهم أهداف الحوار الخطابي الموجّه إلى (الذين آمنوا):

تمهيد:

الإيمان نعمة عظيمة ومكانة عالية عند ا لله يهبها ا لله لمن يستحقها من عباده، ولذلك جعل ا لله هذا الخطاب العظيم والنداء الكريم يبدأ به الآيات التي يدعو بها عباده المؤمنين إلى كريم الصفات، وعظائم الأمور، وأرقى التشريعات، وإلى التحلّي بالصفات الاجتماعية الحميدة، ونحو ذلك من الأمور التي يرغب فيها المؤمنون، بل يحبذها ا لله لعباده المؤمنين ليزدادوا إيماناً.

١ً- الهدف الأول دعوة المؤمنين إلى مايقوّي إيمانهم:

ولما كان لهذه النعمة الجليلية هذه المكانة عند ا لله آثرنا أن نبدأ هنا بأعظم هدف من أهدافها، ألا وهو دعوة المؤمنين إلى مايقوّي إيمانهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم. ويتجلى هذا الهدف في عدد من الآيات المبدوءة بهذا (الخطاب العظيم والنداء الكريم) كقوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد. ٥٧/٢٨].

الأمر الأول:

إن في هذا النداء لمسةً خاصة لقلوب المؤمنين، وفيه بعث وإحياء لمعنى الإيمان في هذه القلوب، وتذكير لها برعايته عن طريق تقوى ا لله والإيمان برسوله، والأخذ بثمرة هذا الإيمان بالرسول، ﷺ، عن طريق اتّباعه وتحرّي سنته والعمل بها في كل مظاهر حياة المؤمنين وعباداتهم، ليحققوا بذلك تقوى ا لله: أي اتقاء غضبه ومعصيته بالعمل بسنّة نبيه الذي أرسله ا لله ليطاع بإذن ا لله وليبين لنا مايرضي ا لله ويحقق تقواه... ومع أن رحمة ا لله لاتتجزأ، فقد استحق الذين يحققون هذين المطلبين العظيمين استحقوا ضعفين من رحمة ا لله:

أحدهما: مقابل الخوف من ا لله ومقابل الإخلاص له وتقواه.

والآخر: مقابل مجاهدة النفس في تحرّي العمل بكتاب ا لله وبسنة رسول ا لله الذي بشرنا بأجر عظيم لمن تمسك بها: ((من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر شهيد)).

فهذه رحمة ا لله لمن اتقى ا لله وآمن برسوله.

والأمر الثاني: الذي وعد ا لله به المؤمنين المتّقين المتّبعين لرسوله ﷺ ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾ إنه نور يضيء لهم طريقهم في هذه الحياة الملأى بالظلمات، فيمشون فيها على بصيرة، مرفوعةً رؤوسهم، ثابتةً خطاهم، لايتعثّرون ولايخافون، وقد أضاء نور الإيمان طريقهم إلى هدفهم الذي عرّفهم به الإيمان: إلى تحقيق مرضاة ا لله، والعمل بشريعته والاهتداء بهدي نبيه الذي أرسله ا لله، وأنزل عليه هذا النور ﴿قَدْ جاءَكُمْ مِنَ

اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ٥/١٥-١٦].

أما الأمر الثالث: فهو غاية كل مؤمن يخاف ا لله ويجعل شعاره تقوى ا لله ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إنه مغفرة من ا لله تدل على تجاوزه وتسامحه جل جلاله وصفحه عن كل أخطاء المؤمنين، وعن التقصير الذي يلازم كل إنسان حتى لو عرف طريقه إلى ا لله، فلابد من هفوات وزلات تلازم هذه الطبيعة البشرية، كما أنّ هذه المغفرة تلازم الرحمة الإلهية وتلازم الفضل الإلهي الذي جعله ا لله لجميع عباده المؤمنين الأوّابين إلى ا لله المستنيرين بنوره، المهتدين بكتابه وقرآنه وسنة نبيه، وقد كان أهل الكتاب يزعمون أن هذا الفضل محصور فيهم وأنهم شعب ا لله المختار وأنهم أبناء ا لله وأحباؤه فرد ا لله عليهم بقوله: ﴿لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتابِ أَنْ لا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٥٧/٢٩].

أي ليعلم أهل الكتاب أنهم لايستطيعون ردّ فضل ا لله عن أحد، ولاضمان ثواب ا لله لأنفسهم. فهذا الفضل والمغفرة المؤدية إلى الجنة بيد ا لله يؤتيه لكل من يستحقه من عباده المؤمنين المتقين، المستغفرين، المزوّدين بالعمل الصالح المستنيرين بنور ا لله. وهذه هي نتيجة الإيمان الذي يدْعو إليه هذا النداء والخطاب الرباني في أول الآية التي بدأنا بها لبيان هذا الهدف العظيم من أهداف هذا الأسلوب الخطابي الموجّه إلى الذين آمنوا...

٢ً- الهدف الثاني دعوة المؤمنين إلى تكوين المجتمع المسلم:

وقد رأينا في مطلع بحثنا عن هذا الشكل الثالث، من أشكال الحوار الخطابي القرآني أن هذا النداء: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عندما يجيء مصحوباً بتوجيهات ربّانية لبناء المجتمع المسلم، أو الاعتصام بمكوّناته أو المحافظة عليه إنما يجيء كذلك ليدل المؤمنين على أن الإسلام لايستكمل منهجه إلا في محيط جماعة منظمة ذات ارتباط متين بالعقيدة، وأن على المؤمنين الأخذ بالأسباب التي يوجهنا إليها ربنا جل جلاله لإقامة هذا المجتمع الإسلامي في سبيل استكمال تطبيق المنهج الرباني في حياتهم.

وقد عرضنا في مطلع بحثنا عن هذا (الشكل الثالث) من أشكال الحوار الخطابي كيف وجَّهنا القرآن إلى وقاية أنفسنا وأهلينا من أخلاق المجتمع الجاهلي المحيط بنا، ومن جميع التيارات والضغوط المسلّطة على الجماعة المسلمة، لتحطيم قِيَمها وروابطها وأخلاقها الاجتماعية الإسلامية، ومن عواقب الانسياق مع هذه التيارات والضغوط أي من عذاب الله وعقابه في نار جهنم: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُها النّاسُ وَالْحِجارَةُ﴾ [التحريم: ٦٦/٦] ونوَّهنا بأهمية البدء ببناء البيت المسلم ليتسنى بناء المجتمع المسلم على هذا الأساس المتين.

وننتقل هنا إلى نداء آخر يوجهنا به ربنا جل جلاله إلى بناء الروابط والقيم الاجتماعية التي يجب ترتيبها والمحافظة عليها والتي لابد منها لبقاء المجتمع المسلم واستمراره وحياته، وذلك في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢/٣] فهاتان رابطتان وهما قيمتان من القيم الإسلامية تربطان بين قلوب المؤمنين: الإيمان والتقوى: فالإيمان بالله، وبرقابة الله، وبرحمة الله، وبنصر الله، وبقَدَرِ الله، رابطة تجمع مشاعر جميع أفراد المجتمع، فالجميع يطلبون رضوان الله، ويخشون غضبه، ويرجون رحمته، ويعتزون بنصره، ويحلّون حلاله، ويُحَرِّمون حرامه، ويحسبون لرقابته عليهم كل حساب.

وجميع أفراد المجتمع يربطهم مصير واحد: الكل مصيرهم إلى ربهم، سيحشرهم إليه جميعاً ليحاسبهم على كل أعمالهم، وسيحكم بينهم في جميع خلافاتهم، فهم يتقون ذلك اليوم الذي سيرجعون فيه إلى الله، وهكذا يلتقي الإيمان والتقوى في شَدّ أَزْر المجتمع، فالإيمان برقابة الله وباليوم الآخر وبالحساب يلزم عنه أن يتقي كل مؤمن من غضب الله لذلك خاطبهم الله بصفة الإيمان، وطالبهم بالتقوى الصحيحة الحقة ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ﴾ [آل عمران. ١٠٢/٣]، ثم طالبهم الله جل جلاله بالثبات على هذا الإيمان والتقوى بلزوم مايلزم عنهما من الاستسلام لأمر الله ماداموا أحياء، ولشرع الله، طاعةً له واتباعاً لمنهجه، واحتكاماً إلى كتابه، ﴿ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وهذه **هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة** لتحقق

كيانها، ومن دون الإيمان والتقوى والاستسلام لشرع الله وكتابه يكون كل تجمّع تجمّعاً جاهلياً، يلتقي أفراده عند تحقيق الأطماع والمصالح والأهواء، ولايتحقق منهج الله الذي تتجمع عليه قلوب الأمة الإسلامية، إنما تتحقق مناهج جاهلية، ولايتحقق الإيمان الذي ينادي الله به المؤمنين... ولكن الاستسلام لشرع الله يحتاج إلى ضوابط مقنّنة تنحصر ضمنها جميع التصرفات والروابط...

وهنا تتّضح لنا **الركيزة الثانية التي تقوم عليها الجماعة المسلمة** في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾ [آل عمران: ٣/١٠٣].

فهذه الأُخُوَّة التي تربط بين قلوب أفراد الجماعة المسلمة أساسها الاعتصام بحبل الله: أي بعهده وكتابه ونهجه ودينه وليست أي تجمع على أي تصور آخر، ولاعلى أي هدف آخر غير مرضاة الله...

هذه الأخوّة نعمة يمنّ الله بها على الذين آمنوا ويذكرهم بما كانوا عليه من الفرقة والعداوة حتى أنقذهم من نار العداوة التي كانت بين الأوس والخزرج، كلما خبت أجّجها جيرانهم اليهود: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها﴾ [آل عمران: ٣/١٠٣] ثم يحضهم على لزوم حبل الله والاهتداء بهذا القرآن وبآيات الله حتى لايقعوا مرة أخرى في نار العداوة والفرقة: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٣].

٣- الهدف الثالث من أهداف الحوار الخطابي الموجه إلى الذين آمنوا:

الاستعانة بالصبر والصلاة على إنجاز متطلبات الإيمان:

يتكرر الحضّ على الصبر والصلاة في القرآن الكريم..، ذلك أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على طريق الإيمان والدعوة إلى الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات وبين شتّى النوازع والدوافع.

ولابد من الصبر في هذا الطريق الطويل الوعر الشائك بشتى أنواع الصبر وصنوفه: لابد من الصبر على الطاعات، والصبر على المعاصي والمغريات، والصبر على جهاد

النفس والمصالح والشهوات، والصبر على المشاقين لله، والصبر على الكيد بشتى صنوفه، والصبر على بعد الشقة، والصبر على انتفاش الباطل وتزيينه، والصبر على قلة الناصر، والصبر على التِوَاء النفوس وضلال القلوب، وثقل العِنَاد، ومَضَاضة الإعراض.

وحين يطول الأمد ويشق الجهد، قد يضعف الصبر، أو ينفد إذا لم يكن هناك زاد ومدد؛ لذلك كله جاءت هذه الآية الكريمة تحضّ المؤمنين على الصبر والصلاة ليستعينوا بهما في الشدائد ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٥٣]، لأن الصلاة هي المعين الذي لاينضب، يجدد الطاقة، والزاد الذي لاينفد، يزوّد القلب بشحنات عظيمة من الإيمان، فيمتد حبل الصبر ولاينقطع، بل يكون مصحوباً بالرضَى والبشاشة.. ذلك أن الصلاة هي الصلة المباشرة بين الإنسان الضعيف الفاني وقوة الله العظيم القائم على ملكوت السماوات والأرض، والمصرّف لجميع أمور البشر، والقادر على كل شيء. وقد وعد الله أن يكون مع الصابرين، ولايخلف الله وعده، فهو معهم إذا استعانوا بالصبر والصلاة. فالصلاة هي سر انطلاق الإنسان من حدود الواقع الأرضيّ الصغير إلى مجال الواقع الكوني الكبير، ثم إلى كرم الله الكريم وقوة العلي العظيم.. لذلك كان النبي ﷺ يكثر من الصلاة إذا حَزَبَه أمر، وإذا كان في الشدة قال: ((أَرِحْنَا بها يابلال)).

وحينما أراد الله أن يختار عبده محمداً، ﷺ، لحمل أعباء الرسالة، وتحمّل عبء الوحي ينزل به جبريل على قلب هذا النبي ذي الخُلُق العظيم، أعدّه لهذا القول الثقيل، ولهذا التكليف الجليل، بقيام الليل وبترتيل القرآن في الصلاة فقال جل جلاله: ﴿يا أَيُّها الْمُزَّمِّلُ، قُمِ اللَّيْلَ إِلاّ قَلِيلاً ، نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ، أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ، إِنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ [المزمل: ٧٣/١-٥].

ومن ثمَّ يوجه الله المؤمنين هنا، وهم بحكم إيمانهم، مرابطون على الثغور، يصمدون لأعداء الله أعداء الإيمان في كل زمان ومكان، يوجههم إلى الصبر والصلاة..، فيناديهم في أول الآية بهذا النداء الحبيب: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم يختمها بهذا الوعد والتشجيع العجيب ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ ليطمئن قلوبهم أنه معهم، يؤيدهم،

ويثبتهم، ويؤنسُهم، ولايتركهم لطاقتهم المحدودة وقوتهم الضعيفة، بل يمدّهم حين ينفد زادهم، ويجدّد عزيمتهم إذا طال عليهم الطريق...

المراحل التربوية:

وتتجلى المراحل التربوية في هذا الخطاب التربوي الرباني بتحليل الآية إلى العناصر التربوية التالية:

١ـ إعداد النفوس بهذا النداء الرباني: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لتلقي أمر ا لله وتكليفه، وذلك بإيقاظ الإيمان في القلوب، وإشعارها بعظمة معناه، وبما يتطلبه من عبادة وصبر.

٢ـ وصية ا لله للمؤمنين أن يستعينوا على مواقف الشدة بالصبر والصلة با لله ومناجاته وعبادته، وقيام الليل والمحافظة على الصلاة، والقيام بها كلما حزبهم أمر عدا استمرار الصلاة المفروضة في أوقاتها..

٣ـ وعد ا لله للصابرين بتأييدهم وتثبيتهم وعداً يؤنسهم ويشدّ عضدهم ويمُدّهم بطاقات تجدد عزيمتهم ويزيدهم قوةً أمام الشدائد...

مثال آخر:

بعد هذا التحليل التربوي لهذه الآية التي توصي المؤمنين ليستعينوا بالصبر والصلاة ننتقل إلى آية أشد توكيداً على الصبر، إنها تأمرنا بالصبر أمراً بل تدعونا إلى المصابرة: أي مجاهدة أنفسنا على الصبر، ومقابلة أعدائنا بصبر أعظم، وأبعد مدًى من صبرهم، مهما أظهروا من الصبر، وهي قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصابِرُوا وَرابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٣/٢٠٠] وبهذه (المصابرة) يظل المؤمنون أصبر من أعدائهم وأقوى؛ فلاينفد صبر المؤمنين على طول مجاهدتهم لهؤلاء الأعداء سواء كانوا أعداء معنويين، من كوامن الصدور كالمغريات والوساوس والشهوات أم أعداء من شرار الناس، الذين يتربصون بالمؤمنين، والمصابرة، ككل فعل يأتي على هذا الوزن، تدل على مقابلة الصبر بالصبر، والدفع بالدفع، والجهد بالجهد، والإصرار

بالإصرار، ثم يكون للمؤمنين عاقبة الشوط، فهم بحكم إيمانهم واستمدادهم العون من الله، أثبت وأصبر من أعدائهم ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤/٤] إن المؤمنين يرجون من الله النصر في الدنيا، ويرجون الثواب في الآخرة لينالوا أعلى الدرجات في جنات النعيم. فلابد من أن يظفروا بإحدى الحُسْنَيين.

ثم يأمر الله المؤمنين بالمرابطة (ورابطوا) وهي الإقامة في مواقع الجهاد، وفي الثغور المعرضة لهجوم الأعداء، حتى لاتغفل عيون الجماعة المؤمنة عن حماية منهجها وأرضها. وقد كانت كذلك منذ أن نوديت لحمل أعباء الدعوة في عهد النبي ﷺ لاتغفل ولاتستسلم للرقاد، لأن أعداءها ماهادنوها قطّ، ولن يهادنوها أبداً في أي زمان أو في أي مكان، فهي لاتستغني عن المرابطة للجهاد حيثما كانت إلى آخر الزمان. ذلك أن الدعوة الإسلامية تواجه الناس بمنهج حياة واقعي يتحكّم في ضمائرهم، كما يتحكم في أموالهم، وفي نظام حياتهم ومعايشهم. وهو منهج خيّر عادل مستقيم، والشر لايستريح للمنهج الخيِّر العادل المستقيم؛ لأن الباطل لايحب الخير والعدل والاستقامة، ولذلك كان أعداء الإسلام من أصحاب الشر والباطل والطغيان لايستسلمون للعدل والمساواة والكرامة، بل ينهضون دائماً، ويأخذون بكل وسيلة لحرب الدعوة الإسلامية، ويجندون معهم المستنفعين المستغلّين الذين لايتخلّون عن منافعهم واستغلالهم، والطغاة المستكبرين الذين لايتخلّون عن طغيانهم واستكبارهم، وماأكثرهم!..

فالمؤمنون حَمَلة الدعوة الإسلامية لابد لهم أن يقبلوا المعركة مع هؤلاء وهؤلاء بكل تكاليفها، ولابد لهم أن يرابطوا، ويحرسوا، ولايغفلوا لحظة واحدة... ويأمرهم الله تعالى بالتقوى في جميع أحوالهم، فالتقوى هي الحارس اليقظ في الضمير، يحرسه أن يغفل أو يضعف أو يحيد عن طريق الحق، إلى هنا أو هناك حيث يترصّده أنصار الباطل بالإغراء أو التهديد، فتقوى الله وخشيته هي التي تمنع صاحبها من الشطط أو الزلل أو الانحراف...

٤ـ الهدف الرابع: تهذيب الأخلاق

﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ

﴿اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ٤٩/١٢]. هذه الآية تبدأ أيضاً بهذا الحوار الخطابي الحبيب ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم تأمر المؤمنين باجتناب أكثر الظن ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ﴾ والاجتناب أقصَى أنواع النّهي، إذ يقتضي الابتعاد كلياً. ومادام[1] النهي منصبّاً على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم فإنّ إيحاء هذا التعبير هو وجوب اجتناب الظنّ السيّئ أصلاً، لأنه لايدري أيّ ظنونه تكون إثماً.

وبهذا الحوار يُطَهِّر القرآن ضمير المؤمن من داخله أن يتلوّث بالظن السيّئ فيقع في الإثم، يطهّره ليدعه نقياً من الهواجس والشكوك فلايُكِنُّ المؤمن لإخوانه المؤمنين إلاّ المودة التي لايخدشها ظن السوء، والبراءة التي لاتلوّثها الرِّيَب والشكوك، ولايُكنّ للمؤمنين إلاّ الطمأنينة التي لايعكّرها القلق وتوقعُ السوء.

وماأروع الحياة في مجتمع بريءٍ من الظنون!

ثم يستطرد هذا النص الموجه (إلى الذين آمنوا) إلى مبدأ آخر يتّصل باجتناب الظنون: ﴿وَلا تَجَسَّسُوا﴾ فالتجسُّس قد يكون هو الحركة التالية للظن الآثم، وقد يكون مُسْتَأْنَفاً غايته كشف العورات والاطلاع على السوءات. (فالقرآن[2] يقاوم هذا العمل الدّنيء ويجتثّه من أصله ليعيش الناس آمنين على أنفسهم، آمنين على بيوتهم، آمنين على أسرارهم، آمنين على عوراتهم، ولايترك أي مبرر لانتهاك حرُمات الأنفس والبيوت والأسرار والعورات).

٥ـ الهدف الخامس: دعوة المؤمنين إلى السِّلم كافّة

يدعو هذا النداء القرآني المؤمنين إلى تحقيق هذا الهدف العظيم بعد أن عَرَض لهم نموذجين من البشر:

أحدُهما: يمثل النفاق الشامل الذي ليس في قلب صاحبه مكان للإيمان.

---

(١) الظلال ٦/٣٣٤٥.

(٢) المرجع السابق ٣٣٤٥-٣٣٤٦.

والثاني: يمثل الإيمان الخالص الذي جعل صاحبه يبيع ماله وكل مايملك في الدنيا من متاع، ليشتري نفسه ويخلّصها من دار الكفر ابتغاء مرضاة الله.

فكان ذلك العرض تمهيداً لهذا الخطاب والنداء الذي نحن بصدده. وإليك ذلك العرض كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى ما فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصامِ ، وَإِذا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسادَ﴾ [البقرة. ٢/٢٠٤-٢٠٥].

فهذا نموذج النفاق يريك مخلوقاً بصورة إنسان يتحدث فيصور لك نفسه مثالاً للخير والإخلاص والحب والترفّع وإفاضة الخير والبر والسعادة على جميع الناس، وكلّما تحدث عن نفسه استفتح كلامه بنحو قوله: ((أشهد الله أني كذا وكذا))، فهو يُشهد الله على مافي قلبه مع أنه ينطوي على اللّدَد والخصومة تملآن نفسه حقداً، فلايبقى فيها ظل للودّ والسماحة، ولاموضع للحب والخير. وإذا راقبت سلوكه حين ينصرف من عندك لم تجد إلاّ سعياً في الإفساد وإلاّ مايعبّر عن طويّة نفسه من النكد والحقد والشر والغدر، كإهلاك كل مايستطيع إهلاكه من ممتلكات الآخرين ومزروعاتهم وإفساد أولادهم وذرّيتهم متسلحاً بكل ماأوتي من تشدّق وتفصح، وإظهار للبلاغة والمعرفة والمكانة ونحو ذلك..

أما نموذج الإيمان الخالص فقد جاء وصْفه في قوله تعالى:

﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبادِ﴾ [البقرة: ٢/٢٠٧] والآية نزلت في صهيب بن سنان الرومي، ذلك أنه لما أراد الهجرة ليلحق بالمسلمين، من مكة إلى المدينة منعه المشركون أن يهاجر بماله... فتخلص منهم وأعطاهم ماله. فأنزل الله فيه هذه الآية ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ اللَّهِ...﴾ فتلقّاه عمر بن الخطاب وجماعة من المسلمين... فقالوا له: ربح البيع. فقالَ: وأنتم بارك لكم وماذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية(١).

(١) تفسير ابن كثير ١/٢٥٤، ط دار المعرفة بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

فهذه الآية بعمومها تصف كل مؤمن خالص الإيمان متجردٍ لله. وبعرض هذين النموذجين في هذه الآيات مُهِّد لهذا النداء الذي وجهه الله للمؤمنين وهو قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨/٢] ليبتعد كل مؤمن عن نموذج النفاق والشر، ويقتدي بنموذج الإيمان الخالص، ويحذر من وسوسة الشيطان، وليذكر دائماً عداوته لجميع المؤمنين ولجميع بني آدم.. ويسفر هذا الخطاب الموجه هنا للذين آمنوا عن دعوة تُوجَّه للمؤمنين ليُخْلصوا أعمالهم لله وليتجردوا من طغيان الشهوات، وغَلَبة الأهواء والمصالح الدنيوية على سلوكهم وكسبهم، حتى تتوافق خطرات نفوسهم واتجاهات مشاعرهم مع مايريد الله بهم، ومايقودهم إليه نبيهم في غير ما تلجلج ولاتردّد: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كافَّةً﴾... استسلموا بكلّياتكم لله استسلام الواثق المطمئن الراضي بمنهج الله وبأوامره. فهذا الاستسلام يدخلكم في عالمٍ كله سِلْم وسلام، وثقة واطمئنان، ورضى واستقرار؛ سلامٌ مع النفس والضمير والعقل والمنطق، وجميع الدوافع النفسية التي يقودها الإسلام متناغمة متساوقة، لانشوز فيها ولاتنازع، إلى أرقى درجات الصحة النفسية وقوة الشخصية. سلامٌ يُظلّل الحياة والمجتمع المستسلم لله بجميع فئاته وأفراده، سلام مع الوجود كله المسيَّر بتقدير الله وقوّته وحكمته وتدبيره، سلام مع كل موجود: سلام في الأرض وسلام في السماء.

هذه بعض معاني (السِّلْم) الذي يدعو الحوار القرآني المؤمنين إلى الدخول فيه. وهو بهذه المعاني يُفيض السلام على قلب المسلم حين يتصور العلاقة بين العبد وربه، وأنها جزء من العلاقة بين الخالق والكون، وبين الكون والإنسان اللّذين يجمعهما الخضوع لرب واحد ولنظام واحد. فالله الذي خلق هذا الكون بالحق وخلق كل شيء فيه بقَدَرٍ وحكمة هو الذي خلق الإنسان، وسخر له مافي الأرض جميعاً، وجعله خليفته في الأرض. ولم يتركه سدًى أو كماً مهملاً كالحيوان والتراب، بل نفخ فيه من روحه وجعل له السّمع والبصر والفؤاد ليتعرّف على حكمة ربّه، وليطيع رسل ربه، وأوامر ربه، وليكون بذلك أميناً على هذه الخلافة التي استخلفه الله، وأعانه عليها بما سخّر له وذلّل له، وبما شرع له من شرائع، وبما أوحى إلى رسله من كتب وأوامر ونصائح

ووصايا، ليأخذ بها الإنسان ويستسلم لها.. وليتكون من مجموع المؤمنين المستسلمين لله مجتمع تربطه آصرة العقيدة، التي تذوب فيها الأجناس والأوطان واللغات والألوان، وجميع الأواصر العَرَضيّة التي لاعلاقة لها بجوهر الإنسان، فَتُكَلِّلُهم العقيدة الإسلامية بالسلام والأمن والرخاء، وبالثقة والرضى والاطمئنان. ثم يأتي الشق الثاني من الآية ليحذر المؤمنين من اتباع خطوات الشيطان. فليس هناك إلاّ اتجاهان: إما طريق الله وإما طريق الشيطان. وبهذا الحَسْم يدرك المؤمن موقفه وأنه ليس مخيراً بين مناهج متعددة، فإذا لم يُسْلِمْ نفسه خالصة لقيادة الله ورسوله وشريعته فقد بدأ بالسير على خطوات الشيطان، فليس هناك حلّ وسط.

وهكذا انطوى هذا الحوار الخطابي الموجه إلى المؤمنين على أمرين: الدعوة إلى الدخول في السّلم كافة، والتحذير من اتباع خطوات الشيطان ثم أتبعهما الله بتذكير يَسْتَجِيشُ الضمائر، ويستثير المخاوف، ويدعو إلى الحذر الدائم، بتذكير المؤمنين بعداوة الشيطان الواضحة البيّنة التي لاينساها إلا غافل، والغفلة لاتكون مع الإيمان. ثم يخوّفهم عاقبة الزلل: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢/٢٠٩]. فلاعذر لهم بعد أن بيَّنَ الله لهم طريق الرحمن وطريق الشيطان. بل إنهم إذا ارتكسوا وزلّوا بعد هذا البيان فقد عرّضوا أنفسهم إلى غضب الرحمن، وهو العزيز القوي القادر على اجتثاثهم من الأرض، أو تسليط أعدائهم عليهم.

ولكنه مع ذلك (حكيم): لايختار لهم إلاّ مافيه خيرهم وسعادتهم، ولاينهاهم إلا عن الشرّ، وعما يعرّضهم للخسارة والبوار، ومن حكمته أنه رؤوف بعباده يؤخرهم إلى أجل مسمى ليحاسبهم على أعمالهم بعد أن يستنفدوا جميع الفرص التي أتاحها لهم وقد بلّغهم رسالة ربهم.

التحليل التربوي:

يمكننا بعد هذا العرض لهذا النداء الرباني الموجه للمؤمنين أن نَتَلَمَّسَ فيه ثلاث مراحل تربوية:

١ـ التمهيد والإعداد النفسي لتلَقي هذا النداء بهذا الأسلوب الربّاني وقد عُرض في هذا التمهيد نموذجان من البشر ليوجهنا النداء إلى خيرهما، ولينهانا عن شرهما.

٢ـ النداء الرباني يوجه المؤمنين إلى الاستسلام لله ولشريعته ولأمره ولرسله ولوحيه وكتبه ولتوجيهه وإرشاده.

٣ـ التحذير من كل مايحيط بالموضوع ممّا يساور المستسلمين لله من المغريات ومن المضلّلات التي يعرضها المغرضون: مناهج ماديّة تُناوئ وتغاير هدي ا لله ومنهجه وشريعته، وتعمل لتضليل المؤمنين عن الدخول في السلم بكافة أمورهم وعلاقاتهم وتفكيرهم وسلوكهم...

٦ـ الهدف السادس: النهي عن الولاء لليهود والنصارى

الغرض من هذا النهي تربية المؤمنين على إخلاص الولاء لله وللرسول، وللعقيدة الإسلامية وللجماعة الإسلامية، وتحذيرهم من عداوة أصحاب الأديان الأخرى وتواطُئهم ضد المسلمين كما في قوله تعالى:

﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارَى أَوْلِياءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيـاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥١].

ولو تأملنا ماورد من سبب نزول الآية، وتأملنا الظروف البشرية والطائفية الخارجية والداخلية التي كانت الدعوة الإسلامية تُعاني منها عند قيامها وخاصة عند أوّل نشأة الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، لعرفنا عظمة الحكمة الإلهيّة في هذا النداء.. فقد كان لليهود من القوة والنفوذ مايدعو إلى الحذر والتحذير والخوف على هذه الدولة الناشئة من كيدهم ومؤامراتهم، كذلك كان لموقف المنافق: عبد ا لله بن أُبيّ بن سلول من ولائه لليهود وقوله: إني رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية مواليّ[1] مايدعو إلى شجب موقفه هذا كما جاء في الآية التي تَلَتْ هذا النداء الرباني الذي يحذّر المؤمنين من الولاء لليهود والنصارى، وهي قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسارِعُونَ

(١) تفسير ابن كثير ٧١/٢، ط. دار المعرفة بيروت (الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

فِيهِمْ﴾ أي في ولائهم ﴿يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنا دائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى ما أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥٢].

والولاية التي نهى ا لله الذين آمنوا أن تكون بينهم وبين اليهود والنصارى هي ولاية تناصر وتحالف معهم. وهذا النهي لايتعارض مع السماح بحسن المعشر والمودة التي أباحها ا لله وسنّها الرسول في تعامُله مع البهود قبل أن يظهروا له على حقيقتهم يوم غزوة الأحزاب..

ذلك أن المسلم مطالب بالسماحة مع أهل الكتاب، ولكنه مَنْهِيٌّ عن الولاء لهم بمعنى التّناصر والتّحالف معهم؛ لأن طريقه في تمكين دينه، الذي ارتضاه ا لله له، وفي تحقيق منهج الإسلام، المتفرّد، في حياته ومجتمعه لايمكن أن يلتقي مع طريق أهل الكتاب؛ ولأن تكتّل أهل الكتاب ضد قيام الدولة المسلمة لايسمح لأي مسلم بموالاتهم، أو التحالف معهم مهما كانت الظروف والأسباب، وهذا مايشير إليه قوله تعالى: ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ ولأنّ أهل الكتاب، مهما تسامح المسلم معهم أو رضي بموالاتهم، فإن هذا التنازل لن يبلغ أن يُرضيهم عنه مادام باقياً على دينه حريصاً على إقامة النظام الإسلامي وتحقيقه في الحياة: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ٢/١٢٠].

ومهما سارع أي مسلم أو مسؤول في موالاتهم وإرضائهم فلن يكفّهم ذلك عن موالاة بعضهم لبعض في حرب المسلمين وكيدهم... فهذا النداء ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصارَى أَوْلِياءَ﴾ هذا النداء الموجّه، حين نزول القرآن إلى الجماعة المسلمة في المدينة، موجّه في الوقت ذاته إلى كل مؤمن وكل جماعة مسلمة تقوم في أي ركن من أركان الأرض إلى يوم القيامة، بحكم القاعدة الأصولية الفقهيّة التي أجمع عليها فقهاء المسلمين والقائلة: ((إنّ العبرة، في آيات القرآن، بعموم اللّفظ، لابخصوص السبب)).

فكل جماعة تنطبق عليها صفة: (الذين آمنوا) من هذه الأمة، قد وَجّه ا لله إليها هذا النداء، وخاطبها بهذه الآيات فوجب عليها الطاعة والاستجابة لأمر ا لله ونهيه

والابتعاد عن موالاة اليهود والنصارى، والمشركين والوثنيين وكل ملّة تخالف دينهم، لأنّ كل من يتولاهم يخلع نفسه من صف المسلمين بانْحِيَازه إليهم ويصبح معادياً لدينه وأمته: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾؛ لأنّ هذه هي النتيجة الطبيعية الواقعية. وإن ظن السُّذَّج أن لَنَا وإياهم طريقاً واحداً نسلكه لنصرة الدين أمام الكفار والملحدين والوثنيين!... فقد أثبت الواقع في كل زمان أنهم دائماً مع الكفار والملحدين حين تكون المعركة ضد المسلمين..!؟ فاليهود من أهل الكتاب هم الذين كانوا يقولون للذين كفروا من المشركين: ﴿هَـٰؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً﴾ [النساء: ٤/٥١] يفضلون المشركين على المؤمنين الموحدين في مجال الهداية والاهتداء إلى الله!.. وهؤلاء اليهود هم الذين ألّبوا المشركين على الجماعة المسلمة في المدينة يوم غزوة الأحزاب، وكانوا درعاً لهم وردءاً. وأهل الكتاب من بلاد أوربا هم الذين شنوا على العرب والمسلمين الحروب الصليبية خلال مئتي عام، وهم الذين ارتكبوا فظائع الأندلس حيث قتّلوا المسلمين أشنع تقتيل. وهم الذين شرّدوا العرب المسلمين في فلسطين، ومكّنوا لليهود فيها، متعاونين مع الملحدين والماركسبين الماديين. ومازالوا يشرّدون المسلمين ويقتّلونهم في كل مكان: في الهند والصومال والسودان والجزائر وفي يوغوسلافيا وكشمير.. وفي كل مكان، بل إن الذي تولى قيادة هذه المعركة بعد هزيمة روسيا في الحرب الباردة، صرح بأنه انتهى من الشيوعية، وبقي أمامه عدو واحد هو العالم الإسلامي والعقيدة الإسلامية وبدأ يفتعل ويصطنع الأسباب الكاذبة للبطش بكل قطر إسلامي ينهج في حكمه نهجاً إسلامياً، أو يتمرد على قيادة أميركا لهذه المعركة الصليبية الأخيرة، لذلك كله حرّم الله على المؤمنين أن يتولّوا اليهود والنصارى، وجعل الذين يتولّونهم مثلهم في عدائهم للمسلمين، وهم ظالمون مثلهم؛ لذلك حرم عليهم الهداية ماداموا يتولّونهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥١].

ثم وصف الله المنافقين الذين في قلوبهم مرض، ووصف مايساورهم من المخاوف على أنفسهم كما رأينا، وعلّق على موقفهم هذا بما ينتظرهم من المفاجآت، وما يفتح الله به على عباده المؤمنين فيندم هؤلاء المنافقون وبفتضح أمرهم: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥٢]

وذلك عندما يأتي أمر ا لله ويقف الجميع للحساب بين يدي ا لله تعالى. وقد يكون أمر ا لله نكسة تصيب المعسكر المعادي للمؤمنين بكارثة أو نزاع بينهم، وعندئذ يستنكر المؤمنون كذب المنافقين، وقد انكشف أمرهم، ويذكّرونهم به، أو يذكُرون ذلك فيما بينهم، أو يذْكُرون ذلك للذين كانوا قد خدعوا بالمنافقين ونفاقهم: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥/٥٣].

ولقد جاء ا لله بالفتح على يد الرسول ﷺ وأصحابه حينما أخلصوا ولاءهم لله، وتكشفت نوايا، وحبطت أعمال، وخسرت فئات، ونحن على وعد من ا لله قائم، بأن يجيء الفتح كلما استمسكنا بعروة ا لله وبدين ا لله، وكلما أخلصنا ولاءنا لله وحده، وكلما حقّقْنَا منهج ا لله، وأقمنا عليه تصوراتنا وأوضاعنا وسلوكنا ومجتمعنا وعلاقاتنا، كما فتح ا لله بالنصر على المجاهدين الأفغان والمجاهدين في الجزائر، فلما تم لهم النصر قامت فئة منهم تحالف أعداء ا لله فجعل ا لله بأسهم بينهم، وتفرقت كلمتهم مرة أخرى، وهذا بلاؤنا نحن المسلمين...!

النداءات القرآنية التي تحذّر من الولاء لغير المؤمنين أو من طاعتهم:

لما كان الولاء لغير المؤمنين، ولزوم طاعتهم يزرع البلبلة، والنكبات والويلات في كيان الأمة الإسلاميّة، بل يهدّ كيانها ويصدّع بنيانها، تعددت النداءات القرآنية في هذا الشكل من الحوار، لتحذّر جميع أفراد المؤمنين من ذلك، نذكر منها:

أ- ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ كافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٠٠].

وذكر السيوطي في سبب نزول هذه الآية[1]، نقلاً عن ابن إسحاق قال: مرَّ شاس ابن قيس، وكان يهودياً، على نفر من الأوس والخزرج يتحدَّثون، فغاظه مارأى من

---

(١) لُبابُ النقول في أسباب النزول للسيوطي بهامش المصحف الشريف (١٣٣-١٣٤) من مطبوعات مكتبة محمد هاشم الكتبي بدمشق.

تآلفهم بعد العداوة، فأمر شابّاً معه من يهود أن يجلس بينهم فيذكّرهم يوم بعاث ففعل، فتنازعوا وتفاخروا حتى وثب رجلان: أوس بن قَيْظيّ من الأوس، وجبّار بن صخر من الخزرج، فتقاولا، وغضب الفريقان، وتواثبوا للقتال، فبلغ ذلك رسول الله، ﷺ، فجاء حتى وعظهم، وأصلح بينهم، فسمعوا وأطاعوا فأنزل الله في أوس وجبّار ومن كان معهما ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ﴾ [آل عمران: ١٠٠/٣] (الآية) وفي شاس بن قيس: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَما اللَّهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩/٣]. ثم حذر الله المؤمنين، وأمرهم بالاعتصام بكتابه بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آياتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١/٣].

بَ- ومن هذه النداءات الموجهة إلى المؤمنين في هذا الصدد، النداء الذي يحذّرهم أن يسلكوا طريق المنافقين، باتّخاذ الكفار أولياء من دون المؤمنين: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤/٤] ثم يحذرهم بطش الله ونقمته: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطاناً مُبِيناً﴾ [النساء: ١٤٤/٤]. يحذرهم بأسلوب الاستفهام، وكفى به أسلوباً رادعاً حينما يطرق قلوب المؤمنين! أتريدون أن تجعلوا -بهذا التصرف المُشين- مجالاً لتسليط غضب الله ونقمته عليكم فتبوءوا بأسْوأ العواقب في الدنيا والآخرة؟!

ثم يذكر الله نهاية المنافقين، إذ يقرر المصير المرعب المفزع المهين الذي سيؤولون إليه في الآخرة: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ [النساء: ١٤٥/٤] ذلك هو المصير الذي جعله الله لهم جزاءً وفاقاً، فكما أنّ المنافقين اثّاقلوا إلى الأرض والتصقوا بترابها ومكاسبها حينما دُعوا إلى الله وإلى الجهاد في سبيل الله، كذلك اثّاقلت بهم خيانتهم وموالاتهم الكفار، إلى الدرك الأسفل من النار، ليذوقوا وَبال الحرص والحذر والضعف والخَوَر، والمطامع التي هبطت بهم إلى هذه الخيانة، فأصبحوا مهينين حَيَارَى بين موالاة الكافرين ومداراة المؤمنين!! وإذا كانوا في الدنيا يوالون الكافرين ليجدوا عندهم سنداً وناصراً إذا أصابتهم دائرة فمن ذا الذي ينصرهم

من بطش الله يوم لاحُكْمَ إلاّ حُكْمُه؟ ﴿وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾ فليذوقوا العذاب والهوان! وإياكم أيها المؤمنون أن تنزلقوا إلى طريقهم في موالاة الكافرين لئلا تنتهي بكم إلى مصيرهم الذي سينتهون إليه ماداموا على هذه الطريق.

جـ- ومن النداءات القرآنية التي تحذّر من طاعة الكفّار: النداء الذي وجّهه الله إلى المؤمنين إبّانَ غزوة أحد؛ حين انتهز الكفّار والمنافقون واليهود في المدينة ماأصاب المسلمين من الهزيمة والقتل والقَرْح[1]، ليثبطوا عزائمهم وللعمل على بلبلة القلوب وخلخلة الصّفوف وهدم كيان الجماعة المسلمة وهدم كيان العقيدة الإسلامية في القلوب، ثم الاستسلام للمشركين.. هنالك أرسل الله هذا النداء يحذر المؤمنين أن يطيعوا الذين كفروا ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ ، بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٤٩-١٥٠] فطاعة الذين كفروا عاقبتها الخسارة المؤكّدة والانقلاب على الأعقاب إلى الكفر. فالذي لايتحرك ولايسعى إلى الأمام، إبّان المعركة، في سبيل نصرة دينه؛ لابد أن يرتد إلى الكفْر، لأنه أبى أن يكافح الكفر والشر والضلال والباطل والطغيان. إنها الهزيمة الروحية: أن يَرْكَنَ صاحب العقيدة إلى أعداء عقيدته، ويستمع إلى وسوستهم، ويطيع توجيهاتهم.

وإذا كان الدافع إلى طاعتهم اللجوء إلى سند يحمي، فلاقيمة لحمايتهم أمام ولاية الله وحمايته ونصره ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥٠] والأسلوب الرباني في الحماية يقوم على الهجوم وزعزعة الأعداء حتى تنخلع قلوبهم من الأعماق، من الرعب: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً وَمَأْواهُمُ النّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٣/١٥١] وكذلك يثبت الله قلوب المؤمنين ويبشرهم؛ ويبين لهم أن النار هي مصير أعداء الإسلام ومثواهم الأخير.

ولكن المجال مفسوح أمامهم ليغيروا طريقهم ولينتهوا عن نفاقهم، ورحمة الله ومغفرته لايمكن أن تحجب عن التائبين الراجعين إلى ربهم، وإلى طريق الحق والإيمان

---

(١) القرح: الجراح (مختار الصحاح) مرجع سابق.

وإخلاص الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، لذلك جاء الاستثناء يدعو المنافقين إلى التوبة وإصلاح سلوكهم ونواياهم والاعتصام بحبل الله دون سواه: ﴿إلاّ الّذِينَ تابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا باللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾ [النساء: ٤/١٤٦] فهذا النداء أو الخطاب الرباني للمؤمنين يمكن تحليله مع ماتبعه من توجيه وتحذير إلى المراحل التربوية التالية:

١ً- نهي المؤمنين وتحذيرهم من موالاة الكافرين، أو مناصرتهم والتحالف معهم.

٢ً- تحذير المؤمنين، وكلّ من تسوّل له نفسه موالاة الكافرين، من بطش الله وسلطانه وغضبه ونقمته.

٣ً- ذكر مصير المنافقين يوم القيامة لردعهم عن نفاقهم، ولتحذير المؤمنين من النفاق حتى لاينتهوا إلى مصير كمصير هؤلاء المنافقين إذا فكروا -مثلهم- بموالاة الكافرين...

٤ً- إفساح مجال التوبة والرجوع إلى الله أمام كل من ابْتُلِي بالنّفاق، والتنويه بالأجر العظيم الذي أعدّه الله للتائبين المخلصين المنضمّين إلى المؤمنين الصالحين بسلوكهم وولائهم واعتصامهم بالله، وهذه التوبة والاعتصام بالله أهم النتائج السلوكية التي يرمي هذا الأسلوب إلى تربيتها مع الاستقامة على اتباع أوامر الله، وهذا مايعنيه الاعتصام بالله إلى جانب إخلاص التوكل على الله، والاعتقاد بأن النصر بيد الله، وأن الأمر كله لله.

خامساً- أهم أهداف الحوار الخطابي الموجه إلى الناس:

١ً- دعوة الناس إلى تقوى الله وتخويفهم من أهوال يوم القيامة:

ومثاله قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ٢٢/١] تبدأ هذه الآية بالنداء الشامل للناس جميعاً، يأمرهم بتقوى الله أي الخوف منه واتقاء غضبه وعقابه باتباع هذا القرآن والعمل بشريعة الله. ثم يخوفهم من أهوال يوم القيامة ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ٢٢/١] فيصفه أولاً وصفاً غامضاً مبهماً،

فيبدأ وَصْفَهُ بالتجهيل الذي يلقي ظلاًّ من الهول يَقْصُر عن تعريفه التعبير فهو: أمر خطير عظيم والزَّلزلة والرَّجفة من صفات يوم القيامة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦/٧٩] وهي الزلزلة الأولى ﴿تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٧/٧٩] وهي الزلزلة الثانية وكقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبالُ وَكانَتِ الْجِبالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ [المزمل: ١٤/٧٣]، أي تصبح الجبال رملاً سائلاً مما أخرجت الأرض من حمم البراكين.

ثم يأتي التفصيل، يصف أحوال الناس في ذلك الهول العظيم، وتحت الأنقاض المتطايرة والحمم المبعثرة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى وَلَكِنَّ عَذابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢/٢٢].

فإذا بهذا التفصيل، أشد رهبة من ذلك الإجمال والتهويل. إنه مشهدٌ حافلٌ بكل مرضعةٍ ذاهلة عن رضيعها، تنظر ولاترى، وتتحرك ولاتعي، مشهد حافلٌ بكل امرأة حُبْلى تُسْقِط حمْلها من شدة الهول المروع الذي انتابها، مشهدٌ حافلٌ بالناس سُكارى وماهم بسُكارى؛ يتَبَدَّى السكر في نظراتهم الساهمة الذاهلة، وفي خطواتهم المترِّنحة وهاماتهم المتمايلة التي فقدت توازنها..

هذا هو النداء الإلهي يطالب الناس جميعاً أن يتقوا ربهم ويحذروا مصيرهم في ذلك اليوم الرهيب، يوم يُبعث الناس ليُرَوا أعمالهم ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٩٩/٧-٨].

وفي ظل هذا الهول المروّع يأتي النداء الثاني من ا لله إلى الناس ليبرهن لهم أن البعث حقيقة واقعة، وأن ا لله يخلق الناس ويبعثهم في ذلك الهول المرعب كما خلقهم أول مرة. فإلى الهدف الثاني من أهداف هذا الحوار.

٢ـ الهدف الثاني: أن يبرهن للناس أن البعث آت لاريب فيه... وأن ا لله سيبعثهم كما خلقهم كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ

لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْها الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٢٢/٥].

وقد جاء التمهيد لهذا النداء الرباني في الآ يتين الواردتين قبله: ﴿وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطانٍ مَرِيدٍ ، كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلاّهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٢٢/٣-٤].

فهذا الجدال في ا لله، سواء في وجوده تعالى، أو في توحيده بالألوهية والخضوع له وحده، أو في قدرة أيّ صفة من صفاته، هذا الجدال الصادر عن المجادلين (بغير علم) هو جدال التطاول، والضلال الناشئ من اتّباع الشيطان، وهو جدال عاتٍ يصدر عن الهوى، وهذا الجدال استوجب أن يبرهن الوحي للناس على البعث، ليبين لهم أنه حق، وأنه واقع لامحالة ولو كره المجرمون، وليهديهم إلى الحق، وإلى العمل الصالح لكي يلاقوا به وجه ربهم يوم يبعثون، وهو راض عنهم.. إن البعث إعادة لحياة كانت، فهو في تقدير البشر، أيسر من إنشاء الحياة، لذلك فإن القرآن يأخذ البشر بمقاييسهم ومنطقهم، فيوجه قلوبهم وعقولهم إلى تدبّر المعهود والمشهود؛ وكأنّ الحقّ يقول لهم: إن كنتم في شكٍّ من أنكم تبعثون يوم القيامة فاسألوا أنفسكم: ماأنتم؟ من أين جئتم؟ وكيف كنتم؟ وفي أيّ الأطوار مر كلٌّ منكم؟) ﴿فَإِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ﴾ فإذا أنتم بشر ذوو خلق وتقويم سويّ. فأين التراب من ذلك الخَلْق السَّويِّ المركب الفاعل المستجيب، الذي يضع قدميه على الأرض، ويرفّ بقلبه إلى السماء، ويحلّق بفكره وراء المادة والتراب؟..؟

إنها نَقْلَة عظيمة بعيدة الآماد، تشهد بالقدرة التي لايعجزها البعث! وهي القدرة التي أنشأتك أيها الإنسان من تراب! ﴿ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهذه نقلة تضمر في طياتها السرّ الأعظم، سر الحياة التي أودعها ا لله في النطفة! فأين التراب الهامد والنطفة، وهي ماء الرجل يصبّ في الرحم، والنقطة الواحدة من (هذا الماء) تحوي ألوف

الحيوانات المَنوية، وحيوان واحد منها هو الذي يلقّح البويضة من ماء المرأة في الرحم، ويتّحدُ بها فَتَعْلَقُ في جدار الرحم... وفي هذه النقطة العالقة بجدار الرحم تكمُنُ جميع خصائص الإنسان المقبل: من صفاته الجسديّة من طول أو قصر، وضخامة أو ضآلة، وقبح أو وسامة... وصفاته النفسية من ميول ونزعات وطباع واستعدادات، وبلادة أو ذكاء...

فمن يتصوّر أو يصدّق أن ذلك كله كامن في تلك النقطة العالقة؟..! إنها ثمرة النطفة التي أودع الله فيها جميع هذه (الأمشاج): (أي الأخلاط) كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [الإنسان: ٢/٧٦].

ثم يتم التحوّلُ من العلقة إلى المضغة، وهي قطعة من دم غليظ لا تحمل سمة ولاشكلاً، فإما أن تتحول إلى هيكل عظمي يُكْسَى باللحم، وإما أن يلفظها الرحم قبل ذلك إن لم يكن مقدّر لها التمام؛ لنبين لكم دلائل القدرة الإلهية بمناسبة تَبيُّنِ الملامح في المضغة، وتقدير الحياة أو عدم الحياة للمضغة: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ فما شاء الله أن يتم تمامه أقره في الأرحام حتى يحين أجل الوضع حيث يخرج الجنين من بطن أمه طفلاً: ﴿ثُمَّ نُخرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ [الحج: ٥/٢٢]... ومأأبعد الفرق بين النطفة التي لاتُرَى بالعين المجردة وبين الطفل هذا المخلوق البشري المعقد المركب ذي الأعضاء والجوارح، والسّمات والملامح، ومأأعظم وأدق المراحل التي يمر بها تطوُّر هذا المخلوق حتى يصبح طفلاً سويّاً! إنها القدرة الإلهية القادرة – يأيها الناس– على بعثكم كما أنشأكم ربكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث، وكما طوّركم بعدما أخرجكم طفلاً..

فدلالة هذه الأطوار على البعث دلالة مُزدَوِجة، فهي تدل على البعث من حيث إن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة. وهي تدل على مابعد خروج الناس من الأرض عندما يُنْفَخُ في الصور لأن الإرادة المدبّرة تكمل تطوير الإنسان بعد خروجه، في الدار الآخرة، فتُعدّه للخلود في النعيم أو في العذاب، بعد أن أعَدَّته للحساب.

وهكذا تلتقي نواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء.. وتشهد كلها بوجود الخالق المدبّر وبأن البعث حق لامراء فيه وأن الساعة لاريب فيها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٦-٧].

التحليل التربوي لهذا النداء الرباني الموجّه إلى الناس:

يمكن استقراء المراحل التربوية في هذا المثال على النحو التالي:

١ـ مهّد الوحي لهذا النّداء الرباني بعَرض لمحة عن المجادلين في الله بغير علم، في الآيتين السابقتين له، ليأتي النداء إنقاذاً وتحذيراً من الوقوع في ذلك الضلال.. وتربيةً للنفوس على ألا تقبل أمراً في عقيدتها إلا بعد البرهان عليه والاطمئنان إلى صحته.

٢ـ ثم جاء البرهان بالمقارنة بين البعث وهو إعادة الحياة إلى الرُّفات، وبين الخلق الأول وهو إنشاء الحياة كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[ق: ٥٠/١٥] فأراد البيان الإلهي أن يزيل هذا اللَّبْس بهذا النداء الرباني ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنّا خَلَقْناكُمْ..﴾.

٣ـ المرحلة الثالثة: استخراج الدلالة من هذه المقارنة وبيان قدرة الله الذي وهب الحياة للإنسان، وطوّره في بطن أمه على إعادة خلقه وتطويره يوم القيامة، وإعداده للحساب ثم الخلود إمّا في النعيم وإمّا في العذاب.

٣ـ الهدف الثالث: دعوة الناس إلى عبادة الله وتوحيده وتنزيهه عن الشركاء والأنداد

ويتجلّى هذا الهدف في قوله تعالى:

﴿يا أَيُّها النّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١-٢٢].

إنه النداء من الله إلى الناس كلهم لعبادة ربهم الذي خلقهم والذين من قبلهم. وهو الذي تفرد بالخلق، فيجب على المخلوقين أن يفردوه ويوحدوه بالعبادة، وليحققوا

الهدف الذي خلقوا من أجله، وليحققوا سعادتهم ونجاتهم في الآخرة من عذاب ا لله إذا اتّقوا غضبه، وابتعدوا عما حرم ا لله عليهم من الشرك. فالإنسان ماخُلِق إلاّ ليعبد ا لله ﴿وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥١/٥٦] وأرسل ا لله رُسُله ليدلّوا الناس على أسلوب عبادة ا لله، وطاعته وتحقيق منهجه وشريعته على الأرض، ثم يحشرهم إليه، فإن كانوا من المتقين نجوا من عذاب يوم القيامة. فهذا أعم وأشمل معنى للتقوى. وهي الهدف من العبادة فا لله يأمر الناس جميعاً بعبادة ربهم وتوحيده ليتّقوا عذابه يوم القيامة ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢١].

ثم يعدّد ا لله بعض نعمه التي تستوجب توحيده وتنزيهه عن الشركاء: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِراشاً وَالسَّماءَ بِناءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢/٢٢].

وأول نعمة ينساها الناس، لطول ماألفوها، هذا التوافق الذي جعله ا لله في الأرض ليمهّد لهم وسائل العيش عليها، وماسخّره ا لله لهم فيها من وسائل الراحة والمتاع. ولولا هذا التوافق ماقامت حياتهم على هذا الكوكب. حتى إنهم أصبحوا حين يريدون الخروج من الغلاف الجوي للأرض في الأقمار والمحطات الفضائية، يأخذون معهم من غازات الأرض مايتنفسونه لاستمرار حياتهم ومن الثياب مايحفظ دماءهم وجلودهم من التمزق حين يخسرون الجاذبية الأرضية والضغط الجوي، بخروجهم من نطاق هذا (الفراش الغازي) المريح، الذي جعله ا لله لهم على سطح الأرض.. ولو فُقِد عنصر واحد من عناصر الحياة -في هذا الكوكب (الأرض)- ماعاش هؤلاء (الناس) في غير هذه البيئة التي جعلها ا لله كفيلة بحياتهم. بل لو اختلت نِسَبُ عناصر الهواء الذي يتنفسونه لشق على (الناس) أن يلتقطوا أنفاسهم حتى لو قُدِّرَتْ لهم الحياة..

ثم يذكر ا لله نعمة أخرى ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ فهذا الماء الذي ينزله ا لله من السحب التي نراها في السماء حسبما تراها أعيننا ونحن على سطح الأرض هذا الماء منه تنشأ الحياة: حياة الزروع والأشجار اللَّذَيْنِ نأكل

منهما الحبوب والثمار، وحياة الإنسان والحيوان اللّذين لايعيشان من غير ماء، فهذه النعم يعود الفضل فيها إلى الخالق، إلى الله. ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وتعرفون هذه النعم العظيمة التي تعيشون بسببها وتستمتعون بها، وتعلمون أنه -سبحانه- حين خلقكم وسخّر لكم هذه النعم لم يكن له شريك يساعد، ولاندٌّ يعارض، فكيف تجعلون له أنداداً تعظّمونها أو تعبدونها مع الله، أو تشرّع لكم من دون الله فتطيعون[1] شريعتها وتتركون شريعة الله؟! أو تتخذون مع الله أولياء توالونهم وتخافونهم كخيفة الله؟! وتتركون ولاءكم لله ولدين الله؟!

٤ـ الهدف الرابع تحذير الناس من البغي والشرك بالله ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾[يونس: ١٠/٢٣]

رأينا في الهدف الثالث، البرهان بالخلق والقدرة على وجوب توحيد الله.ومن خلال دراسة هذا الهدف سنرى البرهان بالفطرة، أي بميل (الناس) الفطريّ، عند نزول الشدائد والكوارث، للّجوء إلى الله وحده، ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ ، فَلَمّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّها النّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٠/٢٢-٢٣].

يبدأ التمهيد لهذا النداء الرباني بتقرير القدرة الإلهية التي تسيطر على أقدار الكون وتحركاته بكل مافيه، من نجوم وشموس، ومنها أرضنا ببحارها وبرّها وكل ماعليها من البشر والدواب، ثم يعرض القرآن مشهداً من المشاهد الدالّة على إحاطة القدرة الإلهية

---

(١) أثبتنا بالدليل القاطع من القرآن والسنة أن الطاعة لغير شريعة الله هي من الشرك ومن عبادة غير الله عندما استنبطنا **العناصر التربوية التي يتكوّن منها الحوار القرآني** في مطلع الكتاب وذلك من خلال تحليلنا التربوي للحوار الذي جرى بين عدي بن حاتم وبين رسول الله ﷺ.

بالإنسان وهو في البحر. إنه مشهد الفلك المشحونة بالناس على ظهرها تتحرك رخاء، وتجري مطمئنة، فيفرح ركابها. وبينما هم في هذا الفرح والأمن والرخاء ﴿جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ﴾ بتدبير الله عز وجل ﴿وَجاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ﴾ وترنحت الفلك، واضطربت بمن فيها، ولاطمها الموج ورفعها وخفضها، وشالها وحطّها، ودار بها كالريشة في مهب الريح، وأصبح رُكّابها في فزع، يظنون ألاّ نجاة لهم ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ فلامجال للخلاص.

وفي وسط هذا الهول المتلاطم انقشع عن فطرتهم كل ماألَمّ بها من أوشاب، وزال عن قلوبهم ما ران عليها من تصوّرات زائفة، وصارت تنبض بالتوحيد، بإخلاص الدينونة لله وحده، وأخذوا يستغيثونه لينجيهم ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢/١٠] لقد شعروا عندما استيقظت فطرتهم الصحيحة السليمة بوجوب شكر الله واللجوء إليه بإخلاص ووفاء. وغاب عن عقولهم ومشاعرهم كل من كانوا يدعون من دون الله كما قال تعالى: ﴿وَإِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاّ إِيّاه﴾ [الإسراء: ٦٧/١٧] وهذه حقيقة يعرفها كل من عاش في البحار، ولكنْ ما أشد غرور الإنسان بنفسه واعتداده باللحظة التي هو فيها، وماأسرع مايصاب بهذا الغرور ويعود إليه قصر النظر حالما ينجو من التهلكة! فينسَى فضل ربه الذي كان يستغيثه في الشدة: ﴿فَلَمّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٣/١٠] وهنا يأتي النداء الرباني ليزجر الناس عن بغيهم وليبين لهم عاقبة بغيهم ﴿ يا أَيُّها النّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٢٣/١٠] والبغي دائماً عواقبه وخيمة على الباغي أياً كان، سواء كان بغيه على نفسه بإيرادها موارد التهلكة والزج بها في غضب الله ومعصيته، أم كان بغيه على الناس بظلمهم أو التغرير بهم وإيرادهم موارد الهَلَكَة والخسران والندامة.. بقيادتهم إلى الشر والغرور.. ولايتمثل البغي في أبشع ولاأشنع من البَغْي على ألوهية الله سبحانه، وذلك بتأليه غير الله، أو ممارسة القوامة والحاكمية والهيمنة والسلطة التشريعية على عباد الله.. والناس حين يبغون هذا البغي يذوقون عواقبه في الدنيا فساداً في الحياة كلها، فلاتبقى إنسانية ولاكرامة ولاحُرِّيَّةٌ ولافضيلة إلا

وقد أضر بها البغي... ذلك أن الناس إمّا أن يخلصُوا دَيْنونَتَهُم لله معتزّين به، وإما أن يستعبدهم الطغاة. ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ وليست متعة البغي دائمة للبغاة. إنما هي متاع مؤقت في الحياة الدنيا ثم يأتي حساب الآخرة... فكل باغ معرض للموت ثم للبعث والحساب بين يدي الله..

سادساً– أهم أهداف الحوار الخطابي التذكيري: ويمكن تصنيفها بحسب الصيغة التي جاء بها الحوار، ففي الصيغة الأولى نجد أهداف الحوار التذكيري الموجه إلى الذين آمنوا، وأهم هذه الأهداف:

١ـ تذكير المؤمنين بفضل الله الذي ألف بين قلوبهم: مثال ذلك قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً﴾ [آل عمران: ٣/١٠٢-١٠٣].

ففي هذه الآية التي جاءت قبل التذكير ومهدت له، جاء النداء الإلهي يوصي الذين آمنوا بتقوى الله، ولزوم دين الإسلام ومنهج الإسلام الذي ألف الله به بين قلوبهم حتى آخر رمق في الحياة...

والإسلام الذي أوصانا الله بأن نموت معتصمين به: هو الاستسلام لله، طاعة واتباعاً لمنهجه وكتابه؛ وعليه وبه تستمر هذه الأخوّة بين المؤمنين، وتستمر الألفة بين قلوبهم.

فالاتباع والاعتصام بكتاب الله هو الهدف العَمَليُّ المقصود بهذا النداء والخطاب الرباني للمؤمنين.. لتقوم عليه حياتهم الاجتماعية وليكون دستوراً لعلاقاتهم الاجتماعية. وأساسها الأخوّة بين المؤمنين، والشعور المشترك بتقوى الله.. بعد أن كانوا أعداءً تربط أفراد كل فئة منهم العصبية القبلية، لكن هذه العصبيّة هي التي جعلت أبناء كل قبيلة أعداءً لأبناء القبائل الأخرى...ولكي تستمر هذه الألفة التي أَلَّفَ الله بها بين قلوبهم يجب أن يجعلوا شريعة الله هي الحاكمة في كل شأن من شؤون

حياتهم، وبذلك يحققون الاعتصام بحبل الله، وهو الهدف المقصود من هذا النداء، ومن تذكير المؤمنين بنعمة الله الذي ألف بين قلوبهم، وربط بينها بأخوة الدين والإيمان بالله، وبذلك يجتنبون دسائس الأعداء المحيطين بهم من كل جانب يُغْرونهم بتحقيق المصالح الخاصة بكل حاكم ليبقى مناهضاً للحكام الآخرين العرب والمسلمين، أو يهددون كل قطر بالفتن الداخلية، أو بالأعداء المترصدين له في جواره من كل جانب...

ولكن الله لهم بالمرصاد. والله غالب على أمره، كما سنرى في الهدف الثاني من أهداف هذا الحوار:

٢ـ تذكير المؤمنين بنصر الله الذي نجّى به المؤمنين من الحصار بعد اجتماع قوى الشر عليهم: وقد جاء هذا التذكير في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ [الأحزاب: ٩/٣٣].

يبدأ هذا الخطاب الرباني بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم، أن ردّ عنهم الجيش الذي همّ أن يستأصلهم، لولا عون الله وتدبيره اللطيف.

ويطلب إليهم أن يتذكروا هذه النعمة، ليُعْلمهم أن الله الذي يأمر المؤمنين باتباع كتابه، وبالتوكل عليه وحده، هو الذي يحمي القائمين على دعوته ومنهجه من عدوان الكافرين والمنافقين.

وبهذا يرسم لنا هذا النداء الرباني صورة إجمالية لبدء المعركة وختامها مع ذكر العناصر الحاسمة فيها: مجيء جنود الأعداء، وإرسال ريح الله وجنوده التي لم يرها المؤمنون، ونصر الله المرتبط بعلم الله بهم وبصره بعملهم، فالله لاينصر عباده إلا إذا أخذوا بأسباب النصر ونصروا الله، والله بصير بما يعملون، ثم يصوّر القرآن تفاصيل ما أجمله في الآية السابقة ليرينا ماكان من ابتلاء الله وامتحانه لعباده، وليظهر الناس على حقيقتهم فيمتاز المؤمنون من المنافقين: ﴿إِذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ

زاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونا ، هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً ، وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ٣٣/١٠-١٢].

إنها صورة الهول الذي روّع المدينة، فلم ينجُ منه أحد، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطَفَان واليهود من بني قريظة من كل جانب، وعمّ الشعور بالكرب والهول جميع القلوب. ولكن اختلفت استجابة تلك القلوب وظنّها با لله، وسلوكها في الشدة. ومن ثم كان التمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً...

فأما المؤمنون فقالوا: ﴿هَذا ما وَعَدَنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَما زادَهُمْ إِلاّ إِيماناً وَتَسْلِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٢].

وأما المنافقون والذين في قلوبهم مرض فكانوا يُخَذّلون ويُشيعون الرعب ويقولون: ﴿ما وَعَدَنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً﴾ [الأحزاب: ٣٣/١٢] وهم الذين وصفهم ا لله بقوله: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقائِلِينَ لِإِخْوانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا﴾[الأحزاب:٣٣/١٨] يخذلون من استطاعوا دعوتهم إلى التخاذل ﴿وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاّ قَلِيلاً﴾ [الأحزاب: ٣٣/١٨] ﴿فَإِذا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/١٨].

وهذا النموذج من الناس موجود دائماً: شجاع فصيح مدّعٍ حيثما كان هناك أمن ورخاء، يصف المؤمنين الصابرين بالجبن والسذاجة. وهو جبان صامت منزوٍ يخذّل مااستطاع كلما كان هناك شدة وخوف، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير لاينالهم منه إلا سلاطة اللسان. وعلّة ذلك كله أنّ قلبه لم تخالطه بشاشة الإيمان، و لم يَهْتَدِ بنوره، وأنه لم يسلك منهجه. وبعد أن امتحن ا لله الجميع وابتلاهم بالشدة ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً﴾ وميز ا لله المنافقين والمرجفين والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين الصادقين، وأظهر كل فئة على حقيقتها، وأظهر نوايا اليهود وخداعهم ونقضهم العهود، بعد ذلك كله جاء نصر ا لله ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً﴾

من غير قتال أو مبارزة أو حرب أو ضرب: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٥].

ولم تَدُرِ الدائرة على المشركين وحدهم، بل دارت كذلك على الذين نقضوا عهودهم، والذين حالفوا المشركين من اليهود: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً ، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٦-٢٧].

ويمكن تلخيص أهم العبر والأهداف التي نستخلصها من هذا النداء التذكيري الرباني للمؤمنين على النحو التالي؛ فالتذكير الموجّه إلى المؤمنين هو هدف قريب وراءه أهداف اعتقادية واجتماعية منها:

أ – تربية الإيمان بقدرة الله ونصره وتدبيره ولطفه، فهو الذي ردّ عنهم جموع أحزاب المشركين.

بَ– تربية الإيمان بأن الله يحمي القائمين على دعوته ومنهجه من كيْد الكافرين، وغدر المنافقين مهما اشتد البأس، وتواطأ الأعداء إلا أن توجد ثغرة في صفوف المؤمنين تتغلب عليهم أو يسكتون عنها.

جَـ– تربية الإيمان بأن الله يمتحن عباده بالشدائد والمحن ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٨/٣٧]، وليظهر نفاق المنافقين وغدر الغادرين، وليحذروا من كيد المنافقين والأعداء وليستعدّوا لمثلهم في كل زمان ومكان ولئلا يغتروا بالمظاهر البراقة ومعسول الكلام، وهو دأب المنافقين دائماً.

دَ – تعريف المؤمنين ببعض طباع المنافقين واليهود ليبقوا حذرين منهم، وليتعاملوا معهم على أساسها.

هَـ – تربية الاعتزاز بقوة الله التي تضمحلّ أمامها كل قوة أخرى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَ- تربية الصبر على الشدائد والإيمان بأن العاقبة للمؤمنين الصابرين، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصابرين المؤمنين..

أما الصيغة الثانية: (النداء التذكيريّ الموجه إلى الناس) فقد شرحناها على أساس أهدافها، ويمكننا هنا تلخيص تلك الأهداف بعناوينها وبالآيات الدالة عليها على النحو التالي:

١ً- تذكير الناس بأن الله هو وحده خالقهم فيجب أن يكون معبودهم من غير ندّ ولاشريك كما في قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها النّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ فَأَنّى تُؤْفَكُونَ؟﴾ [فاطر: ٣/٣٥].

٢ً- تحذير الناس من تغرير الشيطان وكيده: ﴿إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً﴾ [فاطر: ٦/٣٥].

٣ً- مطالبة الناس بالعمل لليوم الآخر، وعدم الاغترار بالحياة الدنيا: ﴿يا أَيُّها النّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا..﴾ [فاطر: ٥/٣٥].

سابعاً – أهم أهداف الحوار التعريضيّ:

أ – التعريض بأعداء الدعوة الإسلامية وزعمائهم، وذلك بذكر صفاتهم المذمومة المشينة كالكذب والافتراء والمداهنة، بأسلوب يكشف حقارتهم وينفر الناس عنهم وعن باطلهم، وعن صفاتهم المهينة. كما في قوله تعالى: ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ، وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ، وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاّفٍ مَهِينٍ ، هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ ، مَنّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ، عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/٨-١٣].

أما الصفات التي حذرنا الله منها، بهذا التعريض، فهي أهداف فرعية أهمها:

أً – التحذير من المداهنة فقد كشف الله لنا عن حقيقة حال هؤلاء المكذبين الذين يكذّبون بيوم الدين، ويكذبون بهذا القرآن، ويكذّبون رسول الله، فبيّن لرسوله أنهم مستعدون بل راغبون في المداهنة والتخلي عن كثير من معتقداتهم، في مقابل أن يتخلى

عن بعض مايدعوهم إليه، أو يجعل لهم الزعامة؛ فهم ليسوا أصحاب عقيدة يؤمنون بأنها الحق، وإنما هم أصحاب وجاهة ومكانة وظواهر يحافظون عليها: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾.

إنهم يريدون المداهنة والمساواة حفاظاً على مكانتهم وسمعتهم..! ولامكان -في أمر العقيدة الصحيحة- للمساومة! ولايمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، ولا أن يرضى الإسلام أو نبي الإسلام أو أي داعٍ إلى الإسلام بأنصاف الحلول، ولا أن يتنازل عن أي جزء من عقيدته مهما صغرت وليس في العقيدة صغيرة يمكن التخلي عنها.

بـ- التحذير من كثرة الحلف ومن الهمز والنميمة والغلظة الناجمة عن التعاظم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ، هَمّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ لاتطع هذا الذي يدعوك إلى التنازل والمساومة فهو -وإن كان كبيراً في قومه- مهين ضعيف الثقة بنفسه؛ لذلك يكثر الحلف ليصدّقه أتباعه، ويكثر الهمز لخصومه، يعيبهم ليأخذ سمْت التعاظم والكبرياء لنفسه.. وليُريَ أتباعه أنه مبرأ من هذه الصفات التي يعيب غيره بها، وهو بعدَ هذا كله غليظ ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ ﴿زَنِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/١٢] لصيق في قومه لانسب له فيهم، لئيم معروف بلؤمه وخبثه وكثرة شروره.

جـ- التحذير من الاغترار بالمال والبنين ونحوهما من القيم الماديّة الدنيوية لأنها زائلة، ولاتغني من عذاب الله شيئاً. والمثال على هذا الهدف: التعريض بأحد كبراء قريش الذي كان يعتز بماله وأولاده وبالنعم التي يتبطّر بها، ويطلب المزيد. وقد جاء هذا التعريض في قوله تعالى مخاطباً نبيّه ﷺ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً ، وَجَعَلْتُ لَهُ مالاً مَمْدُوداً ، وَبَنِينَ شُهُوداً ، وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً ، ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ، كَلاّ إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيداً﴾ [المدثر: ٧٤/١١-١٦]. والمعنى خَلِّ بيني وبين هذا الذي خَلَقته وحيداً مجرداً من كل شيء مما يعتز به الآن من مال كثير ممدود، وبنين كثيرين شهود... خلِّ بيني وبينه ولاتشغل نفسك بمكره وكيده، فأنا سأتولى حربه، وينطلق الحسّ هنا مرتعشاً ليتصوّر انطلاق قوة الجبّار القهّار لتسحق هذا المخلوق الهزيل الضّئيل، الذي لايقنع بما أوتي ولايكتفي، بل يطلب المزيد، ولعله يطمع في أن ينزل عليه الوحي، وقد مهد الله له

الحياة والحصول على هذه النعم ويسّرها له تيسيراً، ولكنه كان ممن يحسدون الرسول ﷺ على النبوّة. فرد عليه الوحي بالنهي والزجر: ﴿كَلاّ إِنَّهُ كانَ لآياتِنا عَنِيداً﴾ والذي يعاند آيات ا لله لايستحق المزيد من النعم، بل يستحقّ المزيد من العذاب والمشقة: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً﴾ [المدثر: ١٧/٧٤] سأرهقه في حياته ألواناً من المشقّة والعناء كالذي يسلك طريقاً وعرة صاعدةً إلى قمة جبل شامخ، يُدفع إليها فلايستطيع، وهذا جزاء الذي ينحرف، ويتنكّب طريق الإيمان السهل الميسر. ويستمر الوحي يصف موقفه حين عاد من مقابلة النبي ﷺ وقد سمع منه القرآن، وقيل له: وا لله لايرضى قومك حتى تقول فيه قولاً يعلمون به أنك منكر لما قال. قال تعالى يصفه بسُخرية وازدراء وهو يكدّ ذهنه، ويعصر أعصابه، ليجد عيباً يعيب به القرآن الذي سمعه وأعجب به: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ، ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقالَ إِنْ هَذا إِلاّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ، إِنْ هَذا إِلاّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨/٧٤-٢٥].

ثم يعقّب القرآن بالوعيد المفزع ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ، وَما أَدْراكَ ما سَقَرُ؟﴾ إنها نار جهنم. إنها شيء مجهول أعظم وأهول من أن يُدرك البشر حقيقته! ثم يعقّب بشيء من صفتها أشدَّ هولاً: ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ فهي تكنس كنساً وتمحو محواً فلايبقى وراءها شيء! ثم هي تلوح للبشر كما يلوح الشّبح العظيم المرعب، فتجذبهم إليها في لمح البصر ليذوقوا عذابها وحريقها. هذا بعض الوعيد والعذاب الذي أعده ا لله لمن يقف في طريق الدعوة إلى ا لله، فأين المال والبنون؟ وماذا يغنيان من هذا العذاب؟ وأين الجمع والأصحاب؟ وأين الزّعامة والجاه؟ الكل يفنى، ويبقى ا لله الواحد القهار، وتبقى لنا هذه العبرة نقرؤها في القرآن الكريم.

وهكذا يلمح القرآن للمؤمنين بهذا الهدف التهذيبي الرباني العظيم، هدف التحذير من الاغترار بالمال والبنين، مُبيناً أنها لاتغني صاحبها شيئاً أمام عذاب ا لله يوم القيامة، كما أنه يعرّض -في الوقت ذاته- بزعماء المشركين المعاندين للدعوة إلى ا لله وإلى الحق وإلى عبادة ا لله وتوحيده وكأنّه يقول لنا: إياكم أيها المؤمنون أن تغرّكم الدنيا بمالها وجاهها، كما غرَّرت بهذا المغرور وأمثاله، فجاهروا ا لله بالمعصية، واستهزؤوا بالدعاة

إلى الله. فكان هذا الأسلوب الرباني التربوي الموجه من الله إلى نبيه ﷺ، معرّضاً بهؤلاء الأدعياء المعاندين لدعوته. محذّراً -في الوقت ذاته- لجميع البشر من الانحدار إلى ماانحدروا إليه.

إنه الحوار الخطابي التعريضي القرآني: لامثيل له في أساليب الحوار في العالم ولافي التربية المعاصرة، ولكنه أسلوب فطري يأتي عفو الخاطر دون تكلف...وبعد هذه الأهداف الفرعية التي تنهى عن صفات المجرمين المتكبرين وتنفّر منها.

نعود إلى الأهداف الأصلية:

ب – إيناس النبي ﷺ وشد أزره، حين برّأه الله مما اتّهمه أعداء الله، ووعَدَه بالأجر الموصول، في أول السورة، ووصفه بالخُلُق الرفيع: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ، ما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ، وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٦٨/١-٤] فأنت معروف عند الله وعند العباد بالتّواضع: لاتتكبّر ولاتتعاظم على أحد، وأنت المطيع لربك، المبلّغ الأمين لرسالته. وفي هذا شَدٌّ لأزره ﷺ... ثم يُطَمْئِنُه الله، على مستقبله مع هؤلاء المشركين، إذ يهددهم بافتضاح أمرهم، وانكشاف باطلهم، معرّضاً بهم من خلال خطابه جل جلاله لنبيه ﷺ: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ، بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٦٨/٥-٧].

سترى عن بصيرة ويقين، أيُّكما الذي سيفتنه الله ويمتحنه ليكشف حقيقته. فالله هو أعلم بمن ضل وبمن اهتدى إلى الحق، فلاتبالِ يامحمد بافتراءاتهم وتهمهم الباطلة...

جـ- انطلاق الدعاة من مصدر القوة والثقة

وهكذا يخاطب الله رسوله يبين مصير أعداء الإسلام، ليقف منهم موقف الواثق بالمستقبل وليخاطبهم من مصدر القوة، وقد عرّفه الله بمصيرهم الذي ينتظرهم، كما رأينا في أول مثال حلّلناه عند التعريف بالحوار التعريضي حين عرضنا قوله تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ، إِنَّ لَدَيْنا أَنْكالاً وَجَحِيماً ، وَطَعاماً ذا

غُصَّةٍ وَعَذاباً أَلِيماً﴾ فلهم عند ا لله من التنكيل والعذاب والأغلال والطعام المؤلم مالايعرفه أحد. وهذا الإيناس والدعم المعنوي من ا لله يشمل كل الدعاة إلى ا لله في جميع الأصقاع والعصور، ليعلموا دائماً أن العاقبة للتقوى وأن ا لله معهم وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن الأمور بنتائجها التي ترجى عند ا لله، ولينطلقوا في دعوتهم واثقين بنصر ا لله.

ثامناً– أهم أهداف الحوار الخطابي الموجه إلى الإنسان:

عرضنا هذا الحوار من خلال بيان أهدافه... ونلخص هنا هذه الأهداف، استكمالاً لمحتوى العنوان العام (أهداف الحوار القرآني) وأهم هذه الأهداف:

١ـ تذكير الإنسان بميزاته الإنسانية التي كرمه ا لله بها على سائر المخلوقات على وجه الأرض: خلقه ا لله بيديه وجعله في أحسن تقويم. وعَدَلَه وسواه ونفخ فيه من روحه، يذكّره ا لله بذلك كله ليزجره عن التقصير في جنب ا لله، وعن الاغترار بكرم ا لله دون أي مراعاة لأوامره ودون استسلام لشريعته ومنهجه الذي شرعه لسعادتك أيها الإنسان!..

ويأتي هذا التذكير والزجر بعد وصف مهيب لأهوال يوم القيامة الدالة على قدرة ا لله وجبروته إذ يأتي قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ ، فِي أَيِّ صُورَةٍ ما شاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨٢/٧-٨].

يأتي هذا الخطاب ليقول للإنسان: ألاتخافُ من عقاب ا لله لك يوم القيامة؟ فكيف تغتر بكرمه وتقصر في طاعته؟ بل تشرك معه شركاء تطيعهم في التشريع، أو تأخذ بقوانينهم المخالفة لشريعته؟! وتجاهر ربك بالمعصية؟!

٢ـ الهدف الثاني: تذكير الإنسان بأخطائه ومعصيته، وبرقابة ا لله الذي يحصي عليه كل أعماله ﴿كَلاّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ، وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ ، كِراماً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:٨٢/٩-١٢] وتأتي هذه الآيات جواباً على السؤال المطروح على الإنسان، واستكمالاً لذلك الخطاب الموجه إلى الإنسان ﴿ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ لتذكّر

الإنسان بغروره بنفسه وتكذيبه بالدينونة، أي الخضوع لله، عز وجل، مع أنه خاضع لتدبير ا لله الذي يلفُّ الكون، وخاضع في وجوده وموته لتقدير ا لله، فلاهو قد وُجد بإرادته، ولاهو يموت بإرادته، فما فائدة تكذيبه بالدينونة لربه الذي خلقه؟

ب- أهم أهداف الحوار البرهاني:

رأينا من خلال تعريفنا لهذا الحوار أنه يتألف من مجموعة أسئلة وأجوبتها، قد رتبت ترتيباً يؤلف منها برهاناً منطقياً يُلزِم المخاطب أو الخصم المخالف، يُلْزِمُه الإقرار بما يراد إقناعه به، وهدايته إليه، لزوماً منطقياً لاينكره ذو عقل سليم. وهذا يدل على أن البرهان والإقناع هو الهدف الأساسيّ لهذا النوع من أنواع الحوار القرآني، ويتفرع عن هذا الهدف الرئيسي أهداف تدل على الأمور التي صِيغَ هذا الحوار للإقناع بها أو الهداية إليها وأهمها:

أ- **البرهان على وجوب توحيد ا لله**؛ لأن أحداً غير ا لله لايستحق العبادة ويأتي هذا البرهان على أشكال منها:

أ- **البرهان بدليل القدرة والخَلْق**: فهناك أمور لايقدر عليها إلا ا لله، تدل على أنه هو وحده الذي يستحق العبادة. وقد جاء الحوار البرهاني للدلالة على هذا -كما رأينا- بصيغة الحصر في ثلاثة احتمالات: فإما أن الإنسان وُجِدَ من غير خالق وهذا مستحيل عقلاً؛ فلاحادث بغير محدث ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟﴾ وإما أن يدَّعي أنه أوجد وخلق نفسه ﴿ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ؟﴾[الطور:٣٥/٢٥] وهذا مستحيل أيضاً؛ لأنهم كانوا في حالة العدم، وفي هذه الحالة لم يكونوا موجودين حتى يدَّعوا أنهم خلقوا أنفسهم، فالعدم لايخلق.

فلم يبق إلا الاحتمال الثالث: وهو أنَّ لهم خالقاً قادراً حكيماً خلقهم على هذا النحو من السمع والبصر والعقل والهضم والتكاثر والتنفس، وجعل لهم أجلاً تنتهي حياتهم عنده حين تنتهي قدرة أجسامهم على البقاء والتفاعل مع العوامل المحيطة بهم، ولما كانوا مَدِينِينَ لهذا الخالق بوجودهم فهو وحده المستحق لعبادتهم وخضوعهم له.

بً- البرهان بدليل العناية والحكمة والتدبير:

يقوم هذا البرهان على التدليل بعناية الله بالإنسان وماجعل له في السماء والأرض من أسباب الرزق، وماجعل في تكوينه من سمع وبصر، ولاأحد يستطيع ذلك إلا الله.

وقد رأينا ذلك في قوله تعالى، يأمر نبيه أن يسأل الناس عن هذه النعم وعمن أوجدها لهم، ثم يسألهم لماذا لايتقونه ويعبدونه وكيف يُصرَفون عن عبادته؟ قال سبحانه:

س١ ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟﴾ [يونس: ٣١/١٠] بالمطر والنبات والثمار.

س٢ ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ؟﴾ [يونس: ٣١/١٠] يهبها القدرة على أداء وظيفتها أو يحرمها.

س٣ ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ؟﴾ [يونس: ٣١/١٠] يخرج النبتة من النواة؟ والطير من البيضة؟ ويخرجك أنت أيها الإنسان من النطفة؟ وأين كان يكمن العظم واللحم والسمع والبصر، والعقل والنطق من النطفة؟

س٤ ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ؟﴾ [يونس: ٣١/١٠] في ذلك كله؟

ولاجواب لهم إلا أن يعترفوا بالله الخالق المدبّر، -كما رأينا- في البرهان السابق، بطريقة الحصر، لذلك يجيب الوحي﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ ثم يتم الجواب بسؤال:

س٥ ﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ؟﴾ [يونس: ٣١/١٠] أفلاتخشون الله أن يمسك عنكم الرزق أو يكف قدرة السمع والبصر عنكم؟ ثم يتابع تقرير الحقيقة ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ [يونس: ٣٢/١٠].

ثم يقرر بطلان جميع المعبودات الأخرى بهذا السؤال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاّ الضَّلالُ؟﴾ [يونس: ٣٢/١٠]. ثم يسألهم منكراً انصرافهم عن عبادة الله إلى عبادة سواه.

س٦ ﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ؟﴾ وهذا حوار من سبعة أسئلة فيها أربعة أدلة وسؤالان يقرران الحق، وهو وجوب عبادة الله وأنّ كل ماسواه ضلال..

مثال آخر: ومن عناية الله بالإنسان أن جعل له الليل والنهار حين قدّر دوران الأرض حول نفسها وقد سلط عليها أشعة الشمس وضياءها، وقد جاء ذلك في حوار برهاني في الآيات التالية:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ؟﴾ [القصص: ٧١/٢٨] يخاطب الله الناس: يقول لهم: كيف بكم لو فقدتم الضياء ودام عليكم الليل. كيف تستطيعون طلب معاشكم، على فرض أنكم بقيتم أحياء لاتغتالكم هوام الليل أو خفافيش الظلام!؟ فحياتكم كلها تكون معرضة للتلف والبوار، لو لم يطلع عليكم النهار، ولو لم تسعفكم بدفئها وأشعتها.

ثم يتابع الحوار القرآني سؤال الناس ليبرهن على ألاّ إله غيره تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص. ٧٢/٢٨] من إله غير الله يأتيكم بليل تجدون في ظلامه السكون والملجأ والاستقرار، بعد طول الكد وتعب النهار، وكلال الأبصار؟.. فالليل جعله الله للسكون والقرار، كما جعل النهار للنشاط والعمل والسعي، وهذا من رحمة الله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[القصص:٧٣/٢٨] تشكرون مايسّر الله لكم من نعمة فتخلصون في عبادته وطاعته، وتشكرونه على مادبّر لكم واختار من توالي الليل والنهار، ومن سنن الحياة التي لم تختاروها، ولكن اختارها الله لكم رحمة بكم؛ اختارها عن علم بما يصلح لكم فهل من إلهٍ يستحق العبادة غير الله؟ أفلاتستبصرون الحق وتسمعون كلام الله فتخبت قلوبكم لذكر الله؟!

وبهذا الحوار اجتمع البرهان مع إثارة الشوق والوجدان. أما البرهان فهو بهذه المقدمات التي تلزم عنها نتيجتها الحتمية كما يحكم العقل والمنطق السليم وقد لخصناها كما يلي:

المقدمة الأولى: الله هو الذي يقلّب الليل والنهار ولاأحد غيره يستطيع ذلك.

المقدمة الثانية: لايستحق العبادة إلا من يملك الكون وينظمه بليله ونهاره وشمسه وظلامه.

النتيجة: إذن لاأحد يستحق العبادة غير الله (لاإله إلا الله).

وأما إثارة الشوق والوجدان، فبهذا الحوار والسؤال الرباني وبرجاء الله لكم -أيها الناس- لتكونوا من الشاكرين ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، ولنا عودة إلى تربية العقل وتربية الوجدان عند بحث الآثار النفسية والتربوية للحوار القرآني إن شاء الله.

بَ- البرهان على البعث والحساب: ويعتمد هذا البرهان على أدلة متنوّعة منها:

البرهان بدليل القدرة والبرهان بدليل حكمة الله وتنزيهه عن البعث واللّهو، وقد جُمع البرهان في الحوار البرهاني الذي خُتِمَتْ به سورة القيامة وهو قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ، ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟﴾ [القيامة: ٧٥/٣٦-٤٠].

أيحسب هذا الإنسان -الذي خلقه الله في أحسن تقويم ونفخ فيه من روحه، وجعل له سمعاً وبصراً يدرك بهما الحق، وقلباً أو فؤاداً يعقل به، وقد ميّزه بذلك على جميع من خلق على سطح الأرض- أن يترك، بعد هذه الحياة التي جعلها الله ليمتحنه فيها، فجعله مسؤولاً عن جميع أقواله وأعماله، أن يترك بعد ذلك كله كمّاً مهملاً كالنفايات والتراب؟! إن حكمة الله وتدبيره في خلق الإنسان على هذا التنظيم، وهذا الإحكام يتنافيان مع هذا العبث، وتعالى الله عن ذلك، كما جاء في حوار الله مع المنكرين للبعث ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ ، فَتَعالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ٢٣/١١٥-١١٦].

ولنعد الآن إلى متابعة معنى الحوار البرهاني الذي اقتبسناه من أواخر سورة القيامة والذي يأتي بالدلائل الواقعة التي تشهد، في غير تعقيد ولاغموض على أن المدبر الحكيم الذي أنشأ الإنسان بهذا الإحكام والتدبير لم يخلقه سدى.

ألم يكن نطفة من الماء، من مَنِيّ دافق يُمنى؟ ألم تتحوّل هذه النطفة من خلية واحدة - صغيرة، لاتُرى من غير مجهر، تلقّح بويضة من ماء الزوجة -إلى علقة تعلق بجدار الرَّحم لتعيش وتستمد الغذاء؟ فمن ذا الذي أودعها هذه القدرة ووَجّهها؟.. ثم من ذا

الذي خلقها بعد ذلك جنيناً مُنسّق الأعضاء، يتألف جسمه من ملايين الملايين من الخلايا الحية، وهو في الأصل خلية واحدة مع بويضة؟ فأصبح مجموعات من ملايين الخلايا كل مجموعة متخصصة فيما قُدّر لها من تخصصات ووظائف عضوية فيزيولوجية؟ فكونت النسيج المناسب لأداء وظيفتها...

ثم في النهاية من ذا الذي جعل من مجموع هذه الخلايا، والأنسجة والأعضاء: الذكر والأنثى؟ أي إرادة كانت لهذه الخلايا في أن تكوّن جنيناً ذكراً، وأي إرادة كانت لتلك في أن تكوّن جنيناً أنثى؟ أم من ذا الذي يزعم أنه تدخّل فقاد كلاً منهما في ظلمات الرحم إلى هذا الاختيار؟!

إنه لامفر من الإحساس بالعناية الإلهية والقدرة اللطيفة المدبّرة الحكيمة التي قادت النطفة المراقة في طريقها الطويل حتى انتهت بها إلى ذلك المصير... ﴿ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ ثم يُختَمُ هذا الحوار البرهاني بهذا السؤال الرباني، ليبرهن على أن الذي قدر على ذلك كله قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم، ليلقوا وجه ربهم، وليحاسبوا على أعمالهم ﴿ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟﴾ ويأتي الجواب من ضمير كل إنسان عاقل متأمل متدبّر منصف (بلى: سبحانه! فإنّه لقادر على أن يحيي الموتى! بلى! سبحانه! فإنه لقادر على النشأة الأخرى!) ومايملك الإنسان إلاّ أن يخشع أمام هذه الحقيقة فيوقن بأن البعث حقيقة، وأنه واقع لامحالة ولامفر منه، ويعيد تنظيم حياته على ضوء هذا الإيمان واليقين، وهذه المسؤولية التي تنتظره يوم البعث والحساب.

جـ- أهم أهداف الحوار الوصفي:

أ- التعريف بأهم أسباب دخول النار: وأسباب استحقاق المجرمين عذاب ا لله، ليتجنب الناس هذه الأسباب ويبتعدوا عنها وهم مايزالون في الدنيا دار الامتحان، ومايزال الوقت أمامهم ليتخذوا إلى مرضاة ربهم سبيلاً..

وقد يأتي بعض هذه الأسباب تمهيداً للحوار الوصفي قبل البدء بعرض حوار المتحاورين كما في سورة الأعراف حيث بين ا لله أن الاستكبار عن آيات ا لله

والتكذيب بها كان سبباً لحرمان المستكبرين دخول الجنة، فلم يستحقوا إلاّ جهنم، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ ثم وصف عذابهم: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٤١].

وقد يأتي بعض هذه الأسباب من خلال الحوار كما في قوله تعالى يبيّن لنا أن ترك الصلاة، وعدم الدخول في مجتمع المصلين المزكّين، والاشتراك مع الخائضين في آيات الله بالتشفية والاستهزاء، وقد جاء ذلك على لسان المؤمنين في الجنة، وهم يتساءلون عن المجرمين ويسألونهم عن سبب دخولهم جهنم، فأجابوهم من دار العذاب، وقد أسمع الله كلاًّ من الطرفين المتحاورين كلام الطرف الآخر على ما بينهم من البعد الشاسع قال تعالى: ﴿إِلاّ أَصْحَابَ الْيَمِينِ ، فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ، عَنِ الْمُجْرِمِينَ ، مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٧٤/٣٩-٤٦].

وأسباب دخول النار كثيرة ذكرنا هنا نماذج منها، وهي متوفرة في الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة؛ أعظمها الشرك با لله و لتكذيب بآياته، وأدناها تعذيب الحيوانات من غير موجب.

بَ- التخويف من عذاب النار ومما أعد ا لله للمجرمين والمستكبرين عن آياته، وقد أورد ا لله الإقرار بالخوف من عذاب يوم القيامة وأهواله على لسان عباده المؤمنين المتصدقين، في حوار بينهم وبين الذين أطعموهم لوجه ا لله، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ، إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُوراً ، إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ [الإنسان: ٧٦/٨-١٠] ليرينا كيف أثمر الخوف من عذاب ا لله يوم القيامة ثمرات إيجابية فدفع الخائفين المتّقين إلى إطعام الطعام ولنقتدي بهؤلاء الأبرار المتقين الذين أثّر في سلوكهم الخوف من أهوال يوم القيامة ﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً﴾ [الإنسان: ٧٦/١٠].

فجعلهم يبادرون إلى إطعام الطعام، وهم في أشد الحاجة إليه...

وقد صرح القرآن بهذا الهدف بعد أن وصف عذاب جهنم متحدّياً عبّاد الأصنام والطواغيت، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا ما شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ ، لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبادَهُ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر: ٣٩/١٥-١٦].

فالقرآن يعرض علينا مشهداً رهيباً حقاً: مشهد النار في هيئة ظلل من فوق مستحقيها، وظلل من تحتهم، وهم يتلظّون في طيات هذه الظلل المعتمة، تلفّهم وتحتويهم وهي من النار!

إنه مشهد رهيب يعرضه الله على عباده وهم بعدُ في دار الامتحان في الأرض، يملكون أن ينأوا بأنفسهم عن الطريق المؤدية إلى غضب الله وعذابه ويناديهم ﴿يا عِبادِ فَاتَّقُونِ﴾ يناديهم ليحذروا ويتقوا ويسلموا أنفسهم وحياتهم لربهم ولتشريعه، وليعملوا بهديه ووحيه...

د- أهم أهداف الحوار القصصي القرآني:

إذا استقرأنا القصص القرآنية التي تقوم على الحوار، أمكننا أن نقسم أهدافها إلى نوعين: أهداف فنية، وأهداف اعتقادية وتوجيهية:

أ- أما الأهداف الفنية فهي التي تتعلق بجو القصة والتشويق إلى متابعتها، وتتجلى هذه الأهداف في القصة القرآنية الطويلة، ولكل من الحوار القصصي في أول القصة، والحوار في وسطها، والحوار في آخرها دور فني متميز:

أ- أما في أول القصة، فيقوم الحوار على الإشارة إلى أهمية القصة؛ وإلى أبطالها وموضوعها: بأسلوب يشوّق إلى متابعتها وتأمّلها والاهتمام بها. كما رأينا في الحوار الذي بدئت به قصة (يوسف) فقد بُدئت القصة بحوار خطابي بيّن الله تعالى ورسوله ﷺ يبين أهمية هذه القصة خاصّةً، وأهمية القصص القرآني وطرافته عامّةً فقد كان النبي غافلاً عن معرفة فحوى هذه القصص، فخاطبه الله مبيناً فضله تعالى في تعريفه وتعريف الإنسانية بهذا القصص عن طريق الوحي الإلهي: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ

بما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هَذا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣/١٢] وتبدو أهمية القصة هنا في شهادة الله بأنها من (أحسن القصص)، وأن بعض أخبارها كان من أسرار بعض الملوك القدماء ووزرائهم، مما يجري في خفايا الدور، ومما عفا عليه الزمن وغيبته الأحقاب التاريخية فلم يكشفها إلا الوحي... حتى هذا النبي الموحى إليه كان قبل ذلك غافلاً عنها، غير دارٍ بأسرارها، هذا عدا الإشارة إلى أهمية القصة كما أوحى الله بها إلى نبيه في هذا القرآن العظيم.

وأما عن الإشارة إلى أبطال القصة وموضوعها، فقد جاء ذلك في الحوار الذي جرى بين يوسف وأبيه، وهو يقص رؤياه على أبيه في أول القصة: ﴿إِذْ قالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤/١٢] فحذّره أبوه من إفشاء سرّ هذا الحلم الذي يدل على أنه سيكون له في مستقبله شأن عظيم، وأن إفشاءه قد يؤدي به إلى التعرض لكيد إخوته ﴿قالَ يا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُؤْياكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يوسف: ٥/١٢] ثم يَسْتَمِر الأب في حواره مع ابنه يفسّر له الحلم الذي يدل على مستقبله، وماسيخصُّه به ربه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَما أَتَمَّها عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [يوسف: ٦/١٢]... فهذه عقدة القصة، يشير إليها هذا الحوار في أول القصة، فتجعل القارئ يتابع أحداثها بلهفة وهو يتساءل: ترى ماذا يمكن أن يفعل هؤلاء الإخوة الكبار بأخيهم الصغير حتى حذره أبوه من كيدهم؟ تُرى ماالمستقبل الذي سيؤول إليه هذا الفتى إذا تحققت نبوءة أبيه فجعله الله نبياً كأبويه إبراهيم وإسحاق؟

ب - أما في وسط القصة فيؤدي الحوار دَوْرَهُ في **إحكام عقدة القصة**: إذ يوحي الرب تعالى إلى هذا الطفل، وقد ألقاه إخوته في غَيَابَةِ الجُبّ، مايُثَبِّتُهُ ويزيد ثقته بالمستقبل ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥/١٢] وإذ يوصي يوسف أحد السّجينيْن بأن يذْكُره عند الملك بعد نجاته من السّجن، يوصيه وهو

يودّعه عند خروجه من السجن، كما قال تعالى عن يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف:٤٢/١٢] لعل الملك يحتاج إلى يوسف في تفسير حلم من الأحلام أو في أمر من أمور المُلْك، ولكنه نسي ذلك فلبث يوسف في السجن بضع سنين صابراً محتسباً لايدري به أحد، ليزيد ذلك في التشويق إلى المتابعة.. حتى يرى الملك الحلم الذي كان سبباً في خروج يوسف من السجن إلى رئاسة الوزارة.

جـ- **وكذلك يستمر الحوار يؤدي هدفه في إحكام تماسك القصة، حتى آخر القصة...** فيعطف أواخرها من فقرات الحوار على أوائلها وأوسطها، كما جاء في حوار يوسف مع أبيه، حين آوى إليه أبَوَيْهِ، وحين ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ [يوسف:١٠٠/١٢] هما وإخوانه الأحد عشر، فقال يوسف لأبيه وهو يحاوره حوار التهنئة والتذكّر والتعاطف والتباسط: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً﴾ [يوسف: ١٠٠/١٢] فذكّره برؤياه التي بشّرته في أول القصة، حينما فسرها له أبوه، ثم ذَكَر ماعاناه في أوسط القصة من المتاعب: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ [يوسف:١٠٠/١٢].

وفي هذه الفقرة من الحوار تَذَكّر مافعله إخوته به بسبب نزغ الشيطان بينهم وبينه مستغلاً دافع الغيرة الأَخَوِيَّةِ، التي أدّت بهم إلى الحقد والتفكير في إبعاده عن أبيه ولو أدى ذلك إلى هلاكه أو كاد، ولنا عودة إلى هذا في الأهداف الأخلاقية إن شاء الله.

ونكتفي هنا بهذه النماذج من الأهداف الفنية التي تدل على الإعجاز البديعي والفني في القرآن الكريم، من قبل أن يضع الأدباء المعاصرون قواعد الأداء الفني والبلاغي في الحوار القصصي... نكتفي بهذا في هذه العجالة لننتقل إلى النوع الثاني من أهداف الحوار القصصي القرآني.

بَ - وأما الأهداف الاعتقادية والتوجيهية فهي أيضاً على نوعين:

أَ - أهداف اعتقادية تعمل على تربية العقيدة الصحيحة وبيان زيف العقائد الأخرى، وقد جاءت في حوار معظم الأنبياء مع أقوامهم، كنوح وهود، وصالح،

وشعيب.. أو مع الذين أُرسلوا إليهم كموسى ويوسف وسليمان، ونبينا محمد، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين.

فكل من نوح وهود وصالح وشعيب جاء في أول حواره مع قومه قوله تعالى يحكي لنا هذا الحوار: ﴿فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٧/٥٩-٦٥-٧٣-٨٥] ثم تأتي البراهين لكل قوم بما يصْلُح لهم. فأما نوح فقد أنذرهم عذاب الله ﴿إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٧/٥٩] بلهفة الحريص على مصلحتهم الخائف عليهم، لتكون دعوته أبلغ تأثيراً وأوقع في القلوب. وأما هود فقد أعقب دعوتهم إلى عبادة الله بتحذيرهم وحضهم على تقوى الله ﴿أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ﴿فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ﴾. وأما صالح فقد أتبع دعوتهم ببيّنة من ربهم ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ ناقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧/٧٣]. وهي ناقة كبيرة، تمثّل بعض قدرة الله إذ تبدو لناظرها بحجمها الكبير عجيبةً من عجائب خلق الله: تشرب ماء القوم كله يوماً وتتركه لهم يوماً، وجاءهم أيضاً، ببرهان من حياتهم ومظاهر قوّتهم التي خلقهم الله عليها، ومايسّر لهم الله من أسباب التحضّر والعمران: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفاءَ مِنْ بَعْدِ عادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِها قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبالَ بُيُوتاً...﴾ [الأعراف: ٧/٧٤]. وأما شعيب فقد كانت بيّنته الدعوة إلى إصلاح حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والتجارية ﴿قَدْ جاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها﴾ [الأعراف: ٧/٨٥] وجاءهم أيضاً برهان من حياتهم وفضل الله عليهم ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٧/٨٦] وببرهان آخر من الأقوام الذين سبقوهم ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧/٨٦] انظروا كيف أهلكهم الله وتركوا آثارهم تدل على ذلك، على الرغم من قوّتهم وبأسهم...

وهكذا تميز الحوار القصصي، في الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده، تميّز بالوضوح وبالأسلوب المناسب لعقول المدعوّين، وبالبراهين الواقعية، المأخوذة من واقعهم

وماضيهم وحاضرهم، المصحوبة بإيقاظ المشاعر والوجدان... فعندما دعا سليمان مَلِكَةَ سبأ إلى توحيد الله أرسل إليها رسالة مع الهدهد وأمرها أمراً صادراً عن مَلِك أقوى منها: جندُه أعظم من جندها، وقدرته أكبر، ففهمت رسالته ولهجته الملكية، وجَمَعَتْ وُزراءها وقوّادها، وتلت عليهم الرسالة قائلةً لهم: ﴿إنّي أُلْقِيَ إلَيَّ كِتابٌ كَرِيمٌ ، إنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإنَّهُ بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، أَلاّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٢٧/٢٩-٣١] وأنذرتهم عاقبة الأمر إن لم يستجيبوا ﴿قالَتْ إنَّ الْمُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوها وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِها أَذِلَّةً﴾[النمل:٣٤/٢٧] وعندما دعا يوسف بعض السجناء إلى توحيد الله، بدأ بتعريفهم بنفسه، كما يفعل السجناء فقدَّم نفسه من حيث إنه ترك ملة قوم لايؤمنون بالله واتَّبع ملّة آبائه الأنبياء ﴿إنّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ ، وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إبْراهِيمَ وَإسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف. ٣٨/١٢] ثم بدأ يستجوبهم ويحاورهم بهذا الأسلوب الهادئ الرصين المتّزن ﴿يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ﴾ [يوسف: ٣٩/١٢] ثم فنّد عبادتهم لغير الله ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلاّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ﴾ [يوسف: ٤٠/١٢] فتبيَّن لهم أن لاحقيقة لهذه الأسماء التي أطلقوها على أصنام يعبدونها صُنِعَتْ من الحجارة أو اتُّخذت من طواغيت من البشر، لاحقيقة لها تدل على أنها آلهة تستحق العبادة... كما بيَّن إبراهيم ﴿إذْ قالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، إنَّما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أَوْثاناً وَتَخْلُقُونَ إفْكاً﴾ تدّعون كذباً أنها آلهة ﴿ إنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩/١٦-١٧] فاعتمد البرهان بدليل الرزق ضمن حواره وهو يحاجّ قومه.

بَ- النوع الثاني من أهداف الحوار القصصي القرآني:

الأهداف الأخلاقية:

وهو ماتهدف إليه القصة أو يبدو على ألسنة شخصياتها من الدعوة إلى مكارم الأخلاق وطيب المعاملة ومن التحذير من مساوئ الأخلاق التي حرّمها الله، وسوء

المعاملة، مما يؤدّي إلى تمزيق شمل المجتمع... كدعوة شعيبٍ قومه إلى ضبط المكاييل والموازين وإيفائها، وإعطاء الناس حقوقهم وتحذيره إيَّاهم من بخس الحقوق، وظلم الناس ومن الإفساد في الأرض، كما قال تعالى -يحكي حواره مع قومه-: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ١١/٨٥].

ولما كان المال من الوسائل التي تفسد الضمائر حين يوضع في غير موضعه أو يُشترى به السكوت عن الحق، أو إبطاله، أو ترويج الباطل فيصبح سبب الطغيان والبغي على الناس.. لذلك قصَّ الله علينا قصة قارون الذي غره ماله، فأبطره وأطغاه، فكانت عاقبته وخيمة وحاوره قومُه ليردُّوه عن طغيانه وبغيه: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٢٨/٧٦].

وبدأت القصة تعرفنا على بطلها: على اسمه وانتمائه وسلوكه مع قومه مسلك البغي لمّا أغراه المال وأطغاه، وتصف لنا كيف بلغ غناه مبلغاً أصبحت معه أمواله كنوزاً مدخرةً مخبوءةً فائضةً عن حاجته، وأصبحت مفاتح هذه الكنوز تعجز عن حملها المجموعة من أقوياء الرجال، فأصبح بغْيُهُ ظاهراً: يحتقر الناس، ويظلمهم، ويتعالى ويطغى عليهم بأخذ أراضيهم وممتلكاتهم، أو بحرمان الفقراء حقهم في ماله..

ثم يقص علينا القرآن حوار قومه معه: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٢٨/٧٦] لاتفرح فرح البطر الذي ينسى من أنعم عليه بالمال وينسى أن يحمده ويشكره، بل يتطاول بماله على العباد، فإن الله لايحب الفرحين البَطِرين المتطاولين بسلطانهم على الناس. وهكذا حاول عقلاء قومه أن يردّوه إلى الله الذي وَهَبَهُ المال فهو لا يحب المأخوذين بالمال. ويستمر قومه في حوارهم يذكّرونه بالآخرة، ليدّخر ماله فيما يرضي ربّه: ﴿وَابْتَغِ فِي ما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا﴾ [القصص: ٢٨/٧٧]. لاتَنْسَ أن تنال قسطك من الاستمتاع بمالك في حياتك الدنيا شكراً لله على ماوهبك وأعطاك ﴿ وَأَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٢٨/٧٧] فهذا المال هبة من الله وإحسان، فيجب أن يُقَابَلَ بالشكر والإحسان إلى عباد

ا لله. ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الأَرْضِ﴾ بالبغي والظلم والاستمتاع بالمحرمات دون مراقبة لشرع ا لله الذي أعطاك المال، وبِمَلْء صدور الناس بالحرج والذلة والحسد والبغضاء، بما تمارسه عليهم من الاستعلاء والمن والأذى. ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧/٢٨] بهذا الطغيان وبالرشوة واستباحة المحرمات. ويأتي دورُه في الحوار فيرد عليهم بكبريائه وبطره وتعاليه غير مكترث بكل مانصحوه: ﴿قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص:٧٨/٢٨]، أوتيت هذا المال استحقاقاً على علمي الذي أقدرني على جمعه وتحصيله، فكيف تفرضون عليّ طريقةً في التصرف فيه؟ وماحصّلته إلا بجهدي الخاص وبعلمي الخاص؟..! تلك قولة المغرور الذي يفتنه المال ويعميه الثراء، وتتحكم فيه الأثرة والكبرياء، لايستمع إلى نصح ناصح ولا إلى حوار عاقل، ولايخضع لمنهج ربه القويم شاكراً على عطائه المستديم! فجاء الرد الإلهي مهدِّداً ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨/٢٨] إذا كان ذا قوة ومال، فقد أهلك ا لله قبله من هو أشدُّ منه قوةً ومالاً من الملوك والأجيال!...

وينتهي المشهد الأول من القصة: الذي يتجلّى فيه البغي والتطاول، والتعالي على كل نصح وإرشاد، والإصرار على الفساد.. والاغترار بالمال...

ثم يجيء المشهد الثاني: حين يخرج قارون بزينته على قومه، فتطير لها قلوب فريق منهم ويحاورهم الفريق المؤمنون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِيَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩/٢٨] ويتمنى الذين يريدون من الحياة الدنيا زينتها من الذهب والحليّ والمتاع ليستمتعوا كما استمتع أصحابها، كقارون، غير ناظرين إلى الوسيلة الخسيسة التي اتخذوها للحصول على ماحصلوا عليه... فأما المتصلون با لله فلهم ميزان آخر لتقويم متاع الدنيا وزينتها، ولهم من استعلائهم واعتزازهم با لله عاصم يعصمهم من التخاذل أمام الجاه والزينة والمتاع: ﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً وَلا يُلَقّاها إِلاّ الصّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠/٢٨] إن ميزانهم هو التطلع إلى ثواب ا لله في رضًى وثقةٍ

واطمئنان فالدنيا ظل زائل ومُتعها آيلة إلى الفناء. أما ثواب الله فهو الخلود والبقاء في النعيم المقيم. ويجيء المشهد الثالث حاسماً فاصلاً: ﴿فَخَسَفْنا بِهِ وَبِدارِهِ الأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١/٢٨].

هكذا وفي لمحة خاطفة ابتلعته الأرض وابتلعت داره وكنوزه، وهوى في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها: جزاءً وفاقاً، وهوت معه الفتنة الطاغية، فتنة المال التي جرفت بعض الناس. ثم ردّتهم الضربة القاضية إلى الله وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة فتابعوا حوارهم، وقد تغيرت لهجتهم: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ﴾ [القصص: ٨٢/٢٨]. ماأعجب أمر الله يمد بالرزق من يشاء، فَيَبْسطه لمن يشاء، ويحسره عمن يشاء، وماأعجب أمر الله الذي لا يفلح تحت سلطانه وفي ظل عدله الكافرون الجاحدون لنعمته ولاالمتكبرون! وماأعظم لطفه إذا لطف بنا، فلم يعطنا ماأعطى قارون ولم يخسف بنا كما خسف به!..

خاتمة: كذلك يجد المتدبّر في محاورات القصص القرآنية، بُغْيَته من الحجج والبراهين على أَلْسِنَةِ المتحاورين يقدّمها الأنبياء والرسل والصالحون والمصلحون. فإذا تعنّتَ الطغاة المكابرون، وجاوزوا حدودهم، وبلغوا آجالهم التي كتب الله لهم دون أن يكونوا من المعتبرين، أو ينفعهم نصح الناصحين، جاءهم البرهان الرباني المبين بالعقاب الأليم، ونجّى الله رسله وأنبياءه وعباده الصالحين؛... كما خسف الله الأرض بدار قارون وبه وبماله وجميع أنصاره المتكبرين المنافقين، وكما أغرق الله قوم نوح ونجّاه في السفينة ومن معه أجمعين ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤/٧].. وكما نجّى الله نبيه هوداً ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَقَطَعْنا دابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَما كانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢/٧]... وكما أهلك الله ثمود قوم صالح ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨/٧].. وكما أهلك قوم لوط بعد أن نجّاه وأهله إلاّ امرأته: ﴿فَأَنْجَيْناهُ وَأَهْلَهُ إِلاّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ ، وَأَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ

عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤/٧].. وكما أهلك أصحاب الأيكة، قوم شعيب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١/٧] وترك الله لنا من آثارهم آية (علامة) على قدرته ورحمته بعباده المؤمنين وبطشه بالمجرمين الطاغين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ وقد ذكر الله، وكرر هاتين الآيتين مرات:

الأولى: بعد أن ذكر عناد مشركي قريش وبيَّنَ لهم دلائل قدرته ومـاأنبت لهم في الأرض من كل زوج بهيج [الشعراء: ٧/٢٦-٨].

والثانية: بعد أن قصَّ علينا قصة موسى وفرعون وبني إسرائيل [الشعراء ٦٧/٢٦-٦٨].

والثالثة: بعد أن قص علينا خبر نبيه إبراهيم وحواره مع قومه [الشعراء: ١٠٣/٢٦-١٠٤].

والرابعة: بعد أن ذكر تكذيب (عاد) قوم هود للمرسلين [الشعراء: ١٣٩/٢٦-١٤٠].

والخامسة: بعد أن قص علينا خبر ثمود قوم صالح وعنادهم ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً...﴾ [الشعراء: ١٧٤/٢٦-١٧٥].

والسادسة: بعد أن بيَّن لنا موقف قوم شعيب من دعوته وعنادهم ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ [الشعراء: ١٩٠/٢٦-١٩١].

وقد لخص الله ذلك كله بآية واحدة في سورة العنكبوت: ﴿فَكُلاًّ أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠/٢٩].

كما أشار سبحانه إلى ماترك بعضهم من آثار تدل على بأسهم ومـاأنزل الله بهم: ﴿وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨/٢٩].

وبعد فهذا العقاب هو جواب رب العالمين... إنّه الجواب الواقعي والبرهان الرباني المبين الذي ختم به كل حوار جرى بين أنبيائه وبين المجرمين المتكبرين المعاندين المكذبين. فاقرأ ذلك في سُوَر القرآن المبين، وقد أشرنا إلى بعضها، وتدبّره لَعلَّك تكون

من المتّعظين الذاكرين، الناجين من عذاب رب العالمين، فالقرآن يقدم ذلك ذكرى للمؤمنين: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١/٢٩]... وبعد هذه بعض أهداف الحوار القصصي القرآني:

منها: أهداف فنية بلاغية تتعلق بوضوح القصة وشدة تأثيرها في النفس وإحكام تعلّق الناس بها، وشدِّ القارئ إلى متابعتها والتأثر بها.

ومنها: أهداف اعتقادية تدعو إلى توحيد الله وإخلاص الخضوع والدينونة له ولتشريعه ووحيه.

ومنها: أهداف إصلاحية، اجتماعية، أخلاقية، تتعلق بإصلاح المجتمعات والأخذ بيدها إلى السعادة والقوة، وبسعادة الأفراد في مجتمعاتهم وفي حياتهم وفي علاقاتهم... ولقد عرضنا أمثلة قليلة، لأجل التوضيح لا الاستقصاء، لنترك المجال لمن يريد المتابعة، وتتبّع أخبار الأنبياء في كتاب الله ووحيه...



الفصل السابع

التحليل النفسي والآثار التربوية للحوار القرآني

أولاً– العوامل النفسية الوجدانية وتربيتها:

تمهيد: رأينا في بحث مضى أن الحوار البرهاني يمكن تحليله إلى محاكمة عقلية، تبرهن على حقيقة اعتقادية أو أخلاقية[١].

بيد أن أسلوب الحوار القرآني والنبوي عموماً لايقوم على البرهان العقلي وحسب، ولاعلى مابين عناصر الحوار أو بين أسئلته وأجوبته من الروابط والعلاقات العقلية وحدها. بل إن الأمر هنا يبدأ[٢] من العلاقات الوجدانية، خلافاً للأساليب التربوية الأخرى: من تربية بالعبرة، أو بالآيات أو بالأمثال[٣]، فمجرد توجيه السؤال أو الخطاب أو النداء من قبل الخالق يثير كوامن الوجدان، ولذلك سنبدأ هنا بتحليل الحوار إلى عناصره الوجدانية أولاً.

---

(١) انظر بحث: الحوار البرهاني، وبحث أهداف الحوار البرهاني.

(٢) في الحقيقة من الصعب هنا تحديد السبق الزمني للعوامل العقلية أو الوجدانية في الحوار القرآني ولكن الجو العاطفي الذي يغلب على علاقة العبد بربه عند تلقي أسئلة القرآن، أو جو التأثر الوجداني الناتج عن تلقّي الخطاب الرباني هو ماجعلنا نرجح هنا جانب الوجدان فنبدأ بالعوامل الوجدانية.

(٣) انظر كتاب التربية بالآيات، وكتاب التربية بالعبرة، وكتاب التربية بالأمثال للمؤلف.

أ- معنى العلاقة الوجدانية:

لكي نفهم أثر العامل الوجداني الناتج عن الحوار القرآني، يجب أن نعلم أن لكل تَصَرُّف، أو سلوك يقوم به الإنسان بطانة وجدانية ترافقه، قد تكون انفعالاً كامناً لانشعر به، كالارتياح والرضى، وقد تكون انفعالاً عنيفاً كالدهشة والغضب والخوف، وقد تكون انفعالاً هادئاً كالخشوع أو الحزن، وأنّ تكرار هذا الانفعال يعمل على ترسيخ أثر السلوك المرافق، في النفس، إذا استوفى شروطه؛ فإن كان سلوكاً فكرياً رسخ أثره في الذاكرة، وإن كان سلوكاً اجتماعياً تحوَّل إلى عاطفة اجتماعية كالصداقة والأخوّة في الله، وإن كان نشاطاً روحياً تحوَّل إلى عاطفة ربانية كالعبودية لله والشكر له وكمراقبة الله والرجوع الدائم إلى هديه في جميع أمور الحياة وهاك بعض الأمثلة.

ب- أمثلة على العوامل الوجدانية المرافقة للحوار الخطابي:

رأينا في بحث معنى[1] أثر الانفعال الوجداني في دموع رسول الله ﷺ حين قُرِئ عليه الخطاب الرباني الموجه إليه في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً؟﴾ [النساء:٤١/٤] حتى إنه لم يتمالك نفسه من استمرار البُكاء فقال للقارئ: ((حَسْبُكَ الآن!)) قال ابن مسعود (راوي الحديث)[2]: (فَالتَفَتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان) ويتساءل الباحث أمام هذا التحليل النفسيّ، تُرى ما الانفعال النفسيّ الذي أثار دموع رسول الله من مكامنها؟ أهو انفعال الخضوع والشكر عند استحضار عظمة الله ومنّه وفضله، وهو يخاطب نبيّه لِيُشهده على أمته؟ أم هو انفعال الخوف والخشوع معاً لدى استحضار أهوال الموقف بين يدي الله تعالى يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها وَتَرَى النّاسَ سُكارَى وَما هُمْ بِسُكارَى وَلَكِنَّ عَذابَ اللّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢/٢٢].

٢ً، ٣ً- وإذا كان هذا شأن رسول الله الذي غُفِرَ له ماتقدّم من ذنبه وماتأخر، فما شأننا نحن ياعباد الله أمام كلام الله إذ يحاورنا وينادينا: ﴿ يا عِبادِ فَاتَّقُونِ؟﴾ [الزمر: ١٦/٣٩] وإذْ

---

(١) انظر: النوع الرابع من أنواع الحوار القرآني: ب- الشكل الثاني: خطاب الحق جل جلاله لنبيه ﷺ.

(٢) صحيح البخاري برقم ٤٧٦٣ كتاب فضائل القرآن ١٩٢٥/٤ ط. دار ابن كثير، دار اليمامة بدمشق.

ينادينا وقد وصفنا بصفة الإيمان، وهو يأمرنا بالتقوى ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ٥٩/١٨] ألا يثير هذا النداء الرباني فينا انفعال الامتنان لله والخوف من الحساب بين يديه، إذ ينسبنا الله إلى نفسه (ياعباد) وإذْ يذكّرنا بأننا آمنا به وعاهدناه، بموجب هذا الإيمان، على الطاعة، وإذ يشير إلى مسؤوليتنا عن أعمالنا: ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بما تَعْمَلُونَ﴾ فهذان مثالان آخران على بعض العوامل الوجدانية المرافقة لشكلين[1] آخرين من أشكال النوع الرابع من أنواع الحوار القرآني التي رأيناها.

جـ- تربية العواطف الربانية:

أ- **تمهيد**: إن الانفعالات التي رأيناها في الأمثلة السابقة قد تمرُّ دون أن تترك أثراً ثابتاً في النفس إلا إذا أخضعت للشروط التي يجب أن تخضع لها للتحول إلى عواطف ثابتة.

وتدل تجارب الحياة ودراسات التجارب النفسية على أن الانفعال يجب أن يكون قد **تكرر في مواقف من الحياة مؤثّرة ومناسبة**، وأن تتكرر **معه الاستجابات السلوكية المناسبة مصحوبة بقصد وقناعة**، حتى يتحول إلى عاطفة، فانفعال الامتنان لفضل الله يجب أن يصحبه على الأقل بعض ألفاظ الشكر، لذلك يأمرنا النبي ﷺ أن يكون طعامنا وشرابنا مصحوباً بذكر اسم الله عليه في أوله لنشعر أنفسنا بأنه من عند الله، وبالشكر والحمد في آخره ليتجلّى في نفوسنا الشعور بالامتنان والشكر على نعمة الله.

فهذه الأذكار تضمن التكرار، والقصد والتفكّر، وهما عاملان أو شرطان ضروريان إلى جانب مصاحبة الانفعال للاستجابة السلوكية.

وهناك شروط قد تكون مساعدة، وليست أساسية، كالجدّة والتنويع... -ذكرها علماء النفس- كما إن الانفعالات إذا صاحبت الطعام والشراب توفر فيها عامل ثالث هو إشباع الدافع الغريزي المناسب، وهو هنا تناول الطعام والشراب لإسكات الجوع

---

(١) انظر الشكل الثالث، والشكل الثامن من أشكال الحوار الخطابي، وانظر أهداف الشكل الثامن.

والظمأ، لذلك كان من السنة أن نشعر أنفسنا بإشباع هاتين الغريزتين بفضل وتيسير من الله عندما نردّد هذه الأذكار فنقول مثلاً: ((الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا[١] وأشبعنا[٢] وأروانا[٣])).

بَ – أهم شروط تربية العواطف الربانية: يؤخذ من التمهيد السابق شروط لتربية هذه العواطف أهمها:

١ً- ٢ً- التكرار والتخصيص: ثبت في علم النفس أن تكوُّن العاطفة عموماً يخضع لتكرار المواقف التي تثار فيها بعض الانفعالات مصحوبة بالسلوك المناسب المخصص: فعاطفة الأم نحو طفل معيّن إنما تتكون بتكرار انفعالها المصاحب لغريزة الأمومة، مع تركيز هذا الانفعال نحو هذا الطفل، وتكرار إرضاعه وإطعامه. كذلك شأن الأمثلة السابقة المتعلقة بالحوار القرآني فإن تكرار انفعال الخضوع والخوف مع تخصيصه بالخضوع لله تعالى والخوف منه هو الذي تَنْتُج عنه عاطفة الخشوع لله كلما قرئ القرآن، وتأمل القارئ الأسئلة التي تحض على هذا الخشوع: كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ؟﴾ [الحديد: ٥٧/١٦].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ؟﴾ [الفيل: ١٠٥/١].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ؟..﴾ [الفجر: ٨٩/٦].

إن تكرار هذه الآيات وأمثالها في الصلوات وبين المرء وربه مع استحضار معانيها واستكمال السورة، إن احتاج الأمر (كسورة الفيل) أو استكمال الآيات التي تجيب عن السؤال مبيّنة سبب وجوب الخوف من الله، مصوِّرة الموقف الداعي إليه، إن هذا

---

(١) هذا الدعاء مستفاد من عدة أحاديث: ثبت عن النبي ﷺ أنه (كان يشرب ثلاثة أنفاس، يسمي الله في أوله ويحمد الله في آخره) أورده السيوطي في الجامع الصغير نقلاً عن ابن السنّي... عن نوفل بن معاوية أن النبي ﷺ (كان يشرب) وصححه الألباني (صحيح الجامع الصغير برقم ٤٨٣٢).

(٢) وكان إذا رُفِعَتْ مائدته قال: ((الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. الحمد لله الذي كفانا وآوانا..)) (المرجع السابق برقم ٤٦٠٧) نقلاً عن أحمد والبخاري وأبي داود والترمذي وابن ماجه كلهم عن أبي أمامة.

(٣) وكان إذا أوى إلى فراشه قال: ((الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا..)) المرجع السابق عن أحمد ومسلم (برقم ٤٥٦٥).

التكرار، وقد يسّره الإسلام وحضّ عليه، يعمل على تحول انفعال الخوف إلى عاطفة الخوف من الله والخشوع له كلما تكررت مواقف مشابهة؛ لأن هذا التكرار يؤدي إلى تكوّن استعداد وجداني يجعل الإنسان مستعداً للانفعال، كلما تكررت المناسبة، أو تكرر موقف مشابه وهذا الاستعداد هو أهم مظاهر هذه العاطفة الربانية.

أمثلة على التكرار في الحوار القرآني:

روعي عامل التكرار المتتابع في القرآن الكريم في عدة سور: منها (سورة الرحمن) التي تكرر فيها السؤال الرباني: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ؟﴾[الرحمن:٥٥/١٣] بضعاً وثلاثين مرة، وعلمنا رسول الله أن نجيب عليه كل مرة، كما فعلت الجن[1]، لكن هذا التكرار كان مصحوباً بالتجديد والتنويع لئلا يكون التكرار مُمِلاً فكان لكل سؤال، يتكرر باللفظ نفسه معنى جديد يسأل عنه، يتناسب مع الآية أو الآيات التي سبقته، فكان السؤال الأول عما سبقه من نعم الله على الإنسان، إذ خلقه من صلصال كالفخار، وعلمه القرآن، وعلمه البيان، وجعل الشمس والقمر مسيّرين بحسبان: ضمن منهج محسوب، وكذلك دوران الأرض حولها ودوران القمر حول الأرض، كل ذلك بحسبان نتج عنه تتابُع الليل والنهار، والأشهر القمرية، والفصول الأربعة، وطول الليل أو النهار أو قصرهما، وجعل ذلك كله في مصلحة الإنسان.

ثم تكرر السؤال ليعرّف الإنسان على قدرة الله إذْ جعل للشمس مشرقين ومغربين: أحدهما في الصيف، والآخر في الشتاء.

ثم جاء السؤال مرة ثالثة ليعترف الإنسان بإعجاز الخلق ودقة الصنع في خلق المياه المالحة والمياه العذبة على سطح الكرة الأرضية، كل منهما بمقدار: لايطغى أحدهما على الآخر، ولايشاركه في وظيفته، ثم تكرر للمرة الرابعة والخامسة و... حتى المرة الثالثة والثلاثين وفي كل مرة يكون للسؤال هدف جديد في إيقاظ مشاعر الإنسان وعقله، للاعتراف بآلاء الله ونعمه في خاصة جديدة من خصائص الكون أو الدنيا أو الآخرة (راجع سورة الرحمن كلها).

---

(١) ذكرنا هذا نقلاً عن مراجعه عندما بحثنا. الحوار التعبُّدي: تعريفه ومشروعيته.

ومن هذه السور (سورة القمر) التي تكرر فيها السؤال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧/٥٤] ليتذكر الإنسان قدرة الله وبطشه بالمجرمين، من الأقوام الذين كذبوا رسلهم. وتكرر معه سؤال آخر يوقظ انفعال الخوف من عذاب الله ﴿فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٦/٥٤] وقد أنزله بهذه الأقوام، فتكرر هذا السؤال (ثلاث مرات) والسؤال الآخر (ثلاث مرات أيضاً) وفي كل مرة يتتابع السؤالان، أو يكون بينهما فاصل يُبيّن عذاب الله، بعد أن سأل عنه، وكيف أنزله بمن يستحقه.

ثم يأتي ذكر فضل الله الذي (يسّر) للبشرية هذا القرآن ليتذكروا منهج الله ووجوب طاعته وطاعة رسله، أما التتابع فمثاله ماجاء من السؤال عن عذاب الله الذي أنزله بعد أن لخصه بقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ ، إِنّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ، تَنْزِعُ النّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ، فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ؟﴾ [القمر. ١٨/٥٤-٢١] فجاء السؤال أولاً بعد ذكر سببه (كذبت عاد) ثم وُصِفَ العذابُ الذي أنزله الله بعاد وصفاً سريعاً مرعباً، ثم جاء مرة أخرى ليرينا كيف كان عذاب الله في ذلك الوصف، ثم تلاه السؤال الثاني يسأل هل من متذكر يقرأ القرآن، فيتذكر ويعود إلى ربه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٢/٥٤] فاجتمع الفصل والوصل بين السؤالين في هذا المثال؛ جاء الفصل أولاً، ثم جاء التتابع.. وفي المرة الأولى من هذه السورة جاء السؤالان متتابعين بعد ذكر قوم نوح الذين كذبوا رسولهم فأغرقهم الله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ، فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ، فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ ، وَفَجَّرْنا الأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ، وَحَمَلْناهُ عَلَى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ٩/٥٤-١٤] ثم جاء السؤالان متتابعين الأول عن عذاب الله وتحقيق إنذاراته؟ والثاني هل من متذكر يقرأ مايسّر الله من هذا القرآن فيتذكر، ويرجع إلى منهج الله والإيمان به والاستسلام له..؟ [القمر: ١٦/٥٤-١٧] فهذه ثلاثة إنذارات من الله، يسألنا فيها كل مرة، كيف وجدنا قدرة الله وبطشه بالمجرمين وتعذيبه لهم وتحقيق إنذاره فيهم؟ جاءت هذه الأسئلة عن تعذيبه لقوم

نوح، ثم لعاد قوم هود عن تعذيبه لقبيلة ثمود قوم صالح، فاجتمع للتكرار والتخصيص الشرطان الأساسيان لتربية العواطف.

الشروط المساعدة: هناك عوامل مثيرة للانتباه بحثها علماء[1] النفس مع التكرار، وقد وجدنا أن لها دوراً في إيقاظ المشاعر وتهيئة العقل، لتساعد على تربية العواطف الرّبّانية بالحوار القرآني منها:

٣ـ عامل الشدة ويحققه في الحوار القرآني:

أ- أسلوب الاستفهام الذي تحقق في معظم أشكال الحوار، وأشده تأثيراً الاستفهام الإنكاري مثل ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها﴾ [محمد: ٢٤/٤٧].

ب- كما يحققه النداء الذي تحقق في بعض أشكال الحوار القرآني مثل ﴿يا أَيُّها الإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦/٨٢] وقد اجتمع في هذه الآية أسلوبا النداء والاستفهام الإنكاري في وقت معاً.

جـ - أسلوب الأمر بأخذ العلم ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنّا لَكُمُ الآياتِ..﴾ [الحديد: ١٧/٥٧].

٤ـ عامل الجدة: وقد تحقق مع التكرار في بعض الأمثلة الماضية، كما رأينا في (سورة الرحمن) حين تكرر السؤال بلفظه بضعاً وثلاثين مرة، وكان في كل مرة يسأل عن موضوع جديد. وكذلك في (سورة القمر) كان في كل مرة يسأل عن عذاب ا لله ونذره الموجهة إلى قوم آخرين، أما عن سائر أسئلة الحوار القرآني، فتتجدد صيغتها مع تجدد موضوعها...

٥ـ ٦ـ عاملا القصد والتفكر: وهما شرطان يساعدان شرط التخصيص فلايتم تخصيص الانفعال ليتحول إلى عاطفة ربانية إلاّ إذا تم القصد إلى ذلك والتفكّر في المعاني المؤدية إلى هذا التخصيص كما رأينا في الشرطين الأوّلين. وقد حَضّنا ا لله على تدّبر

---

(١) انظر د. يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام ص٢٢١-٢٢٢، ط. دار المعارف بمصر ١٩٤٨م.

القرآن، وعاب بسؤال حواري، على المعاندين عدم تدبّرهم لمعاني القرآن: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها؟﴾ [محمد: ٤٧/٢٤].

وحذر النبي ﷺ هذه الأمة من أقوام يقرؤون القرآن بألسنتهم، لايفقهونه ولايُفكرون في معانيه ولايعملون به حتى إنه لايجاوز ألسنتهم إلى قلوبهم ولايترك في قلوبهم أو سلوكهم أي أثر: ((يخرج[١] ناس من قِبَل المشرق يقرؤون القرآن، لايجاوز تراقيهم[٢]، يمرقون من الدّين، مروق السهم من الرَّمِيَّة)).

وهذا التفكر يساعد على تربية عاطفة الخشوع والخوف من الله، وغيرهما من العواطف.

٧ـ مصاحبة الانفعال بالسلوك المناسب إذا كان ممكناً، كترديد الجواب على أسئلة القرآن كما رأينا في سلوك النبي ﷺ، أو تكرار الدعاء القرآني المصاحب لحوار بعض الأنبياء كما كان يفعل رسول الله ﷺ (إذا مر بآية فيها تسبيح سبّح وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ)[٣]، وإذا قرأ: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ أجاب: ((سبحانك فَبَلى))[٤]. وكما رأينا في حَثِّهِ الصحابة على الإجابة على سؤال القرآن الذي تكرر في سورة الرحمن بضعاً وثلاثين مرة ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان؟﴾ وأخبرهم بجواب الجن[٥] حين قرأها عليهم، وكل جواب أو سلوك يرافق تكرار الانفعال يساعد على تخصيصه كدعاء إبراهيم مثل: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنامَ﴾ [إبراهيم: ١٤/٣٥] ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾ [إبراهيم: ١٤/٤٠].

---

(١) رواه البخاري عن سهل بن حنيف برقم ٦٥٣٥، ٦/٢٥٤١ كتاب استتابة المرتدين ط. دار ابن كثير دمشق.

(٢) لايجاوز تراقيهم: ج ترقوة وهي عظم في أعلى الصدر. والمراد أنه لايصل إلى قلوبهم.

(٣) صفة صلاة النبي ﷺ: محمد ناصر الألباني ص١١٧، الطبعة السادسة، ط المكتب الإسلامي بيروت.

(٤) المرجع السابق ص١٠١.

(٥) انظر صحيح الجامع الصغير للألباني مج ٥، برقم ٥٠١٤، ٣٠-٣١، وفيه لفظ الجواب الذي علمنا النبي ﷺ ((ولابشيء من نعمك ربنا نكذّب فلك الحمد)).

فيجب على قارئ القرآن أن يكرر هذا الدعاء ونحوه، ويدعو به لنفسه ولأولاده به وبنحوه، كذلك الأوراد القرآنية المصاحبة لبعض الأمور التي يسّرها الله للإنسان كركوب الخيل والفلك، وماحل محلها من السيارات والطائرات، فعلى المسلم أن يقول عند كل ركوبٍ، ماأمره الله به: ﴿سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هَذا وَما كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ ، وَإِنّا إِلَى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣/٤٣-١٤].

وقد أمرنا الله أن نتذكر، إذا ركبنا نعمة الله، في الآية التي سبقت هذه الآية: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ ، لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ...﴾ [الزخرف: ١٢/٤٣-١٣]، وهذا التذكّر مع النطق بهذا التّسبيح كلما ركبنا يساعد أيضاً على تربية عاطفة الحمد والامتنان لربنا والشكر على نعمه والتعظيم لشأنه، جل جلاله، والخشوع له، كما يذكّر ببعض القوانين التي سخرها الله لنا، كقانون الطفو على سطح الماء. فهذا من الحوار القرآني التذكيري، يُذكّرنا ويطالبنا بالاعتراف بفضل الله.. وبه تُربّى العواطف الربانية.

ثانياً – العوامل العقلية وتربيتها:

أ– **تمهيد** قد يتّضح دور العوامل العقلية في بعض أنواع الحوار، كالحوار البرهاني والتعليمي، أكثر منه في أنواع أخرى قد يغلب عليها الطابع الوجداني كالحوار الخطابي بمختلف أشكاله.. ولكن القرآن حريص على تربية كل من العقل والوجدان. وقد خاطب الناس، وهو يحضهم على التدبّر والتأمل والعقل والتفكير فقال تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها؟﴾ [محمد: ٢٤/٤٧].

وخاطب الناس ليَعقِلوا هذا القرآن ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ كِتاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠/٢١] وليعقلوا مافيه من آيات ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [النور: ٦١/٢٤] وليعقلوا مافي الكون من دلائل تدل على قدرة الله ﴿وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠/٢٣] وليعقلوا ويعتبروا بما حل بالأقوام البائدة لمّا كذبوا الرسل، متأملين الآثار التي تركوها، كما قال في قوم لوط: ﴿وَإِنَّ لُوطاً

لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلاّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ ، ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ ، وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ٣٧/١٣٣-١٣٨].

أي إنكم لتمرون على منازلهم وآثارهم صباح مساءَ، أفلاتعقلون سبب هلاكهم فتبتعدوا عنه، لئلا يحل بكم ماحلَّ بهم؟

ب- تحليل العوامل العقلية إلى عناصرها أو مراحلها:

١ً- تحليلها إلى خبرات-تربية الخبرات: إن تحليل أي مثال من أمثلة الحوار البرهاني ينتهي بنا إلى الاستفادة من الخبرات الماضية والاعتماد عليها للتجاوب مع هذا الحوار، فهو يسألنا مرةً عمن خلقنا؟ وهل خلقنا من غير خالق؟ أم هل خلقنا أنفسنا؟ وتارة يسألنا عمن خلَقَ السماوات والأرض؟ وفي كل مرة علينا أن نستعين بخبراتنا الماضية: كخبرتنا عن وجودنا وخَلْقنا في هذه الدنيا، بعد أن لم نكن شيئاً مذكوراً. وبخبراتنا عن السماء التي نراها كل يوم والأرض التي نعيش عليها، وننعم بخبراتها، وعن نظام الحياة والليل والنهار ونظام الكون، وكلها أدلة يذكرها الحوار البرهاني القرآني، يدلّل بها على الخالق، وعلى أنه وحده الذي يستحق ولاءنا وعبادتنا، ولاأحد غيره يستحق ذلك.

٢ً- تحليلها إلى علاقات: إن كلاً من أسئلة الحوار، يتطلب منا استخدام خبراتنا، إذْ يسألنا عما تدل عليه لنَذْكُرَ ونعي العلاقة بين هذه المدركات وبين من أوجدها وأوجَدَنا، وخلقها وخلقنا، ولنعترف بعد ذلك بما يجب أن تكون عليه علاقتنا بهذا الخالق من خضوع ودينونة واستسلام، وذلك نتيجة حتمية لاعترافنا بالخالق، فهنالك علاقة حتمية عقلية بين الاعترافين.

وهكذا يمكن تحليل العلاقات التي يتضمنها الحوار البرهاني إلى نوعين:

أولاً: علاقات بين الكلمات أو العناصر التي يتضمنها السؤال الواحد، كالعلاقة بين مفهوم (الإبل) وبين كيفية خلقها على هذا الإحكام: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟﴾[الغاشية:١٧/٨٨] كيف خلقت بهذا التكوين لتستطيع السير في رمال الصحراء

(بأخفافها) دون أن تغوص قوائمها، والصبْرَ على الحرِّ والقر (بأوبارها)، والصبر على الجوع والعطش (بجهازها الهضمي) وتناسق سائر أجهزتها على هذا الأساس، والقدرة على الهبوط إلى الأرض من علوّ عدة أمتار، دون أن يصيبها أذًى، بما زُوّدت به قوائمها من عُقدٍ في مفاصلها؛ لتتلقى بها الصدمة الناتجة عن ثقل وزنها ووزن ماتحمل من إنسان أو أثقال، وليستطيع الإنسان التّرجُّل وإنزال حوائجه عن ظهرها بعد أن أبلغته مسافات شاسعة ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بالِغِيهِ إلاّ بشِقِّ الأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧/١٦] وكل هذه الصفات وغيرها تضمّنها قوله تعالى: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ والعلاقة التي تربط العنصرين اللذين يتألف منهما السؤال في هذا الحوار البرهاني هي الكيفية التي تحكي تكوين هذه الصفات وتنسيقها لتنظيم حياة (الإبل) وتعامُلِها مع البيئة التي خُلِقَتْ لها، وعاشت فيها.

أما العنصران فهما: أولاً (الإبل)، ثانياً (الصفات والتنسيق) اللّذان يؤلفان عنصراً واحداً عَبَّر عنه السؤال القرآني في هذا الحوار بلفظ: ﴿خُلِقَتْ﴾، والأداة التي ربطت بينهما هي أداة الاستفهام: ﴿كَيْفَ﴾. وقد حفز القرآن حواسَّنا لإدراك هذه العلاقة بقوله: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ؟﴾.. وبطرح هذا السؤال وتوجيهه إلى الناس، حفَزَ عقولهم وتفكيرهم إلى التأمل والتفكر لإدراك هذه العلاقة.

جـ - مراحل التربية العقلية بالحوار القرآني:

تقوم التربية العقلية القرآنية على إدراك العلاقات بعد تكوين الخبرات بوساطة العقل والحواس معاً، فأوّل مرحلة تمر بها التربية العقلية هي:

١ - تكوين الخبرات: وتُعرَّفُ الخبرة بأنها: ((ارتباط بين الإنسان وبين النتائج التي عاناها من تعامله مع شيء أو شخص، أو مجموعة مؤثرات متكاملة، وهذا الارتباط يترك في الإنسان تغييراً فكرياً وجدانياً سلوكياً، يستفيد منه للتكيّف في المستقبل مع أشياء، أو أشخاص، أو مؤثرات مشابهة، ولايتم ذلك إلا إذا ترك هذا الارتباط أثراً في التفكير، وهذا يدل على أن قيمة الخبرة وفائدتها تقاس بما تؤدي إليه من إدراك العلاقات واللواحق))[1].

(١) انظر جون ديوي: الديمقراطية والتربية ١٤٥-١٤٦، ترجمة متّى عقراوي وزكريا ميخائيل، ط. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٦م.

وبما أنّ القرآن كتاب هداية وإرشاد أُنزل لِيَسْمُوَ بضمير الإنسان ومشاعره عن التوقّف عند المصالح النّفْعِيَّةِ العاجلة، أو التعامل تعاملاً حسّيّاً مع الأشياء؛ فإنه لايكتفي بخبراتنا الحسّية النفعية العاجلة، بل ينقلنا إلى خبرات عقلية تتعلق بالخالق بالمسبب الأول لوجود الكائنات، ليكون لنا به تعلّق وارتباط، ولنبقى على صلة بالكون، لذلك يتابع القرآن، بهذا الحوار البرهاني، السؤال عن السماء والأرض والجبال بعد أن يبدأ بالحوار عن المدركات الحسية. ويحضنا على النظر إليها وتأملها؛ ليربي بصرنا وحواسنا على التأمل وتكوين الخبرات: ﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ؟﴾ [الغاشية: ٨٨/١٧-٢٠].

٢ـ البحث عن العلاقات: ثم ينطلق القرآن في تربية عقولنا على الانتقال من المحسوس المادي إلى المعنوي المجرد. من الإبل التي نعايشها إلى التفكّر في خلقها وأسلوب حياتها. ومن السماء التي نراها إلى التفكير في بنائها وجعلها مرفوعة بكواكبها وشمسها، وهي لابد لها من قوة تمسكها، تمنعها من التساقط أو الزوال..

ومن الجبال التي نراها شاهقة بصخورها الضخمة وكُتَلِها الكبيرة، إلى التفكير في القوة التي أقامتها ونصبتها، لنبحث عن العلاقة بينهما.

ومن الأرض الْمُمَهَّدة التي نعيش عليها ونزرعها ونبني عليها، وهي مُسَطّحة تتسع لمنازلنا ومزارعنا وقصورنا، إلى التفكير فيها كيف سطحت، أي بُسِط سَطْحها ومُهّدَت لنا، فلم تكن كلها جبالاً متعرّجة، ولابقيت ماءً كما كانت قبل أن تتجمد وتتماسك، بل أُعِدَّتْ لحياتنا وسكننا وزروعنا ودوابّنا، تنبت لنا الزرع والزيتون والثمار، ونشق فيها الطرقات، فمن الذي يسّر لنا فيها هذه المعايش؟ إن هذا الانتقال معناه البحث عن العلاقات: كعلاقة هذه الكائنات بخالقها، أي علاقة المسبَّب بالسبب، وهي علاقة حتمية تعبِّر عن بعض مبادئ العقل التي يكتشف العقل بها الروابط العقلية التي يربينا القرآن على أن نفكر فيها ويسألنا عنها في كل حوار برهاني يوجهه إلينا، إذ يسألنا عما نرى، أو يحضنا على أن نتأمل ماحولنا، وعلى التفكير والتساؤل، حتى نتوصل من المخلوق إلى الخالق، ومن مظاهر الحكمة والتدبير إلى الحكيم المدبر، ومن

التنظيم إلى المنظم، ثم يأمر نبيه بتذكيرنا ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية:٨٨/٢١] ذكّرهم بموجد هذه الكائنات، وبمن نسّق حركة الكواكب والأرض والشمس والقمر، فجعل لنا، بذلك، الليل نسكن فيه ﴿وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ [يونس:١٠/٦٧]، نبصر فيه ونرى، ونبحث عن رزقنا، وننظم أمور حياتنا. وهذا التذكير معناه: الحض على البحث عن علاقتنا بالخالق وعلاقة الكائنات بخالقها ومنظمها ومسيرها، وبالقانون الذي تُسَيَّر بموجبه.

٣ـ تربية العقل على التفكير المنظم بطريقة متكاملة، للاستدلال، معتمداً على الخطوات التالية:

١) يطلب القرآن من الإنسان استخدام حواسّه لتكوين خبراته عن التناسق والتكامل في وجود الكائنات، وحياتها، وعن تعاقب الليل والنهار وتكامل حركة الأفلاك والأجرام وتناسقها وخضوعها لنواميس وقوانين محكمة تضبطها.

٢) ثم يدعوه إلى التساؤل عن سر هذه القوانين والنواميس وعن مُقَنِّنِها ومدبّرها؟ وعمَّنْ نظم للكائنات حياتها وأحكم خَلْقها؟

٣) ثم يوصله إلى تكوين نظرة شاملة كلية تدعوه للوصول بعقله، والسّمو بمشاعره إلى خالق هذا الكون ومدبر أموره ومرتب سننه، والقائم على تحقّقها وتنسيقها، وتسخير كثير منها لمصحلة الإنسان ولرفاهيته وحياته.

٤) ويطالب القرآن الناس، بهذا الأسلوب التربوي المتكامل، يطالب الناس ليقوموا بالسلوك اللائق نحو هذا الخالق الحكيم العليم ويدعوهم إلى العمل بشريعته وإلى عبادته وتوحيده، ويضعهم أمام مسؤوليتهم ليشكروا خالقهم، ويناجوه ويعملوا بهديه وتشريعه، ويشعروا بفضله... وهو بذلك يضَعُهم أمام منهج عملي متكامل يطلب تحقيقه، يمتحنهم، وقد استخلفهم في الأرض لينظر كيف يعملون؟ وقد أرسل إليهم رسله بشريعته وأوامره التي تصلح بها حياتهم وبها يسعدون ويعبّرون عن شكر ربهم ثم إليه يحشرون ليكافئهم على ماعملوا...

ثم إن القرآن -بهذا الحوار- أيقظ عقولنا لنتخذ التفكير والاستدلال أسلوباً للتعلّم، لنتعلم واجبنا نحو خالقنا.. واتخاذ التفكير أسلوباً للتعلّم هو ماتوصلت إليه التربية الحديثة بعد تجارب طويلة، وهو ماعبر عنه فيلسوف التربية الحديثة (جون ديوي) بقوله:

((إن الوسيلة المباشرة التي تُحَسِّن طرقنا في التدريس والتعليم تحسّناً مُطّرداً، هي تركيز انتباهنا في الأحوال التي تستلزم التفكير، وتنمِّيه، وتمتحنه. فالتفكير هو طريقة التعلّم الرشيدة))[1].

ويجد قارئ القرآن في أسلوب الحوار الذي يسألنا عمّا يدل على الله في الآفاق وفي أنفسنا أسلوباً تربوياً يستلزم التفكير ويُنَمّيه ويمتحنه. ولنتأمل قوله تعالى يسأل الناس: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ؟﴾ من المطر الذي يحيي الأرض ويخرج ماءها ومرعاها، ومن نبات الأرض رزقاً لكم تأكلون منه وتدّخرون؟ ثم يسألهم ﴿أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ؟﴾ يهبها القدرة على الإبصار والاستماع أو يحرمها. ويُصحِّحها أو يُمْرِضها؟

ثم يسأل: ﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾[يونس:١٠/٣١] يخرج النبتة الحية الناضرة النامية من الحبّة الهامدة، والفرخ من البيضة والإنسان من البويضة؟

يسألنا لنتأمل أين كانت السنبلة وجذورها وأوراقها من تلك الحبة اليابسة. وأين في البيضة كان الفرخ؟ وأين كان يكمن العظم واللحم والزّغب والريش والزقزقة ﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ في ذلك كله وفي سواه من شؤون الكون؟

فهذه الأسئلة تدعونا أولاً إلى استخدام حواسنا لندرك السماء والغيوم والأمطار والأرض والنبات، ولندرك فضل الله الذي وهبنا هذه الحواس ومثلها قوله تعالى:

(١) جون ديوي: الديمقراطية والتربية (١٥٩)، ترجمة متّى عقراوي وزكريا ميخائيل، ط. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلا يُبْصِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٧/٣٢].

فالله يخاطب نبيه يسأله ليسأل الناس أن ينظروا إلى آثار الأمطار التي تسوقها القدرة الإلهية إلى الأرض الميتة البور، فإذا هي خضراء ممرعة بالزرع النابض بالحياة، الزرع الذي تأكل منه أنعامهم، وتأكل منه أنفسهم، أليس في هذه المقارنة دليل على قدرة وعناية وحكمة وراءها رب قدير حكيم رحيم؟ يشيع الحياة والجمال في صفحات الوجود؟!

٤ـ تربية الحواس: وفي هذا كله **تربية للحواس:** تربية للبصر على النظر في الدلائل على عظمة الله ورحمته من مطر وزروع، وكتربية السمع لتلقّي الأخبار التاريخية عن الأمم البائدة التي أهلكها الله إذ لم تستجب لأنبياء الله: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ أَفَلا يَسْمَعُونَ؟﴾ [السجدة: ٢٦/٣٢] أفلايسمعون أخبار تلك الأمم ويرون آثارها في مساكنها الخالية التي تركتها؟! وفي هذا حضّ على استخدام السمع والبصر معاً للوصول إلى المعرفة وإلى سبب هلاك القرون الأولى..

وبلغ **من اهتمام القرآن بالحواس:** أن تكرر ذكر البصر والإبصار والاستبصار والتبصرة، وتصريف الأفعال الدالة عليها في أكثر من ثلاثين موضعاً، وتكرر ذكر السمع ومشتقاته من فعل واسم فاعل في نحو خمسة وثلاثين موضعاً معظمها ذو دلالة فكرية وتربوية... وذكر القرآن بأسلوبه الحواريّ، حاسَّتي السمع والبصر عند الإنسان على أنهما آيتان من الآيات الدالة على حكمة الله ورحمته وعنايته بالإنسان وبإحكام خَلْقِه حتى إنَّ أحداً غيره لايستطيع أن يعوّض على الإنسان أياً من هذه الحواس، إن فقدها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ؟﴾ [الأنعام: ٤٦/٦]. وبهذا يأمر الله نبيه أن (ينظر) في أمر هؤلاء المشركين نظر تبصّر وتفكّر ليعجب من إعراضهم عن التأثّر بآيات القرآن وعن الخوف من أن يأخذ الله أسماعهم وأبصارهم كما وهبهم إياها، مع أن الله يُصَرّف لهم الآيات وينوّعها!؟

وظيفة الحواسّ: يدل الحوار القرآني بسؤاله وحضّه على استخدام الآذان لسماع أخبار الأقوام السابقين الذين كذّبوا الرسل، وتوجيه الأبصار لرؤية آثارهم بعد خراب قصورهم وبيوتهم وخوائها. يدلّ على المهمة التي خلق السمع والبصر لتحقيقها. وتأمّل معي قوله تعالى يخاطب نبيه محمداً ﷺ:

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَثَمُودُ ، وَقَوْمُ إِبْراهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ، وَأَصْحابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ؟﴾ [الحج: ٢٢/٤٢-٤٤].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦].

وتدل هذه الآيات ونظائرها على أن الله زوّد الإنسان بهذه الحواس لتكون أدوات علمية للكشف والمعرفة، وزوّده معها بالعقل (ويسميه القرآن القلب) ليستفيد مما تنقله إليه من صور تطبعها العين فتستقِرّ في القلب (ليفسرها ويعقلها) ومن كلمات تسجّلها الأذن فتصل إلى القلب ليعقلها ويعرف الحق بها، لذلك يسألنا القرآن عما تعقله قلوبنا وتعيه أسماعنا وأبصارنا. فكل قلب لايعي الصواب ولايعقله ولايستجيبُ للحق، فهو أعمى لايفيده السمع ولاالبصر، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٦]. وذلك لأنها لم تحسن الاستدلال بأخبار هؤلاء الأقوام وآثارهم على إهلاك الله إياهم، وأخْذِهم ببطشه وقدرته.

فالحواس تساعد القلب (أو العقل) على فهم الحق والوصول إلى التعليل الصحيح، بما تقدمه له من مَرْئيّات ومَسْمُوعات يرتبها العقل فيجعل منها مقدمات توصله إلى النتائج بالضرورة، وهذا هو الاستدلال الذي يربّينا القرآن على استخدامه للوصول إلى الحق كما سنرى في الفقرة التالية:

٥ـ تربية العقل على المحاكمة والاستدلال:

الاستدلال هو انتقال الذهن البشري من مقدمة بَدَهِيَّةٍ مسلّم بها إلى نتيجة تلزم عنها الفطرة. والفطرة هي (القوة الغريزية التي تعين على معرفة الحق وعلى محبته، والتي فطر

ا لله كل مولود عليها)[1] (ومعرفة ا لله بالفطرة أثبت وأقوى من حصولها بـأي أسلوب آخر، إذ إنّ وجود الإنسان ملزومٌ وجوده تعالى. وانتقال الذهن ((من الملزوم إلى اللازم)) لاينحصر، وإقرار العقول أو القلوب السليمة به لايحتاج إلى دليل)[2] لأنه من الفطرة، فالعاقل يقرّ به كما يقرّ بنفسه بأنه موجود يتحدّث ويتحرك، لأن وجود الإنسان وممارسته للحركة والحياة ملزوم للموجد المحيي، فلاحدوث بلامحدث، ولاحياة بلامُحْيي، والإنسان حدث بعد أن لم يكن، وهو حي بعد أن لم يكن كذلك.

والقرآن يوقظ هذه الفطرة عند الإنسان بسؤال البشر: هل وُجدوا من غير موجد، ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ؟﴾ ثم يسألهم هل خَلَقوا أنفسَهُمْ؟ ﴿أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ﴾[الطور:٥٢/٣٥] وبعد هذا السؤال يترك لهم الإقرار بالنتيجة.. فإذا كان من الفطرة الإقرار بألاّ حادث بلا محدث، والإنسان حادث و لم يُحدث نفسه، فلابد له من الإقرار بخالق أوجده، فهذه النتيجة لازمة عن تلك المقدمة التي يقر بها كل إنسان..

وللحوار الخطابي في القرآن عشرات الأسئلة التي تدفع الإنسان إلى مثل هذا الاستدلال، وإلى الإقرار بصفات ا لله، فيخشع قلبه لطاعة ربه والإيمان برسله وكتبه ووحيه...

كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ؟﴾[الفيل: ١٠٥/١] فا لله يسأل رسوله، وكل من سمع بخبر أبرهة وفيله الذي جاء به ليهدم الكعبة بيت ا لله. وهذا يدل على أن الذي أهلك أبرهة وجيشه قادر على أن يُهلِك المشركين المناوئين للنبي ﷺ مهما تكاثروا وجمعوا من جموع!

ومثله قوله تعالى يسأل عن قبيلة عاد وقبيلة ثمود..، وأخبارُهم كثيرة في القرآن ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بعادٍ ، إِرَمَ ذاتِ الْعِمادِ ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُها فِي الْبِلادِ؟﴾[الفجر: ٨٩/٦-٨] وهي قبيلة لم يُخلَق مثلها، في طول قاماتها وشدة بأسها، ومع ذلك

(١) ابن تيمية: جامع الرسائل ٢٤٣، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مطبعة المدني القاهرة.

(٢) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ٨/٣٧-٣٨، ط. جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

أهلكهم الله، وتركوا ديارهم تشهد بذلك وتركوا مدينتهم ذات الأعمدة.. فأرسل الله عليهم ريحاً صرصراً أهلكتهم: ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾ [الفجر: ٨٩/٩] قطعوا الصخور وشادوا بها قصوراً، ونحتوا الصخر في الجبل فصنعوا فيه لهم بيوتاً ضمن هذا الصخر، ماتزال شاهدةً على بأسهم وقوتهم، ومع ذلك أهلكهم الله لـمّا عَصَوا رسله، وخالفوا هَدْيه ﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٥٤/٣١]، فأصبحوا كبقايا الأوراق والأغصان اليابسة المُهَشّمة التي يتركها صاحب الحظيرة تذروها الرياح بعد الانتهاء من بناء حظيرته..

وفي كل سؤال من هذه الأسئلة استدلال على قدرة الله وبطشه بالظالمين... ومثلها الأسئلة التي في مطلع سورة النبأ. فبعد أن يسأل القرآن (عن النبأ العظيم) الذي يتساءل عنه المشركون، نبأ البعث والحساب، كأنهم لايصدّقون وقوعه. يسوق لهم مجموعة من الأسئلة: عن الأرض التي مهّدها الله لهم فَبَنَوا عليها وزرعوها وشقّوا الطرقات؟ وعن الجبال التي نصبها كالأوتاد، تخفف من وطأة الزلازل، وتدفع عنهم الرياح والأعاصير العاتية، وعن خلقهم زوجين زوجين ليرحم بعضهم بعضاً، وليربوا أولادهم، وعن نظام حياة الإنسان الذي يسّره الله: عن نومه بالليل وتعايشه في النهار؟ وعن السماوات الشداد التي خلقها فوق الكرة الأرضية وبناها فأحكم بناءها وزينها بكواكب لاتتصادم ولاتتساقط... وعن الشمس التي ماتزال تتوهج منذ مئات الملايين من السنين لم تَخْبُ حرارتها بل عُدّلت حتى تناسب حياة الإنسان والنبات والحيوان على هذه الأرض. تأمّل معي هذه الأسئلة في هذا الحوار الرباني، كما جاء في القرآن الكريم ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ ، عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ، الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ، كَلاَّ﴾ لاخلاف في أنه واقع لامحالة ﴿ سَيَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ﴾ سيعلمون حقيقة هذا النبأ العظيم إذا فكّروا في دلائل قدرة الله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهاداً ، وَالْجِبالَ أَوْتاداً ، وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً ، وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً ، وَجَعَلْنا اللَّيْلَ لِباساً ، وَجَعَلْنا النَّهارَ مَعاشاً ، وَبَنَيْنا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِداداً ، وَجَعَلْنا سِراجاً وَهّاجاً ، وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجّاجاً ، لِنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَباتاً ، وَجَنّاتٍ أَلْفافاً؟﴾ [النبأ: ٧٨/١-١٦] أليس الذي قدر على ذلك كله بقادر على أن يحقق ذلك النبأ العظيم؟ ويحييكم من قبوركم ويبعثكم ليحاسبكم على أعمالكم؟ بلى

﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كانَ مِيقاتاً﴾ [النبأ: ١٧/٧٨] ميعاداً للأولين والآخرين. ثم يصف الله ذلك اليوم وأحداثه..

فهذه عشرة أسئلة وجَّهها القرآن إلى الإنسان ليجعل منها دليلاً على قدرة الله على بعث الناس... ومثلها بضعة أسئلة في أواخر سورة (النازعات) يتحدّى القرآن فيها المنكرين ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّماءُ بَناها ، رَفَعَ سَمْكَها فَسَوّاها ، وَأَغْطَشَ لَيْلَها وَأَخْرَجَ ضُحاها ، وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحاها ، أَخْرَجَ مِنْها ماءَها وَمَرْعاها ، وَالْجِبالَ أَرْساها؟﴾ [النازعات. ٧٩/٢٧-٣٢].

هل أنتم أشد خلقاً من السماء حتى يعجز الله الذي خلقها عن بعثكم؟ كلا! لن يُعجزه شيء عما قدَّر إذا حان موعده: ﴿فَإِذا جاءَتِ الطّامَّةُ الْكُبْرَى ، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنْسانُ ما سَعَى ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾ [النازعات: ٧٩/٣٤-٣٦].

٦ً- الأصول الفكرية التربوية للأسلوب القرآني في تربية العقل على الاستدلال:

هذه الأسئلة، ومثلها كثير، يربي بها القرآن العقل على الاستدلال وفقاً للأصول الفكرية والتربوية التالية التي يجدها الباحث بالاستقراء:

أ - إن القرآن يبني براهينه في هذه الأسئلة على **مقدمات مسلم** بها بداهة أو أمور حسية يراها المخاطبون ويعايشونها.

بً - يُبْنَى هذا الحوار القرآني على **الاستفهام التقريري**، إذ يسأل عما يُقِرُّ به جميع العقلاء وجميع الناس بفطرتهم.

جً - يترك للمخاطبين **استنباط النتائج** من هذه (المقدمات) التي سألهم عنها. وقد يسألهم عن موضوع النتيجة المطلوبة صراحة كما في آخر سورة القيامة حيث سألهم ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟﴾ سألهم هذا السؤال بعد أن وجّه إليهم أسئلة بالاستفهام التقريري عن البراهين والأدلة: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ، ثُمَّ كانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ، فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ

وَالأُنْثَى ، أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى؟﴾ [القيامة: ٧٥/٣٦-٤٠] أليس الذي طوّر الإنسان وخلقه قادراً على بعثه وإحيائه؟

د - بناء الاستنباط على الروابط الصحيحة

وذلك **بتربية القدرة على استنباط النتائج الصحيحة** من مقدماتها التي ارتبطت بها، وعلى عدم قبول المقدمات إلا إذا كانت مؤيّدة بالحسّ والبداهة ليصل بها إلى النتائج المقبولة، وإلاّ إذا كانت واضحة الصلة بالمقدمات أي مشتركة معها بموضوع واحد، وفي أغلب الأحيان يصرح الحوار بالفكرة المشتركة بين المقدمات والنتيجة أو يشير إليها ليهيئ الذهن لها من أول الحوار، كما في سورة النبأ ﴿عَمَّ يَتَساءَلُونَ ، عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ..﴾ فهذا السؤال من الحوار القرآني يأتي مع جوابه الذي يزيد في التشويق إلى معرفة سر هذا (النبأ العظيم) ليهيئ النفس إلى تلقي البراهين ويعدّ العقل للقيام بالاستدلال المستوحى من الأسئلة التي تأتي في الآيات التالية... وكلها مقدمات وبراهين حسية تتضمن نتيجتها وهي قدرة الله على البعث...

٧ـ تربية العقل على الاستدلال بالآثار التاريخية:

وقد وردت قرابة عشرين آية بعضها يحث على تأمّل مساكن الأقوام الذين أهلكهم الله ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَساكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨/٢٠].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [محمد: ١٠/٤٧].

وبعضها يلفت الانتباه إلى وضوح ماتبيّن للمتأملين في مساكنهم إذ يخاطبهم القرآن بذلك ﴿وَعاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَساكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨/٢٩].

وبعضها يأمر بالسير في الأرض لتأمل آثار الأقوام السابقة من المكذبين لرؤية آثار الدمار وعاقبة المجرمين:

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ؟﴾ [النمل: ٦٩/٢٧].

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ؟﴾ [الأنعام: ١١/٦].

وبعضها يحضّ، بحوار تعريضي، على استخدام العقول (القلوب) والأبصار لهذا الغرض ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْناها وَهِيَ ظالِمَةٌ فَهِيَ خاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِها وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِها أَوْ آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها فَإِنَّها لا تَعْمَى الأَبْصارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٢٢/٤٥-٤٦].

فوصف القلوب التي لاتهتدي ولاتستدل بالآثار، وصفها بالعمى، بعد أن طالب بالسير في الأرض، لتأمُّل الآثار وسماع الأخبار ورؤية القرى والمساكن الخاوية والآبار المعطلة للاستدلال بها على ماجرى للأقوام والقرى التي أهلكها الله. وهذه الآيات جاءت بأسلوب حواري قرآني بعضها بالحوار الخطابي الموجه إلى النبي ﷺ، ليأمر بالسير في الأرض لتأمّل الآثار، وبعضها بالسؤال عن الذين لم يهتدوا، ولم يستدلّوا بالآثار، وبعضها عن طريق التّعْريض بهم...

والحمد لله أولاً وآخراً....



المراجع والمصادر

- القرآن الكريم كما أُثِر عن سيدنا عثمان برواية حفص عن عاصم بإشراف هيئة عليا من علماء الشام: أبو اليسر عابدين، كريم راجح، عبد العزيز عيون السود.
- تفسير المنار، ط. مطبعة المنار بمصر، الطبعة الأولى ١٣٤٩م/١٤٠٩هـ.
- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، الناشر دار المعرفة بيروت الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني (المتوفى ١٢٥٠هـ بصنعاء) الناشر مكتبة المعارف الرياض.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، الناشر دار الشروق، الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.
- تفسير الجلالين بهامش المصحف الشريف، تأليف جلال الدين السيوطي، جلال الدين المحلي، ط. المكتبة الهاشمية، تحقيق محمد كريّم راجح، حسين خطاب.
- أسباب النزول، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي، ط. المكتبة الهاشمية، محمد هاشم الكتبي، تحقيق محمد كريّم راجح، حسين خطاب، طبع بهامش تفسير الجلالين.
- الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، نشر وتوزيع دار ابن كثير بيروت، دار اليمامة دمشق، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج، ط. دار الطباعة العامرة إستامبول، ١٣٣٠-١٣٣١هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل.
- الجامع الصغير من حديث البشير النذير، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين السيوطي.

- صحيح الجامع الصغير وزيادته، محمد ناصر الدين الألباني، ط. المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
- الجامع الصحيح، محمد بن عيسى الترمذي (صحيح الترمذي).
- سنن النسائي، أحمد بن علي بن شعيب النّسائي (ت ٣٠٣هـ).
- صحيح ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة السُّلَمِي، ط. المكتب الإسلامي بيروت.
- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد الزيلعي (ابن ماجه).
- مسند أبي داوود، سليمان بن داوود الطيالسي (ت ٢٠٣هـ).
- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥هـ).
- صفة صلاة النبي ﷺ، محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة السادسة، ط. المكتب الإسلامي بيروت.
- رياض الصالحين للإمام النووي، نشر وتحقيق: دار الخير، الطبعة الثالثة ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- التربية بالآيات، عبد الرحمن النحلاوي، ط. دار الفكر دمشق ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- التربية بالعبرة، عبد الرحمن النحلاوي، ط. دار الفكر دمشق ١٤١٥هـ/١٩٩٤م.
- التربية بضرب الأمثال،، عبد الرحمن النحلاوي، ط. دار الفكر دمشق ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
- مبادئ علم النفس العام، د. يوسف مراد، دار المعارف مصر ١٩٤٨م.
- الديمقراطية والتربية، جون ديون، ترجمة متّى عقراوي، زكريا ميخائيل، الناشر: لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٤٦م.
- أصول التربية الإسلامية وأساليبها، عبد الرحمن النحلاوي، ط. دار الفكر دمشق ١٩٩٦م.

• أعــلام التربيــة في تــاريخ الإســلام: ١ــ ابــن تيميــة، عبـــد الرحمـــن النحـــلاوي ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

• مختار الصحاح، أبو بكر الرازي منشورات دار الحكمة دمشق ١٩٨٣م.

• القاموس المحيط، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الثالثـة ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

• ابن تيمية، جامع الرسائل، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مطبعة المدني القاهرة.

• ابن تيمية، دَرْء تعارض العقل والنقــل، ط. جامعـة الإمـام محمـد بـن سـعود الإسـلامية الرياض ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

EDUCATING THROUGH DIALOGUE

A modern and old style of educating at the same time; hence, a supreme method of educating, teaching, cultivating and civilizing.

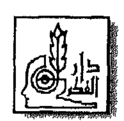
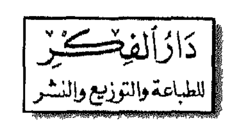
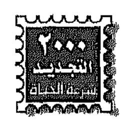
Allah Himself started the creation raising dialogue with the angels. He, thereby, taught them, guided them and confuted them! Why do we then avert the method of The Creator Who aims to promote and ennoble us?!

In addition, dialogue evolves reason, guides the process of thinking and causes ideas to collide until they settle at the striking truth, exactly as the generous positive and negative clouds when they meet. Lightning electricity charges them so that thunder growls and heavy rain falls with pouring sustenance.

So, why not to make use of dialogue in educating!

When we decide to make use of it, how to utilize it?

Having known how to utilize it, might we succeed?

- **أسست** عام ١٩٥٧م
- **رسالتها**
  - تزويد المجتمع بفكر يضيء له طريق مستقبل افضل.
  - كسر احتكارات المعرفة، وترسيخ ثقافة الحوار.
  - تغذية شعلة الفكر بوقود التجديد المستمر.
  - مد الجسور المباشرة مع القارئ لتحقيق التفاعل الثقافي.
  - احترام حقوق الملكية الفكرية، تشجيعاً للابداع.
- **منهاجها**
  - تنطلق من التراث جذوراً تؤسس عليها، وتبني فوقها دون أن تقف عندها، وتطوف حولها.
  - تختار منشوراتها بمعايير الإبداع، والعلم، والحاجة، والمستقبل، وتنبذ التقليد والتكرار ومافات أوانه.
  - تعتني بثقافة الكبار، كما تعتني بثقافة أطفالهم.
  - تخضع جميع أعمالها لتنقيح علمي وتربوي ولغوي وفق دليل ومنهج خاص بها.
  - تعدُّ خططها وبرامجها للنشر، وتعلن عنها: شهرياً وفصلياً، وسنوياً، ولآماد أطول.
  - تستعين بنخبة من المفكرين إضافة إلى أجهزتها الخاصة للتحرير، والأبحاث، والترجمة.
- **خدماتها**
  - بنك القارئ النهم، ونادٍ لقراء دار الفكر.
  - جائزة سنوية للإبداع الأدبي والدراسات النقدية.
  - ريادة في مجال النشر الألكتروني.
  - أول موقع متجدد بالعربية لناشر عربي على الإنترنت للتعريف بإصداراتها ونشاطاتها.

www.fikr.com

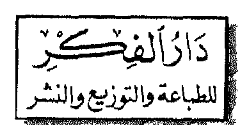
  - إسهام فعال في موقع (فرات) لخدمات الكتاب وتسويقه على الإنترنت.

www.furat.com

  - خدمة المستفتي بإشرافها على موقع الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي.

www.bouti.com

- **منشوراتها** تجاوزت ١٣٠٠ عنواناً، تغطي سائر فروع المعرفة.



دمشـــق - ســـورية - ص.ب: ٩٦٢
هاتـف: ٢٢١١١٦٦ -فاكـس: ٢٢٣٩٧١٦
e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com

A Method of the Islamic Education
EDUCATING THROUGH DIALOG
Min Asālīb al-Tarbiyah al-Islāmīyah
Al-Tarbiyah bi-al-Ḥiwār

'Abd al-Raḥmān al-Niḥlāwī

وهذا أسلوب من التربية جديد قديم بآن معاً.

وهو إلى ذلك طريقة راقية من طرق التربية والتعليم والتهذيب والحضارة.

ألم يبدأ الله تعالى الخلق بالحوار مع الملائكة فعلمهم ووجههم وألزمهم الحجة؟! فلماذا لا نستخدم أسلوب الخالق الذي أراد أن يرقينا ويسمو بنا؟!

والحوار بعدُ، ينمي العقل ويوجه التفكير، وبه تتصادم الأفكار لتصل بعد التصادم إلى الحقيقة الرائعة، كالغيوم الخيّرة يلتقي سالبها بموجبها فتشحنها كهرباء البرق فتزمجر رعودها وتهطل بالخير المنسكب..

لماذا لا نستخدم الحوار في التربية!

وإذا أردنا أن نستخدمه، فكيف يكون ذلك؟

وإذا عرفنا كيف نستخدمه فهل نفلح فيه؟

DAR AL-FIKR
3520 Forbes Ave., #A259
Pittsburgh, PA 15213
U.S.A
Tel: (412) 441-5226
Fax: (412) 441-8198
e-mail: fikr@fikr.com
http://www.fikr.com/

ISBN 1-57547-293-7



SIROUR ALWANI 2000